د. وشيد الخيّون

جدل التنزيل

مع كتاب خلق القرآن للجاحظ



منشورات الجمل

جدل التنزيل

د. رشيد الخيّون

جدل التنزيل

مع كتاب خلق القرآن للجاحظ

منشورات الجمل

ولد رشيد الخيّون في هور الحمّار - الجبايش / العراق. أكمل الدراسة الثانوية ومعهد المعلمين ببغداد، أنجز الدراسة الجامعية (قسم الفلسفة) بجامعة عدن (١٩٨٤) فيما أكمل دراساته العليا (الدكتوراه في الفسلفة) في جامعة صوفيا. صدر له: **مذهب المعتزلة من الكلام الى الفلسفة** (بيروت ١٩٩٤)؛ **تلخيص البيان في ذكر فرق الأديان**، تحقيق (لندن ١٩٩٤)؛ **معتزلة البصرة وبغداد** (لندن ١٩٩٧). يصدر له قريباً: **الأديان والمذاهب بالعراق**.

د. رشيد الخيّون: جدل التنزيل، مع كتاب خلق القرآن للجاحظ، الطبعة الأولى

كولونيا - المانيا ٢٠٠٠

رسمة الغلاف: من ارشيف مكتبة «ديوان الكوفة» - لندن

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

مقدمة

الكتب المقدسة، وكل ديانة لها كتابها، نصوص محفوظة في الصدور أو صحف أو كتاب بين دفتين، حلت في وجدان معتقديها عبر مقدمات من العجائب. فكل نبي له قصته باستلام كتابه من السماء، ويكاد يكون الوسيط واحداً، هو جبرائيل، وإن تعددت أسمائه واختلفت صفاته. وفي الحضارات القديمة كان جبرائيل احد نواب الإله الكبير، مصدر الحياة وكل شيء، والمنزه من الصفات، مثل (آنو) عند السومريين. لكن الكتب السماوية التي وصلتنا على ألواح طينية وقطع صخرية من عهد سومر وبابل ومصر القديمة استوعبنا بسهولة تسميتها بالأساطير، رغم ما فيها من كلام مقدس ورد في الكتب الحالية.

إن البحوث والدراسات في المقدسات الحية بنفس محايد من أصعب المهام، فللجدل والمعرفة حدود لا يجوز تجاوزها، فما بعد ذلك من شأن الله كما يزعمون. لكن المعتزلة حاولوا التجاوز ففتحوا كوة في الجدار المقدس تسرب منها خيط من النور، هو حلم الله في سيادة العقل، كما اعتقد المعتزلة. لكن الآخرين ما زالوا يمنعون تحقيق هذا الحلم، وهذه هي إرادة الله كما يعتقدون أيضاً. وذريعتهم في ذلك، أن الله طرد آدم وحواء من الجنة لأنهما عرفا وأدركا، والجنة أرض سماوية طاهرة لا تقبل فيها من يفكر ويعرف ويجادل، هذه هي ذريعتهم في حجب المعرفة، والرضوخ للنص. فما هذا الاغتراب عن المعرفة، وهل كان ضحايا الاضطهاد الفكري والديني معنين بخطيئة آدم وحواء لأنهما عرفا فجادلا! إلى حد قتلهم، أو توبتهم في أفضل الأحوال؟

ما كان يراه المؤرخون، قبل تفشي الظلمة بحلول العصور الوسطى وتشددها الديني الرهيب في الغرب والشرق على السواء، أن لا قيود على كشف الماضي، وكانوا يتسابقون إلى ذلك. ومن الموضوعات التي بحثوها كان تاريخ القرآن. ومن المذهل حقاً أنهم بحثوا الصغيرة والكبيرة في تاريخ الكتاب دون أن يؤثر ذلك في موقفهم منه، وقد أكدوا ذلك قولاً وفعلاً. لقد أبهرني حب القلة القليلة من

المؤرخين للمعرفة من أجل المعرفة، فدخلت في هذا الموضوع، وحرصت على أن أترك الروايات تتكلم، فالرواية التي تعبر عن نفسها لا أجد مبرراً من تفكيكها ونسجها بأسلوب آخر. ولعلّ ذلك في عرف الآخرين قصور في البحث أو تهاون في التحليل وإبداء الرأي. أما أنا فأراه غير ذلك تماماً، فكلما تم الالتزام بالنصوص المروية وتوثيقها كان البحث رصيناً، وبدون تعنت إنها طريقتي المحببة في البحث، فأجد في النيابة عن الرواية تجاوزاً عليها، وهروباً من مشقة البحث عن أصولها، فكثير من الباحثين يسلبون الروايات بهاءها، ويتكلمون مثل شهود عيان. لذا سيجد القارئ كماً كبيراً من النصوص المروية، التي تجيب بنفسها على ما يطرح من تساؤلات. ولم يكن الغرض منها التنصل عن المسؤولية، ولكن حرصاً على سلامة المعلومة وبهائها التاريخي.

أما أن نطرق مثل هذا الموضوع، الذي قد لا يحظى برضاء الكثيرين، فقد كان الخلاف بين المسلمين حول أمور كثيرة، ومنها خلافهم بشأن الله تعالى، فما بال اختلافهم حول كتابه. وفي الاختلاف حوله تعالى ورد الأسئلة التالية: كيف يكون، هل هو جسم موصوف، أو شيء "ليس كمثله شيء"، أو هو الطبيعة نفسها، وأين مكانه، وهل يسمع كلامه، إلى غير ذلك؟ وفي هذا الشأن سجل أبو الحسن الأشعري في كتابه "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" مقالات أبرز متكلمي الملل الإسلامية، نوردها كالتالي: قالت المجسمة: إن الله جسم له نهاية وحدٌ، طويل عريض عميق. ومنهم من قال: إنه على صورة إنسان، لكنه ليس لحماً ودماً، وإنما هو نور ساطع. وقال آخرون: إنه ضياء خالص، وليس بذي صورة ولا أعضاء، ولا اختلاف في الأجزاء. وقال بعض المرجئة: لله ماهية لا ندركها في الدنيا، وأنه يخلق في الآخرة حاسّة سادسة تدرك بها ماهيته، وهذا أيضاً قول ضرار بن عمرو المعتزلي السابق. وقالت المعتزلة: إن الله واحد ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، وليس بجسم، ولا شبح ولا جثة ولا صورة...الخ. كذلك اختلف رؤساء الملل والنحل في تحديد مكان الله، فمنهم منْ قال: إنه بكل مكان، ومن قال: إنه في أعلى السماوات، أي على "العرش استوى" بمعنى استولى. وحول

مكانه وزمانه قال الكليني: "إن الله تعالى أين الأين.[1]" كما اختلفوا حول رؤيته، وقدرته، وإرادته، وهل ينزل إلى الأرض، أم مستقر في السماء؟ واختلفوا حول كلامه، أهو جوهر أم عرض، أو هو الله أم غيره، وهل له كلام أم لا؟

إن جواز الاختلاف في الباري عز وجل، كما ورد في مجادلات أهل العلم، فسح المجال أمام الاختلاف في القرآن. وأعتقد أن كتاباً مثل القرآن وردت فيه تشريعات، ونواهٍ وأوامر، لا بد أن يشغل الفكر، ويخُتلف حوله، والحديث التالي: "لا تجادلوا في القرآن فأن جدلاً فيه كفر[2]" وضع ليغلق باب البحث والجدل، ويسد على العقل الطريق الصحيح إلى الإيمان. لكن ما قرأناه في كتاب "الأمالي" للشريف العلوي علي بن الطاهر المرتضى، أحد أعيان الشيعة في القرنين الرابع والخامس الهجريين، من احتياط إلى ما قد يفترضه المفترضون من خطأ ورد في سورة "مريم" (الآية ٢٨) ويفصح عن موقف آخر تماماً، وهذا ما سنتبينه من تفاصيل الخلاف حول القراءات وجمع ونسخ المصاحف. فالمرتضى رغم تأويله لما ورد في الآية من خطأ تاريخي" يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمكُ بغيا "يثير السؤال التالي: هل ما بأيدينا كلام الله القديم أم المخلوق الذي أختلف بنسخ حروفه وقراءته؟ قال المرتضى في حواره حول الآية المذكورة: "إن سأل سائل عن قوله تعالى (الآية أعلاه) فقال: منْ هارون الذي نسبت له مريم عليها السلام إلى أنها أخته"؟ ومعلوم أنها لم تكن أختاً لهارون أخي موسى عليهما السلام. وما معنى كان في المهد صبياً.[3]" ويحاول المرتضى الإجابة على السؤال المطروح بعدة احتمالات، متفادياً فيها تخطئة القرآن منها أن هارون المذكور في الآية" كان رجلاً فاسقاً، فلما أنكروا ما جاءت به من الولد، وظنوا بها ما هي مبرأة منه نسبوها إلى هذا الرجل تشبيهاً وتمثيلاً، وكان تقدير الكلام يا شبيهة هارون في فسقه وقبح فعله، وهذا القول يروى عن سعيد بن جبير.[4]" ومنها "أن هارون هذا كان أخاها لأبيها دون أمها، وقيل: كان أخاها لأبيها وأمها، وكان رجلاً معروفاً بالصلاح، وحسن الطريقة والعبادة والتأله، وقيل: إنه لم يكن أخاها على الحقيقة بل كان رجلاً صالحاً من قومها، وأنه لما مات شيع

جنازته أربعون ألف رجل كلهم يسمون هارون من بني إسرائيل، فلما أنكروا ما ظهر من أمرها قالوا لها: يا أخت هارون، أي بالشبيهة بالصلاح ما كان هذا معروفاً منك، ولا كان والدك ممن يفعل القبيح ولا يتطرق عليه الرّيب."

ويتابع المرتضى تأويلات المفسرين، فيأتي بتأويل مقاتل بن سليمان للآية المذكورة بأخوة مريم وهارون، الذي يسبقها بزمن طويل يزيد على سبعة قرون، فهي، حسب الرواية "من نسل هارون كما قال تعالى: وإلى عاد أخاهم هوداً.. وإلى ثمود أخاهم صالحاً». لكن المصادر القديمة تقول: إن ابنة عمران وأخت موسى وهارون الكبرى كان اسمها مريم، وهي التي راقبت" سفط البردي الذي أخفي فيه موسى بين الحلفاء".[5] أما والد مريم المقصودة بالسورة، وهي والدة عيسى، فهو يواكيم، وكان لها أخت واحدة، يُقال اسمها سالومي (حسب معلومات معجم الكتاب المقدس.) وهناك دراسات تشير إلى أن مريم لم تكن يهودية يوماً ما، وقد يكشف المهتمون في تاريخ الأديان ما يخفيه تاريخ الديانة الصابئية المندائية من وقائع قد تغير تغييراً ملموساً في تاريخ الأديان بمنطقة الشرق الأوسط.[6]

وفي رواية يذكرها النديم عن ابن الراوندي، أن الأخير كشف بطريق الصدفة تصحيف لكلمة من سورة الحديد (الآية ١٠) ظلت أربعين عاماً تقرأ مصحفة. قال ابن الراوندي: "مررت بشيخ جالس وبيده مصحف وهو يقرأ: ولله ميزاب السماوات والأرض، فسلمت وقلت: يا شيخ أيش تقرأ، قال: القرآن، ولله ميزاب السماوات والأرض. فقلت: وما تعني بميزاب السماوات والأرض، قال: هذا المطر الذي ترى، فقلت ما يكون التصحيف إلا إذ كان مفسراً يا هذا، إنما هو ميراث السماوات والأرض. فقال: اللهم غفراً، أنا منذ أربعين سنة أقرؤها وهي في مصحفي هكذا.[7] "نلمس في هذه الحادثة وغيرها طبيعة الجدل حول القرآن، فقد ظل ينسخ بالأيدي طيلة (١٢٠٠) سنة، حتى طبعت أول نسخة منه" في مدينة همبورغ بألمانيا سنة (١٦٩٤) للميلاد، أي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري".[8] فهو كتاب ينسخ حروفه البشر وقد يخطئون في نسخ كلماته، إن لم يكن للحفاظ دور في ذلك.

وأخيراً، ألم يشر الحديث النبوي، صحيحاً كان أو موضوعاً، "لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو، فإني أخاف أن يناله العدو"[9] إلى قلق من حدوث شيء ما، أقله إدخال أو حذف كلمة، مع علمنا أن حدوث مثل ذلك خطيئة كبيرة في عرف المؤمنين. فمجرد اقتراح، غير جاد، لحذف آية قتل عمر بن عبد العزيز أحد خاصته يوم كان أميراً على المدينة، والمعروف عنه كان أوسع الخلفاء صدراً، وبعداً عن إراقة الدماء. ورد في الرواية أن الوليد بن عبد الملك أمر ابن عمه والي المدينة بتوسيع المسجد النبوي، وأن "يدخل فيه حجرات أزواج النبي، وهدم الحجرات، وإدخال ذلك في المسجد، ولما بدأ بهدم الحجرات، قام خُبيب بن عبد الله بن الزبير إلى عمر والحجرات تهدم، فقال: نشدتك الله ياعمر أن تذهب بآية من كتاب الله، يقول: إن الذين ينادونك من وراء الحجرات. فأمر به، فضرب مائة سوط، ونُضح بالماء البارد، فمات، وكان يوماً بارداً".[10] ويقال أن عمراً ندم بعدئذ على قتل خُبيب" فكان لما ولي الخلافة، وصار ما صار إليه من الزهد، يقول: "منْ لي بخبيب".[11] وأحسب أن خبيباً هذا اعترض على الهدم لحس حضاري يتعلق بالمحافظة على الآثار، فحجرات النبي أثر من الآثار العزيزة والنادرة، فنبه بطريقته إلى ما يجري من تخريب فيها. وحصل، فيما بعد، أن الجاحظ نقد عثمان بن عفان، مع أنه عثماني الهوى، على هدمه لأسوار يثرب (المدينة)، وقصر غمدان باليمن، ونقد العباسيين على تماديهم في تخريب آثار الأمويين. كل هذا يشير إلى أن الأمر بيد الناس، يفكرون ثم يصوغون من أفكارهم أقانيم مقدسة لا جدل حولها. أما الضحايا الذين حاولوا التعامل مع تلك الأفكار بصدق ووعي عميق فهم الذين أدركوا أن لا مندوحة من الجدل في أي أمر كان.

إن مقالة خلق القرآن كما طرحها المعتزلة لا تعني أن القرآن من تأليف النبي محمد، كما يزعم خصومهم، كذريعة لإصدار فتاوى التكفير والقتل بحق قائليها. وتعني الفكرة ببساطة نفي صفة الكلام عن الله، وأن القرآن مخلوق من مخلوقاته، ويتكلمه منْ أنزل عليه بطريقة ما، كرؤيا النائم، أو رؤيا اليقضان. لكن ذلك لا يعني أن فكرة تأليف القرآن لم تطر على بال أحد من المعتزلة، بعد أن

اعتبروا الشجرة ناطقة به إن خُلق فيها. كما لم يمنعهم هذا من الاعتراف بالقرآن ككتاب سماوي مع عدم الاعتراف بإعجازه اللغوي، فهو معجزة النبي محمد. وقد أرجأنا الحديث عن مقالة "خلق القرآن" حتى تتبين تاريخه، تنزيلاً وجمعاً وترتيباً واختلاف الآراء حوله. كان الكتاب الذي بين يدي القارئ مشروعاً يقتصر على تحقيق الفصل المخطوط من كتاب الجاحظ "خلق القرآن"، ولكن دراسة التحقيق استغرقت البحث عن تاريخ مقالة خلق القرآن، واتصل هذا بتاريخ القرآن، وبهذا توفرت مادة يصعب إهمالها وإخراج المخطوطة عارية من تاريخ موضوعها. كما أود الإشارة إلى أن كل نص محصور بين قوسين كبيرين، داخل الروايات، هو توضيح مني.

الهوامش:

(١) الكافي،١ ص٢٢٥

(٢) كنز العمال،٢٨٣٦/١

(٣) أمالي السيد المرتضى،٤ ص ٦-١

(٤) المصدر نفسه. ابن جبير: أبو هشام، الإمام الحافظ المقرئ والمفسر الشهيد، على حد عبارة شمس الدين الذهبي، وكان من موالي الكوفة روى عن عبد الله بن عباس وعائشة، وقرأ القرآن على ابن عباس، ومنه أخذ أبو عمرو بن العلاء. وكان ابن عباس يقول إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه: "أليس فيكم ابن أم الدهماء"؟ ويعني بعيد بن جبير. قتله الحجاج بن يوسف الثقفي السنة٩٥ هـ. السنة التي هلك فيها الحجاج.

(٥) قاموس الكتاب المقدس، ص٨٥٦

(٦) المعروف عن اليهود من أعداء المندائية. والمندائيون يعدون يوحنا المعمدان من شهدائهم في حملات التنكيل اليهودية ضدهم. وقد يطرح السؤال نفسه، ما هو سر تعلق المندائيين بيوحنا المعمدان وقبله إبراهيم، واعتباره الأول ربانياً وهي أعلى مرتبة من مراتب تلك الديانة، والثاني من المقدسين؟ سؤال يُترك للباحثين عن الحقيقة في تاريخ الأديان وتفاعل معتقداتها. وقد تكون النتيجة أن يوحنا ومريم والمسيح لم يكونوا يهوداً انشقوا أو تمردوا على دينهم، فنفذ فيهم حكم الردة، كما تلقف ذلك الفقه الإسلامي وجعله حكماً شرعياً قاسياً لا مبرر له.

(٧) الفهرست، ص٢١٧-٢١٦

(٨) موسى أفندي الروسي، تاريخ المصاحف، مجلة المنار، آذار٧-١٩

(٩) كنز العمال٢٨٦٣/٢

(١٠) تاريخ اليعقوبي،٢ ص٢٨٤

(١١) المصدر نفسه

الباب الأول

تاريخ القرآن

من النزول إلى المصحف الذي بأيدي الناس

الفصل الأول

أسماء وألقاب

جعل الزركشي (ت٧٩٤هـ)، عن مؤرخين آخرين، خمسة وخمسين اسماً ولقباً للقرآن الكريم، وردت جميعها في سوره، وهي: القرآن، الكتاب، كلام الله، النور، الهدى، الرحمة، الفرقان[١]، الشفاء، الأيمان، الموعظة، الذكر، الكريم، العلي، الحكمة، الحكيم، المهيمن، المبارك، الحَبْل، الصراط، القيّم، الفصل، النبأ العظيم، الأحسن، الحديث، التنزيل، الروح، الوحي، المثاني، العربي، القول، البصائر، البيان، العلم، الحق، الهادي، العجب، التذكرة، العروة الوثقى، المتشابه، الصدق، العدل، الأمر، البشرى، المجيد، الزبور، المبين، البشير، العزيز، البلاغ، القصص، الصحف، المكرم، المرفوع، المطهر.[٢] ومن أسمائه التي أطلقها المسلمون عليه: الإمام، كقولهم: إمام عثمان وإمام أهل الشام[٣]، والمصحف، ومأدبة الله كما ورد في حديث نبوي: "القرآن مأدبة الله فتعلموا مأدبته ما استطعتم.[٤]"

واختلف الناس أيضاً في أسماء السور، ففي معنى السورة أورد السيوطي عن العتبي ما يلي": السورة لا تهمز ولا تهمز، فمن همزها جعلها أسارت، أي أفضلت من السؤر، وهو ما بقي من الشراب في الإناء، كأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم وسهل همزها. ومنهم من يشبهها بسورة البناء، أي القطعة منه، أي منزلة بعد منزلة. وقيل من سور المدينة لإحاطتها بأبياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور، ومنه السوار لإحاطته بالساعد. وقيل لارتفاعها لأنها كلام الله، والسورة المنزلة الرفيعة. وقيل لتركيب بعضها على بعض، من التسور بمعنى التصاعد والتركيب.[٥]"

تعددت أسماء عدد من السور، وهذا لا يمكن أن يكون توقيفاً – مفروض مسبقاً – عن النبي، كما ذهب إلى ذلك عدد من المحدثين والمفسرين، وإنما كان الاجتهاد في التسمية حسب طبيعة السورة، وما فيها من مواقف. وفي فترة

حرجة، كان المشركون يستهزئون بأسماء السور، التي سميت بأسماء الحيوان. وقيل أن الرسول أوصى المسلمين أن لا يقولوا" سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التي تذكر فيها البقرة، والتي تذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله."[6]

وفي تعدد أسماء السور، ذكر السيوطي، في "الإتقان" لسورة الفاتحة فقط، – كان هناك خلاف عليها في أن تكون من القرآن أم لا – أكثر من عشرين اسماً، فهي الفاتحة وأم القرآن، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، والوافية، والكنز، والكافية، والأساس، والنور، وسورة الصلاة، وسورة التفويض... الخ. وسميت البقرة فسطاط القرآن، وسنام القرآن، وهي وآل عمران سميت بالزهراوين. وسميت آل عمران طيبة. وسميت المائدة العقود، والمنقذة. وسميت الإسراء سبحان، وبني إسرائيل (في عدد من طبعات المصاحف اليوم سميت بهذا الاسم.) وسميت النحل النعم. وسميت براءة التوبة، والفاضحة، والمقشقشة (المبرئة من النفاق)، وسميت طه الكليم، وسميت الشعراء الجامعة، وسميت النمل سليمان، وسميت السجدة المضاجع، وسميت يس قلب القرآن والمدافعة والقاضية، وسميت الزمر الغرف، وسميت غافر الطول والمؤمن، وسميت فصلت السجدة والمصابيح، وسميت الجاثية الشريعة والدهر (وفي المصاحف اليوم الدهر غير الجاثية واسمها أيضاً الإنسان، ووردت في مصحف عبد الله بن مسعود[7] باسم هل أتى.)

وسميت محمد القتال. وسميت ق الباسقات، وسميت اقتربت (كما وردت في مصحف أبي بن كعب، وفي مصحف إبن مسعود) القمر. وسميت الرحمن عروس القرآن. وسميت المجادلة الظهار (كما وردت في مصحف أبي بن كعب.) وسميت الحشر بني النضير، وسميت الممتحنة الامتحان والمرأة. وسميت الصف الحوارين. وسميت الطلاق النساء القصوى. وسميت التحريم لِمَ تحرم، وسميت تبارك الملك. وسميت سأل سائل (كما وردت في مصحف ابن مسعود ومصحف أبي: المعارج والواقع.)

وسميت عمّ (كما وردت في مصحف إبن مسعود ومصحف أبي) النبأ والتاؤل والمعصرات. وسميت لم يكن (كما وردت في مصحف إبن مسعود (أهل الكتاب) كما وردت في مصحف أبي بن كعب)، والبينة والقيامة والبرية والانفكاك. وسميت ارأيت) كما وردت في مصحف إبن مسعود (الدين والماعون. وسميت الكافرون العبادة، وسميت النصر التوديع. وسميت تبت المسد. وسميت الإخلاص الأساس. وسميت الفلق والناس المعوذتان.

الهوامش:

(١) حسب رأي المختصين باللغات القديمة أن الفرقان كلمة ذات أصل عبري (باروقا) وتعني المخلص أو المنجي، ليس له علاقة بالمصدر العربي فرقَ بين الحق والباطل، ومنه كان لقب عمر بن الخطاب بالفاروق. وعمر بهذه الحال لقب بالمخلص لا بالمفرق بين الحق والباطل، كما شاع في كتب الإخباريين، فالكل كانوا يفرقون بين الحق والباطل، فلماذا ينفرد عمر بهذا اللقب دون غيره. وذكر ابن عساكر أن أصل التسمية كانت من أهل الكتاب: "بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر: الفاروق، وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم" (تاريخ دمشق،٤٤ ص ٥١.) واستناداً إلى ما فصحت عنه رواية دخول عمر إلى الإسلام أن الرسول استبشر كثيراً بإسلامه، ومن يومها أعلنت الدعوة بعد أن كانت سرية لسنوات. فأبو بكر كان الصدّيق وعمر المخلص. كذلك أشارت آيات قرآنية، منها: "آتينا موسى وهارون الفرقان"، و"آتينا موسى الكتاب والفرقان" إلى أن الفرقان جاء بالمعنى المذكور. ويشير الحديث التالي إلى أنه من أسماء التوراة أيضاً: "والذي نفسي بيده ما أنزل في القرآن ولا في الزبور ولا في الانجيل ولا في الفرقان مثلها، يعني أم القرآن، وإنها لسبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته" (كنز العمال،٢٤٩٧/١.)

(٢) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن،١ ص٢٧٢

(٣) أبو بكر السجستاني، كتاب المصاحف، ص٥٦

(٤) محمد الري شهري، ميزان الحكمة، ٨ ص٧٤

(٥) الإتقان في علوم القرآن،١ ص١١٥

(٦) المصدر نفسه، ص١١٦

(٧) ابن غافل الهذلي، أسلم بعد اثنين وعشرين نفراً، وقيل إنه أول من جهر بالقرآن بمكة، تولى ولاية المال بالكوفة، ثم غضب عليه عثمان حتى حرمه من عطاء سنتين، وكان الرسول يسميه بابن أم عبد (والدته)، وهو قارئه المفضل، وقيل خادمه الشخصي، وكان من المهاجرين إلى الحبشة. وذكر أنه شهد بدراً واحتز رأس أبي جهل، وأتى به إلى الرسول. ويعطي هذا التصرف صورة أخرى عن ابن مسعود المسالم والزاهد، ولعلّ الحماسة فعلت فعلها في أجواء ذلك الحدث. توفي بالمدينة السنة٣٢ هـ (الذهبي، سير أعلام النبلاء،١ ص٤٦١.) معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار،١ ص ٣٢.)

الفصل الثاني

النزول

تحدث الأخباريون المسلمون، من مختلف الملل، عن نزول القرآن من "اللوح المحفوظ"، الذي محله "السماء السابعة"، وكذلك نزول الكتب السماوية الأخرى، ويعطي محمد باقر المجلسي، أحد أعيان الشيعة في القرن الحادي عشر الهجري، وصفاً عجيباً لمراسيم نزول القرآن بسنده إلى أخباريين متقدمين، وبيداه بوصف الملاك إسرافيل حارس اللوح والحاجب الهائل: "هذا حاجب الربّ، وأقرب خلق الله منه. واللّوح المحفوظ بين عينيه من ياقوتة حمراء، فإذا تكلم الرب تبارك وتعالى بالوحي ضرب اللّوح جبينه فنظر فيه، ثم ألقى إلينا نسعى به في السموات والأرض، انه لأدنى خلق الرحمن منه، وبينه وبينه تسعون حاجباً من النور، يقطع دونها الأبصار ما يعد ولا يوصف."[1]

ويوصف اللوح المحفوظ أن "له طرفان طرف على العرش، وطرف على جبهة إسرافيل، فنظر في اللّوح فيوحي به إلى جبرائيل عليه السلام."[2] وإسرافيل الذي يحمل القرآن إلى جبرائيل، وهو أقرب المخلوقات من الرب إذ يبعد عنه "مسيرة ألف عام."[3] وقال جلال الدين السيوطي، وهو فقيه ومؤرخ ومفسر سني من أعلام القرنين التاسع والعاشر الهجريين، في إنزال القرآن: "اختلف في إنزاله من اللّوح المحفوظ على ثلاثة أقوال: أحدهما وهو الأصح والأشهر: أنه نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً في عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين أو خمسة وعشرين على حسب الخلاف في مدة إقامته (الرسول) بمكة بعد البعثة."[4] وروى السيوطي أيضاً، حول نزول القرآن، ما لا يختلف عن وصف المجلسي: "أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان ينزل على رسوله بعضه في اثر بعض."[5]

ويصف إمام الحرمين الجويني، وهو من كبار متكلمي وفقهاء الأشاعرة في القرن الخامس الهجري وأستاذ أبي حامد الغزالي، مراتب نزول القرآن بقوله:

"أن جبرائيل صلوات الله عليه أدرك كلام الله تعالى وهو في مقامه فوق سبع سموات، ثم نزل إلى الأرض فأفهم الرسول ما فهمه عن سدرة المنتهى من غير نقل لذات الكلام.[6]" ويعني الجويني بـ" من غير نقل لذات الكلام" عدم نقل صوت الله، موضحاً ذلك بقوله: "إذا قال القائل: نزلت رسالة الملك إلى القصر، لم يرد بذلك انتقال أصواته، أو انتقال كلامه القائم بنفسه."

وعكس الأخباريون الهول السماوي، الذي صاحب نزول القرآن، على حال الرسول الجسمانية، فوُصف عند تلقي الوحي أنه "كان يعالج من ذلك شدةً، فنزل: لا تحرك به لسانك، وكان إذا نزل عليه الوحي وجد منه ألماً شديداً، ويتصدع رأسه، ويجد ثقلاً.[7]" وكيف يكون حال الرسول إذا صدق قول ابن عباس: "سمعت أنه نزل جبرائيل على رسول الله ستين ألف مرة[8]"؟ وقد ورد أن الرسول عند استلام الوحي يغمى عليه ويتصبب عرقاً، فإذا أفاق قال: "قال الله عز وجل: كذا وكذا، وأمركم بكذا، ونهاكم عن كذا.[9]"

وفي خبر مرفوع إلى الإمام جعفر الصادق إشارة إلى أن الغشية التي تصيب الرسول ساعة استلام الوحي ليست من رؤية جبرائيل، بل من سماع صوت الله بدون وسيط. قال الصادق: "أن جبرائيل إذا أتى النبي لم يدخل عليه حتى يستأذنه، فإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد، وإنما ذلك عند مخاطبة الله عز وجل إياه بغير ترجمان وواسطة.[10]"

وبشكل عام، لا يعترف المعتزلة بتلك التفاصيل الأسطورية الهائلة، التي قدمها الاخباريون لإضفاء أكبر قدر من القدسية والأجواء الرهيبة على العلاقة بين الوحي والرسول، وبالتالي عكسها على علاقة الرسول بالناس. فأكثر تلك التفاصيل وردت بأحاديث نبوية، وللمعتزلة رأيهم الخاص في رواية الحديث.[11] ورد برواية عبد الله بن عباس أن ما نزل من القرآن بمكة هو "ثلاث وثمانون سورة.[12]" وأشار إلى أن أول ما نزل منه كان سورة "اقرأ باسم ربك[13]"، وهناك منْ أشار، في أولوية النزول، إلى سورة "يا أيها المدثر.[14]" وآخر سورة نزلت بمكة كانت سورة "العنكبوت[15]"، وفي رواية أخرى كانت سورة "المطففين.[16]" وأول ما نزل بالمدينة (يثرب) سورة "المطففين[17]"، وفي رواية أخرى كانت سورة

"البقرة."[18] وآخر سورة نزلت بالمدينة كانت سورة "التوبة" التي تسمى أيضاً سورة "براءة" "وهي آخر القرآن"[19]، وهي الوحيدة التي كانت وما زالت خالية من البسملة. وقد ورد أن علي بن أبي طالب علل شذوذها عن سور القرآن الأخرى بقوله: "لأنها أمان (بسم الله الرحمن الرحيم) وبراءة نزلت بالسيف."[20]

وفي رواية كانت آخر سورة "التغابن".[21] وفي أخرى قال الإمام علي بن أبي طالب: "سألت النبي، صلى الله عليه وسلم، عن ثواب القرآن فأخبرني بثواب كل سورة سورة على نحو ما أنزلت من السماء، وبأن أول ما أنزل عليه بمكة فاتحة الكتاب، ثم أقرأ باسم ربك."[22] وحسب الرواية نفسها، أن أول ما أنزل بالمدينة سورة "البقرة"، وآخره سورة "النجم".

أما بشأن سورة "الفاتحة"، فقال الشيخ أبو سهل الأنماري: "هذه الروايات كما ترى قد اتفقت على أن جميع سور القرآن مائة وثلاث عشرة سورة، ولم يذكر شيء منها فاتحة الكتاب في العدد، ولا في أنها مكية أو مدنية ولا متى نزلت."[23] وقال أبو سهل مصححاً: "وقع عندي حديث هو أوجب من هذه الأحاديث كلها، وأقرب إلى المعنى المحتمل أن أول ما نزل من القرآن فاتحة الكتاب، ثم أقرأ باسم ربك."[24] و ورد في المصدر المذكور اختلاف الروايات حول ترتيب نزول السور القرآنية، مثلاً: ورد ترتيب سورة "المزمل" الثالثة، وفي رواية أخرى وردت الرابعة بعد سورة "أقرأ" و"ن والقلم" و"الضحى." وأن تكون سورة "الضحى" العاشرة بعد أن كانت الثالثة كما مبين أعلاه. ووردت سورة "العنكبوت" آخر السور المكيات، وفي رواية أخرى حلت محلها "المطففين" التي اصبحت مكية بعد أن كانت مدنية.

يعزو أحد المهتمين في بحث نشره في مجلة "المنار" العام ١٩٠٧، تحت عنوان "تاريخ المصاحف" الاختلاف في ترتيب السور إلى عدم وجود ضوابط نبوية، أي كان ترتيبها اجتهادي لا توقيفي. وسبب ذلك: "أن الرسول لم يلزمهم باتباع ترتيب مخصوص في السور، ولم يجمعهم على قراءة واحدة، سور القرآن كل منها كتاب قائم بذاته، كما قال تعالى: رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها قيمة (البينة/٢) فليس ثمَّ فائدة في التزام ترتيب مخصوص، ولفظ (سورة) مأخوذ من سورة المدينة سميت به القطعة المخصوصة من القرآن، لأنها طائفة مستقلة

بذاتها. فكأنه صلى الله عليه وسلم ترك للمسلمين(١١٤) كتاباً، كل محفوظ مكتوب مرتبة آياته، وجمعها بالطريقة الحاضرة لم يكن معروفاً في عهده، وإنما حدث بعده بقليل.[٢٥]" وردت هذه المعلومات كما هي في كتاب السيوطي "الإتقان في علوم القرآن١" (ص١٢٦)، دون أن يشير الكاتب إلى مصدرها، لكن اطلاعنا عليها في المجلة المذكورة، قبل المصدر المذكور يستوجب ذكرها للأمانة العلمية.

وقال الباقلاني في الاختلاف حول ترتيب سور القرآن: "اختلفوا في أول ما نزل من القرآن، فمنهم من قال: قوله اقرأ باسم ربك، ومنهم من قال: يا أيها المدّثر، ومنهم من قال: فاتحة الكتاب. واختلفوا أيضاً في آخر ما أنزل: فقال ابن عباس: إذا جاء نصر الله. وقالت عائشة: سورة المائدة. وقال البراء بن العازب: آخر ما أنزل سورة براءة (التوبة.) وقال سعيد بن جبير: آخر ما أنزل قوله تعالى: واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله. وقال السُدّي: آخر ما أنزل: فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت.[٢٦]"

وقال السيوطي في تصنيف السور إلى مكية ومدنية: "إن للناس اصطلاحات ثلاثة[٢٧]": الأول: المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح، أو عام حجة الوداع، أم بسفر من الأسفار. الثاني: المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة، وما نزل بالأسفار لا يصنف مكياً ولا مدنياً، ودليل أصحاب هذا الرأي الحديث النبوي التالي: "انزل القرآن في ثلاثة أمكنة: مكة والمدينة والشام.[٢٨]" وعلى حد قول أحدهم يعني بالشام بيت المقدس. الثالث: المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة. وقال عبد الله بن عباس في تداخل آيات السور بين المكية والمدنية: "أول ما نزل بمكة وما أنزل منه بالمدينة الأول فالأول. وكانت إذا نزلت سورة فاتحة الكتاب بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء بالمدينة، فكان أول ما نزل بالقرآن (هكذا وردت.[٢٩]") والسور المكية في المصحف الذي بين أيدي الناس (العثماني) ست وثمانون سورة، والسور المدنية ثمان وعشرون سورة.

ويضع محمد دروزة مميزات عامة بين القرآن المكي والقرآن المدني، رغم أن أسلوب القرآن "يساعد بنطاق ضيق على التمييز بين السور المكية والسور

المدنية بل الآيات المكية والآيات المدنية أيضاً.[٦] والميزات التي وضعها الباحث المذكور، نذكرها بتصرف كالتالي: أولاً، مميزات السور المكية: تنحو في الأغلب نحو التسجيع والتوازن، وتتكثف فيها الدعوة إلى الله وإثبات استحقاقه، ووحدة الخضوع والعبادة ومحاربة الشرك (سلمياً كما تشير إلى ذلك آيات تلك المرحلة)، وكان تشويقياً، يكثر فيه التنديد والتحذير المتصل بالدعوة كأسلوب دعوة، إلى جانب كثرة القصص ومشاهد الآخرة، والحديث عن الملائكة والجن وحكاية أقوال الكفار وجدلهم، وأن وحدة الموضوع في السور الطويلة والمتوسطة فضلاً عن القصيرة واضحة في كل سورة، مع ظهور مبادئ الدعوة القرآنية قوية فيها، و وضوح أسلوب القرآن، واستخدام اللهجة الخطابية القوية النافذة.

ثانياً، مميزات السور المدنية: ويبدو فيها السجع قليلاً وربما نادر، مع طول نفس الآيات، وقلة القصص والمشاهد الأخروية، والجن والملائكة والجدل، ووصف مشاهد الكون، وتظهر فيها المبادئ والتكاليف التعبدية والأخلاقية والاجتماعية بوضوح، وكذلك ظهور التشريعات مع التأكيد على إبطال القيم القديمة، وإقرار عادات وتقاليد أخرى. لكن ذلك لا يلغي وجود التداخل بين ما هو مكي وما هو مدني، لذا تظهر تلك المميزات مشتركة في آيات عديدة، مكية كانت أو مدنية. ولعلّ مرجع ذلك الاشتراك يعود إلى الاجتهاد في ترتيب السور والآيات، وتسميتها بالمكية والمدنية على خلاف حقيقة ظروف نزولها. وإجمالاً، أن أهم ما يميز المكي، الذي نزل بمكة قبل الهجرة، هو الدعوة بالتي هي أحسن، وتفضيل مبدأ السلم على مبدأ القتال، والتأكيد على الحرية الدينية. أما طابع السور المدنية، التي نزلت بالمدينة، بعد استتباب الدعوة وتحقيق الانتصارات فتميزت بالشدة والعنف.

الهوامش:

(١) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ١٨ ص ٢٥٨

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٩

(٣) المصدر نفسه

(٤) الإتقان في علوم القرآن، ص١ص٨٩

(٥) المصدر نفسه

(٦) كتاب الإرشاد، ص١٣٥

(٧) بحار الأنوار، ١٨ ص٢٦١

(٨) المصدر نفسه٢٦٣

(٩) المصدر نفسه،٢٦٠

(١٠) المصدر نفسه

(١١) للتعرف على رأي المعتزلة في هذا الأمر مراجعة كتاب "الحور العين" لنشوان الحميري، مادة "اختلاف الناس في الحجة بالخبر"، وكتابنا "معتزلة البصرة وبغداد"، مادة إبراهيم بن سيار النظام.

(١٢) ارثر جفري، مقدمتان في علوم القرآن، ص٩

(١٣) المصدر نفسه، ص٨

(١٤) المصدر نفسه، ص١٦

(١٥) المصدر نفسه ص٩

(١٦) المصدر نفسه، ص١٢

(١٧) المصدر نفسه، ص١٠

(١٨) المصدر نفسه، ص١٢

(١٩) المصدر نفسه، ص١٠

(٢٠) الإتقان في علوم القرآن،١ ص١٤٢

(٢١) مقدمتان في علوم القرآن، ص١٢

(٢٢) المصدر نفسه، ص١٤

(٢٣) المصدر نفسه ص١٣

(٢٥) محمد افندي، تاريخ المصاحف، مجلة المنار، ١٩٠٧ المجلد العاشر

(٢٦) إعجاز القرآن، ص٤٤٥-٤٤٣

(٢٧) الإتقان في علوم القرآن،١ ص١٦

(٢٨) المصدر نفسه، كنز العمال،٦٦-٢/٣

(٢٩) مقدمتان في علوم القرآن، ص١١-١٠

(٣٠) دروزة، القرآن المجيد، ص١٢٤

الفصل الثالث

إحصاء السور والآيات والحروف

في رواية، أن الرسول أحصى سور وآي وحروف القرآن بقوله: "جميع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وآيات القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية وست وثلاثون آية، وجميع حروف القرآن ثلاث مائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائتان وخمسون حرفاً، لا يرغب في تعلم القرآن إلا السعداء، ولا يتعهد قراءته إلا أولياء الرحمن.[1]"

وبالمعنى نفسه ورد الحديث التالي مرفوعاً إلى عبد الله بن عباس: "درج الجنة على قدر آي القرآن، بكل آية درجة، فتلك ستة آلاف ومائتا آية وستة عشر آية، بين كل درجتين مقدار ما بين السماء والأرض، فينتهي إلى أعلى عليين لها سبعون ألف ركن، وهي ياقوت تضيء مسيرة أيام وليالي.[2]" وورد في حديث، وصف أنه غريب الإسناد، أن "القرآن ألف ألف حرف وسبعة وعشرون ألف حرف، فمن قرأه صابراً محتسباً فله بكل حرف زوجة من الحور العين.[3]" وفي حديث آخر، أحصيت حروف القرآن بـ"ألف ألف وسبعة وعشرون ألف حرف.[4]" وكان أبو القاسم الخوئي نقل الحديث الأخير عن السيوطي عن الطبراني، وبسند موثوق عن عمر بن الخطاب، وقال معلقاً غير مصدق: "بينما القرآن الذي بين أيدينا لا يبلغ ثلث هذا المقدار، وعليه فقد سقط من القرآن أكثر من ثلثيه.[5]" ونقل الخوئي عن السيوطي أيضاً أن إن عمر اص قال: "ليقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله، وما يدريه ما كله؟ قد ذهب منه قرآن كثير، ولكن ليقل قد أخذت من ما ظهر.[6]" وجاء في المصدر نفسه أن ابن أبي داود عن ابن الأنباري[7] عن ابن شهاب[8] أنه قال: "بلغنا أنه كان أنزل قرآن كثير، فقتل علماؤه يوم اليمامة، الذين كانوا قد دعوه، ولم يعلم بعدهم ولم يكتب." ومثل هذه الروايات كثير.

وقال محمد الكليني[9]، أحد إخباريي الشيعة في القرن الرابع الهجري وصاحب كتاب" الكافي": "إن القرآن الذي نزل به جبريل على محمد كان سبعة

عشر ألف آية، والتي بين أيدينا ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية، والبواقي مخزونة عند أهل البيت فيما جمعه علي."[10] وقال الكليني أيضاً: "إن جميع ما في المصحف كلام الله، إلا أنه بعض ما نزل، والباقي مما نزل عند المستحفظ، لم يضع منه شيء، وإذا قام القائم يقرؤه الناس كما أُنزل على ما جمعه أمير المؤمنين."[11]

وحول هذا الموضع ورد في الكافي عن الإمام محمد الباقر: "ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله، كما أُنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما أنزله الله تعالى إلا علي بن أبي طالب، والأئمة من بعده."[12] وقال الكليني عن المنخل عن جابر[13] عن أبي جعفر: "ما يستطيع أحد أن يدّعي أن عنده جميع القرآن كله، ظاهره وباطنه غير الأوصياء."[14] عموماً أن روايات نقص القرآن كانت شيعية وسنّية، ولكن لا يقرها الشيعة كافة ولا السنّة كافة، وإنما هي روايات تبقى بحدود مسؤولية قائليها.

واختلفت الروايات حول عدد سور القرآن باختلاف المصاحف، قبل حرقها من قبل الخليفة الثالث عثمان بن عفان. فكان مصحف الصحابي عبد الله بن مسعود مائتين واثني عشرة سورة، بعد أن اثبت المعوذتين، الفلق والناس، أدعية لا قرآناً. ورد في الرواية: "كان يرى (ابن مسعود) النبي صلى الله عليه وسلم يعوّذ بهما الحسن والحسين، ويعوّذ غيرهما، كما كان يعوّذهما بـ(أعوذ بكلمات الله التامة) فظن أنهما ليستا من القرآن، فلم يثبتهما في مصحفه."[15]

وفي رواية الراغب الأصبهاني "أسقط ابن مسعود أم القرآن (الفاتحة) والمعوذتين."[16] وزاد أبي بن كعب في مصحفه على المصحف العثماني، سورتين ليصبح مائة وست عشرة سورة، بعد أن اثبت "افتتاح دعاء القنوت، وجعله سورتين، لأنه كان يرى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يدعو بهما في الصلاة، دعاءً دائماً، فظن أنه من القرآن."[17] وأفاد السيوطي في "الإتقان" أن سورتي "الخلع[18]" و"الحفد[19]" هما الزائدتان في مصحف أبي، فأصبح ١١٦ سورة، وأن مصحف عبدالله بن مسعود تنقصه ثلاث سور هي: "الفاتحة"، و"أعوذ برب

الفلق" و"أعوذ برب الناس"، ووفقاً لذلك يصبح مصحفه (١١١) سورة لا (١١٢) كما أقرت الروايات ذلك. وفي سورتي "الخلع" و"الحفد" وردت الروايات التالية: "أخرج البيهقي (...) أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى نقمتك، إن عذابك بالكافرين ملحق.[٢٠]" وأخرج الطبراني رواية مرفوعة إلى عبد الله بن زرير الغافقي[٢١] بقوله: "قال لي عبد الملك بن مروان: لقد علمت ما حملك على حبّ أبي تراب (علي بن أبي طالب) إلا أنك أعرابي جلف، فقلت: والله لقد جمعت القرآن من قبل أن يجتمع أبواك، ولقد علمني منه علي بن أبي طالب سورتين، علمهما إياه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ما علمتهما أنت ولا أبوك: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك بالكفار ملحق.[٢٢]"

وقال ابن الضريس: "أنبأنا أحمد بن جميل المرزوي عن عبد الله بن المبارك، أنبأنا الأجلح عن عبد الله بن عبد الرحمن عن أبيه، قال: في مصحف إبن عباس قراءة أبيّ وأبي موسى: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك الخير ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك. وفيه: اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نخشى عذابك ونرجو رحمتك، إن عذابك بالكفار ملحق.[٢٣]" ولربما كان الذين تركوا السورتين "الخلع" و"الحفد"، لأنها من الأدعية، تصرفوا مثلما تصرف به عبد الله بن مسعود في تركه للمعوذتين، إضافة إلى ترك ما أثبته أُبي بن كعب في مصحفه. والجدير بالذكر أن في القرآن الكريم عدداً من آيات الدعاء لكنها ثبتت كسور وآيات.

وردّ القاضي أبو بكر الباقلاني، أحد كبار متكلمي الأشاعرة في القرنين الرابع والخامس الهجريين، على الذين قد يطعنون بإعجاز القرآن، بعد أن اختلطت آياته بأدعية الرسول، بقوله: "فإن قيل لولا أن كلامه معجز لم يشتبه على

إبن مسعود الفصل بين المعوذتين وبين غيرهما من القرآن (و) يشتبه دعاء القنوت في أنه هل من القرآن أم لا؟ قيل: هذا تخليط الملحدين، لأن عندنا أن الصحابة لم يخف عليهم ما هو من القرآن، ولا يجوز أن يخفي عليهم القرآن من غيره، وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط، وقد يجوز أن يكون شذ عن مصحفه لا لأنه نفاه من القرآن، بل عوّل على حفظ الكل إياه."[٢٤]

وشأن فقهاء ومتكلمي السنّة يضفي الباقلاني القدسية والعصمة على الصحابة جميعاً، قاتلهم ومقتولهم وظالمهم ومظلومهم. وفيما يخص جمع وكتابة القرآن هناك أكثر من خلاف، سنأتي عليها فيما بعد. وبشأن المعوذتين وفعل ابن مسعود فيهما ورد حديث نبوي جاء فيه: "أنزل عليّ آيات لم ير مثلهن قط، قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس."[٢٥] والحديث المذكور كما يتضح من متنه وضع لمقابلة هذه الرواية، فأمر الخلاف فيهما لم يحدث في حياة الرسول.

وقال عبد الرحمن بن الجوزي عن أبو الحسن (الحسين) المنادي[٢٦]: "جميع سور القرآن في تأليف زيد بن ثابت على عهد الصدّيق، وذي النورين (عثمان بن عفان) مائة وأربع عشرة سورة، فيهن الفاتحة والمعوذتان، وذلك هو الذي في أيدي أهل قبلتنا، وجملة سوره على ما ذكر أُبي بن كعب مائة وست وعشرة سورة، وكان ابن مسعود يسقط المعوذتين، فنقصت جمليته سورتين عن جملة زيد، وكان أُبي بن كعب يلحقهما ويزيد إليهما سورتين، وهما "الحفد" و"الخلع"، أحدهما: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، وهي سورة الخلع، والأخرى: اللهم إياك نعبد في سورة الحفد، فزادت جملته عن جملة زيد سورتين، وعلى جملة إبن مسعود أربع سور، وكل أدى ما سمع، ومصحفنا أولى بنا أن يتبع."[٢٧]

وذكر السيوطي، برواية ابن أشتة[٢٨]، سور مصحف عبد الله بن مسعود إحدى عشرة سورة هي: البقرة، النساء، آل عمران، الأعراف، الأنعام، المائدة، يونس، براءة، النحل، هود، يوسف، الكهف، بني إسرائيل، الأنبياء، طه، المؤمنون، الشعراء، الصفات، الأحزاب، الحج، القصص، طس، النحل، النور، الأنفال، مريم، العنكبوت، الروم، يس، الفرقان، الحجر، الرعد، سبأ، الملائكة، إبراهيم، ص، الذين كفروا، لقمان، الزمر، حم المؤمن، الزخرف، السجدة،

حمعسق، الأحقاف، الجاثية، الدخان، الممتحنات، إنا فتحنا لك، الحشر، تنزيل السجدة، الطلاق، ن والقلم، الحجرات، تبارك، التغابن، إذا جاءك المنافقون، الجمعة، الصف، قل أوحي، إنا أرسلنا، المجادلة، الممتحنة، يا أيها النبي لم تحرم، الرحمن، النجم، الطور، الذاريات، اقتربت الساعة، الواقعة، النازعات، سأل سائل، المدثر، المزمل، المطففين، عبس، هل أتى، المرسلات، القيامة، وعمّ يتساءلون، إذا الشمس كورت، إذا السماء إنفطرت، الغاشية، سبح، الليل، الفجر، البروج، إذا السماء انشقت، اقرأ باسم ربك، البلد، الضحى، الطارق، العاديات، أرأيت، القارعة، لم يكن، الشمس وضحاها، التين، ويل لكل همزة، الم تر، لئيلاف قريش، ألهاكم، إنا أنزلناه، إذا زلزلت، العصر، الكوثر، قل يا أيها الكافرون، تبت، قل هو الله أحد، ألم نشرح."[29] وهذه (١١١) سورة فقط بعد أن اسقط الفاتحة والمعوذتين.

وقال السيوطي ذاكراً عدد سور مصحف أبي بن كعب: "كذا نقل جماعة عن مصحف أبي إنه ستٌ عشرة سورة. والصواب أنه خمس عشرة، فإن سورة الفيل وسورة لئيلاف قريش فيه سورة واحدة."[30] وهي برواية ابن أشتة ايضاً: الحمد، البقرة، النساء، آل عمران، الأنعام، الأعراف، المائدة، يونس، الأنفال، براءة، هود، مريم، الشعراء، الحج، يوسف، الكهف، النحل، الأحزاب، بني إسرائيل، الزمر، طه، الأنبياء، النور، المؤمنون، سبأ، العنكبوت، المؤمن، الرعد، القصص، النمل، الصفات، ص، يس، الحجر، حمعسق، الروم، الحديد، الفتح، القتال، الظهار، تبارك الملك، السجدة، إنا أرسلنا نوحاً، الأحقاف، ق، الرحمن، الواقعة، الجن، النجم، سال سائل، المزمل، المدثر، اقتربت، حم الدخان، لقمان، حم الجاثية، الطور، الذاريات، ن، الحاقة، الحشر، الممتحنة، المرسلات، عمّ يتساءلون، لا أقسم بيوم القيامة، إذا الشمس كورت، يا أيها النبي إذا طلقتم النساء، النازعات، التغابن، عبس، المطففين، إذا السماء انشقت، التين، الزيتون، أقرأ باسم ربك، الحجرات، المنافقون، الجمعة، لم تحرم، الفجر، لا أقسم بهذا البلد، والليل، إذا السماء إنفطرت، والشمس وضحاها، السماء والطارق، سبح اسم ربك، الغاشية، الصف، التغابن، سورة أهل الكتاب، الضحى، ألم نشرح لك صدرك، القارعة، التكاثر، العصر، سورة الخلع، سورة

الحفد، ويل لكل همزة، إذا زلزلت، العاديات، الفيل، لئيلاف قريش، أرأيت، إنا أعطيناك، القدر، الكافرون، إذا جاء نصر، تبت، الصمد، الفلق، الناس.[31]"

ويلاحظ في هذه الرواية تكرار ذكر سورة "التغابن" ونقصان المصحف المذكور ست سور عن ما ذكره السيوطي، وهو مئة وست عشرة سورة، ولعلَّ ذلك سقط في عملية نسخ الكتاب. أما الذين عدوا المصحف بمائة وثلاث عشرة سورة فقد أعدوا سورة "الأنفال وبراءة سورة واحدة[32]"، وعدم اعتبار الفاتحة من القرآن، ولعلَّ بسبب ذلك ورد تأكيد إثباتها بالقول: إنها أم القرآن. كما أفرز ابن الجوزي في "فنون الأفنان" خمس وثلاثين سورة ليس هناك خلاف في عدد آياتها بين المصاحف، ومعظمها من السور القصار، وهي: الفاتحة، الحجر، الفرقان، القصص، الأحزاب، الفتح، الحجرات، ق، القمر، الحشر، الامتحان، الصف، الجمعة، المنافقون، التغابن، ن، الإنسان، المرسلات، الانفطار، الأعلى، الغاشية، البلد، الليل، الضحى، الانشراح، التين، العاديات، التكاثر، الهمزة، الفيل، الكوثر، الكافرون، النصر، تبت، الفلق. أما السور المختلف على عدد آياتها فتبلغ (٧٦) سورة منها السور الطوال. فعلى سبيل المثال أُختلف في إحصاء سورة البقرة بين أن تكون (١٨٥) آية، عدَّ الشامي والمكي والمدني، و(١٨٦) آية عدَّ الكوفي، (١٨٧) آية عدَّ البصري.[33]"

الهوامش:

(١) مقدمتان في علوم القرآن، ص١٥

(٢) كنز العمال،٢٤٢٥/١

(٣) المصدر نفسه،٢٤٢٦/١

(٤) المصدر نفسه،٢٣٠٨/١

(٥) البيان في تفسير القرآن، ص٢٠٣-٢٠٢

(٦) المصدر نفسه ص٢٠٢

(٧) أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، أحفظ أهل الكوفة، فكان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن، وكان ديناً صدوقاً، وصف بالبخل، توفي ببغداد السنة٣٢٧ هـ (الزبيدي، طبقات النحويين، ص١٥٣.)

(٨) أبو بكر محمد بن مسلم الزهري، من أهل المدينة ونزيل الشام، وكان من المحدثين المعروفين، ويقدر عدد الأحاديث التي رواها بألفي حديث، وقيل إنه أول من دون في علم الحديث، توفي السنة١٢٤ هـ (سير أعلام النبلاء،٥ ص٣٢٦.)

(٩) أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي، شيخ الشيعة وعالم الإمامية كان ببغداد، وتوفي السنة٣٢٨ هـ (سير أعلام النبلاء،١٥ ص ٢٨٠.)

(١٠) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون،٢ ص٣٥، عن الكافي في الوشيعة، ص٢٣

(١١) المصدر نفسه

(١٢) الكليني، الكافي،١/٢/١٧٢

(١٣) أبو خالد، من تابعي الكوفة، شهد مع علي معركة النهروان (الخطيب، تاريخ بغداد،٧ ص ٢٣٦.)

(١٤) الكافي،١٧٣

(١٥) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص٣٦

(١٦) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء،٤ ص٤٣٤

(١٧) تأويل مختلف الحديث، ص٣٦

(١٨) الحَفْد: الخفة والسرعة

(١٩) الخلع: النزع والعزل

(٢٠) الإتقان في علوم القرآن،١ ص١٤٣

(٢١) المصري، تابعي، روى عن علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب، وصف بالثقة، توفي السنة٨٠ هـ (المزي، تهذيب الكمال،١٠ ص ١٤٢.)

(٢٢) الإتقان في علوم القرآن،١ ص١٤٣

(٢٣) المصدر نفسه

(٢٤) إعجاز القرآن، ص٤٤٣-٤٤٢

(٢٥) كنز العمال،٢٦٧٢/١

(٢٦) أحمد بن جعفر بن محمد المعروف بابن المنادي، كان أحد القراء المجوِّدين ومن أصحاب الحديث الكبار، ولم يسمع الناس من مصنفاته إلا أقلها، وذلك لشراسة خلقه. ومن أمثلة ذلك كان لا يستقبل تلاميذه وضيوفه إلا بعد سؤالهم عن عددهم من قبل جاريته، وإن نقص أو زاد عددهم أعتذر عن استقبالهم. توفي ببغداد السنة٣٣٦ هـ (ابن الجوزي، المنتظم،١٤ ص ٦٦-٦٥.)

(٢٧) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ص٣٦

(٢٨) أحمد بن عبد الغفار الأصبهاني الكاتب، يوصف بالشيخ الثقة المسند، توفي السنة٤٩١ هـ (سير أعلام النبلاء، ١٩/١٨٣.)

(٢٩) الإتقان في علوم القرآن،١ ص١٤١-١٤٠

(٣٠) المصدر نفسه، ص١٤٤

(٣١) المصدر نفسه

(٣٢) المصدر نفسه،١ ص١٤١

(٣٣) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ص٥٢.

الفصل الرابع

المصحف

قبل جمع القرآن في مصحف واحد كان محفوظاً في الصدور، ومنقوشاً على قطع الجلد، وكرب النخيل، وصفائح متفرقة. وكانت الروايات تتحدث، قبل المصحف الذي عرف بمصحف حفصة، عن مصحف علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. وحسب روايات إخباريي السنّة، على مختلف مذاهبهم، فإن حرب اليمامة، بزعامة مسيلمة بن حبيب الحنفي، دفعت عمر بن الخطاب إلى جمع ما كتب من القرآن في مصحف واحد. أما الشيعة وبعض السنّة فرأيهم أن علي بن أبي طالب هو الذي جمع القرآن. وقضى في حرب اليمامة عشرات من الحفاظ، والمشهور في الروايات كان القتلى سبعين حافظاً، فقيل أن مع قتلهم ذهب قرآن كثير. وكان كتاب "المصاحف" لأبي بكر بن أبي داود السجستاني تاريخاً شاملاً للقرآن الكريم، ففيه النزول، وترتيب السور، والجمع، والاختلاف بين المصاحف، والتنقيط، وما أحدث الحجاج بن يوسف الثقفي من تغييرات على حروفه. وروى السجستاني خبراً مرفوعاً إلى محمد بن سيرين، مفسر الأحلام وفقيه البصرة المعروف في القرن الأول والثاني الهجريين، فيما يخص جمع القرآن قبل حرب اليمامة من قبل علي بن أبي طالب أنه قال: "لما توفي النبي أقسم علي أن لا يرتدي برداء إلا لجمعه حتى يجمع القرآن في مصحف، ففعل. فأرسل إليه أبو بكر بعد أيام أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟ قال: لا والله، لو أني أقسمت أن لا أرتدي برداء إلا لجمعه، فبايعه فرجع."[1] ولعلّ السجستاني لم يشذ عن إخباريي السنّة في روايته المذكوره، بعد أن تبعها باستدراكه التالي: "وإنما رووا حتى أجمع القرآن يعني أتم حفظه، فإنه يقال للذي يحفظ القرآن قد جمع القرآن." وبهذا المعنى أن علي بن أبي طالب كان معتكفاً لحفظ القرآن لا لجمعه، مع أن الصحابة من الحواريين، وعلي كان أقربهم من الرسول، ما كانوا يعتزلون الناس لحفظ

القرآن، بل كانوا يحفظون مباشرة عن الرسول، فكيف كان علي يعتكف في بيته لحفظ القرآن إذا لم يكن مجموعاً في مصحف؟ وما تجدر الإشارة إليه أن كتاب "نهج البلاغة" بخطبه ورسائله يؤكد تمكن علي بن أبي طالب من حفظ القرآن، حتى قال البعض: إن نهج البلاغة أخو القرآن. إن اعتكاف علي بن أبي طالب، في خلافة أبي بكر الصديق، كما أفادت الروايات بذلك، كان لسبب آخر، مرتبط بما حدث في السقيفة وأخذ البيعة لأبي بكر، ولعمر بن الخطاب ولاية العهد. ومع ذلك هناك رواية صريحة، تشير إلى جمع علي للقرآن، أوردها الذهبي بقوله: "وكان (علي) قد جمع القرآن بعد وفاة النبي، صلى الله ليه وسلم."[1] والذهبي، وهو فقيه ومؤرخ موسوعي من أهل السنَّة، قد رد في المصدر نفسه على من نفى رواية جمع علي للقرآن كقول الشعبي[2]: "لم يجمع القرآن أحد من الخلفاء الأربعة إلا عثمان، "لكن الرواية الشائعة حول جمعه هي": أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن، فقام في الناس، فقال: من كان تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في المصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من ذلك شيئاً حتى يشهد شهيدان."[3] أما دافع عمر لجمع القرآن، وهو أمر لم يأمر به الرسول ولم يجرأ أبو بكر القيام به، فكان برسم الحادثة الآتية: أنه "سأل عن آية من كتاب الله، فقيل كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة، فقال: إنا لله، وأمر القرآن فجمع، وكان أول من جمع في المصحف."[4] ولعلَّ هذه الرواية تحرض على التفكير بآيات أخرى قد ذهبن مع من ذهب من الحفاظ في حرب اليمامة. وحسب الرواية اللاحقة، لم يتم عمر جمع القرآن حتى قتل" فقام عثمان بن عفان، فقال من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به، وكان لا يقبل من ذلك شيئاً حتى يشهد شاهدان. فجاء خزيمة بن ثابت، فقال: إني قد رأيتكم لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، إلى آخر السورة[5]، قال عثمان: فأنا أشهد أنهما من عند الله، فأين ترى أن نجعلهما؟ قال: أختم بها آخر ما نزل من القرآن، فختمت براءة."[6] لكن ما حدث، وفقاً لروايات عديدة، أن عثمان أخذ مصحف عمر كاملاً من ابنته حفصة، الذي عرف باسمها، وأن جمع القرآن بدأ في عهد أبي بكر الصديق، بإشراف عمر، وأن دور

عثمان بن عفان كان نسخ المصحف المذكور، بعدد من المصاحف بعثها إلى الأمصار، بعد أن حرق مصحفي عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرها. وفي ذلك قال زيد بن ثابت: "كانت الصحف التي جمعنا فيها القرآن عند أبي بكر (في) حياته ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر."[٨]

ووفقاً لما ورد، لم يتسلم عثمان المصحف من عمر مباشرة، مثلما استلمه عمر من أبي بكر بعد جمعه، فعمر كان ولياً للعهد، أما عثمان فكان ينتظر قرار مجلس الستة المؤلف من كبار الصحابة، لذا ظل المصحف ينتظر عند حفصة زوجة الرسول. لكن عودة النسخة الأصل إليها بعد نسخها من قبل عثمان تشير إلى عدم وجود وصية ما بتسليمها للخليفة الجديد. ولعلّ وجود عدة مصاحف وصحف، موزعة بدون ضابط، كان يفي بالحاجة حتى بدأ الاختلاف والتضارب بينها، فأشير على عثمان باعتماد مصحف حفصة، كما سيأتي ذكر ذلك. و ورد في الرواية أنه بعد المداولة بين أبي بكر وعمر وافق الأول على جمع القرآن، فكلف زيد بن ثابت بقوله له: "إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله، فاتبع القرآن فاجمعه."[٩] فشعر زيد بهول ما كُلف به، فقال: "والله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن."[١٠] ثم أردف زيد قائلاً: "فقمت، فاتبعت اجمع القرآن من الرقاع والأكتاف والأقتاب والعسب، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره."[١١] ولا ندري، كيف كان التعامل مع عدم وجود شاهدين كما هو مقرر، وهل النصوص كافة كانت مؤيدة بشاهدين؟

وحفاظاً على لغة القرآن أوصى عمر المنتدبين لجمع المصحف بقوله: "إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر، فإن القرآن نزل على رجل من مضر." وقال أشد من ذلك: "لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش و ثقيف." وقال ابن الأنباري، من نحويي وزهاد القرن الرابع الهجري، في التشدد بالتزام لغة قريش: "سمع عمر رجلاً يقرأ هذا الحرف (ليسجننه عتى حي)، قال: فقال عمر له: من أقرأك هذا؟ قال: ابن مسعود. فقال عمر: (ليسجننه حتى حين."[١٢]) قال ثم كتب

إلى ابن مسعود مؤنباً: سلام عليك، أما بعد، فإن الله أنزل القرآن فجعله قرآناً عربياً مبيناً، وأنزله بلغة هذا الحي من قريش، فإذا أتاك كتابي هذا فاقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل."[13] ومعروف أن ابن مسعود من هذيل، لكنه كان من المعتمدين من قبل الرسول في قراءة القرآن. كانت طريقة العمل في جمع القرآن أن يوزع المسلمون على حلقات حسب قراءتهم، فحدث في مسجد الكوفة أن "هتف الهاتف: من كان يقرأ على قراءة أبي موسى (الأشعري) فليأت الزاوية التي عند أبواب كندة، ومن كان يقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود فليأت هذه الزاوية، التي عند عبد الله."[14] وحصل أن أختلف الجمعان في آية من سورة البقرة" قرأ هذا: وأتموا الحج والعمرة للبيت، وقرأ هذا: وأتموا الحج والعمرة لله."[15] وورد في الخبر حول نسخ المصاحف وتكثيرها، من قبل عثمان بن عفان، أن الصحابي حذيفة بن يمان[16] اشار بتوحيد المصاحف بعد أن شهد الخلاف بين العراقيين والشاميين، فأرسل عثمان بطلب المصحف من حفصة بقوله: "ارسلي إليّ بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك."[17] ولعلّ عبارة "نردّها إليك" تشير إلى ممانعة حفصة تسليم المصحف، أو انها اشترطت عدم إتلافه.

وقد أستدعى عثمان الكُتّاب وهم: "زيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الله بن الزبير أن انسخوا المصحف في المصاحف، وقال للرهط القريشيين الثلاثة: ما اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. حتى إذا نسخوا في المصاحف بعث عثمان إلى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف التي نسخوا، وأمر بسوى ذلك في صحيفة أو مصحف أن يحرق، أو يخرق."[18]

وجاء في رواية أخرى، أحضر عثمان اثني عشر كاتباً من المهاجرين والأنصار. ووزعت المصاحف على سبعة أمصار هي: مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة "وحبس بالمدينة واحداً." ويذكر أن عثمان أمر بنسخ المصاحف على مصحفه، المعروف بالمصحف العثماني، كما جاء في وصيته: "ما

وجدتم في مصحفي هذا من زيادة فلا تنقصوها، وما وجدتم من نقصان فكتبوه."[19] لكن الروايات لم تنكر ضوابطاً ما في هذا العلم الذي يتطلب الدقة، مع أن التعامل هنا مع نصوص مقدسة، فسرعان ما ظهر الخلاف بين مصاحف الأمصار، المنسوخة من مصحف واحد، وأن هناك من تذكر عدد من الآيات، ولكن لا شهود معه، لهذا لم يؤخذ بها. أما مصير المصحف الأصل، مصحف حفصة، فأخذه بعد وفاتها مروان بن الحكم وأتلفه. ورد في الرواية: "أن مروان كان يرسل إلى حفصة يسألها الصحف التي كتب منها القرآن، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها، قال سالم: فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن إليه بتلك الصحف، فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر، فأمر بها مروان فشققت."

ويبرر مروان إتلافه للمصحف الأصل بقوله: "إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب، أو يقول: إنه قد كان شيء منها لم يكتب."[20] تشير الرواية المذكورة إلى اختلاف ما بين مصحف حفصة الذي حافظت عليه حتى وفاتها، رغم طلب مروان المتكرر له، وبين ما نسخه الكُتاب بطلب من عثمان، وإلا لماذا يتلف ذلك المصحف؟ ولعلّ هذا التصرف غير المبرر يشير إلى ما أهمل تسجيله من أمور غير محببة لدى المروانيين والسفيانيين، ومعروف أن هذين البيتين استوليا تماماً على مفاصل السلطة أيام عثمان بن عفان.

الهوامش:

(1) كتاب المصاحف، ص16

(2) معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار، 1 ص27

(3) عامر بن شراحيل بن ذي كبار، قيل إنه من أقيال اليمن، وأمه من سبي جلولاء بالعراق، من المحدثين عن الصحابة وصف بعلامة العصر، استخدمه الحجاج بن يوسف الثقفي عريفاً على قومه وعلى الهمدانيين كافة، لكن قراء الكوفة حاولوا صرفه من هذه الوظيفة بقولهم له: أنت زعيم القراء، ثم أقدم على ثلب الحجاج وكاد يقتله، توفي السنة 105 هـ (سير أعلام النبلاء، 4 ص 294).

(٤) كتاب المصاحف، ص١٧

(٥) المصدر نفسه، ص١٦

(٦) الأنفال/١٢٨

(٧) كتاب المصاحف، ص١٦

(٨) المصدر نفسه، ص٢٨

(٩) المصدر نفسه، ص٢٧

(١٠) المصدر نفسه

(١١) المصدر نفسه، ص٢٨

(١٢) يوسف/٢٥

(١٣) إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله، ص١٢

(١٤) كتاب المصاحف، ص. ١٨ حصل ذلك أيام ولاية الوليد بن عقبة على الكوفة، من قبل عثمان بن عفان، وكان منبوذاً من قبل سلفيه ومن قبل الرسول، وما نريد الإشارة إليه أن هذه الرواية تؤيد أن عملية جمع القرآن لم تتم زمن عمر بن الخطاب، بل امتدت إلى زمن عثمان. وهذا خلاف من قال: إن مصحف حفصة كان كاملاً.

(١٥) المصدر نفسه

(١٦) العبسي من أهل اليمن، قتل والده في معركة أحد، وكان كثير الرواية عن الرسول، وعرف والده بالإيمان من قبل الرسول، لعب دوراً في حث عثمان على توحيد المصاحف، وتقلد ولاية المدائن حتى مات فيها بعد مقتل عثمان بن عفان السنة٣٦ هـ (الإصابة في تمييز الصحابة،٢، ص ٣٩.)

(١٧) كتاب المصاحف، ص ٢٦

(١٨) المصدر نفسه

(١٩) المصدر نفسه، ص٤٤-٤٣

(٢٠) المصدر نفسه، ص٣٢

الفصل الخامس

حرق المصاحف

إن التمسك بالمصاحف السابقة على المصحف العثماني لم تبده حفصة بنت عمر فقط، وإنما أبداه جماعة من أهل العراق حين جاءوا يطلبون مصحف أبي بن كعب من ولده محمد. ورد خبر ذلك في الرواية التالية: "إنما تحملنا إليك من العراق، فأخرج لنا مصحف أبي، قال محمد: قد قبضه عثمان، قالوا سبحان الله أخرجه لنا! قال: قبضه عثمان."[1] وعندما حرقت المصاحف هرع المسلمون العراقيون إلى عبد الله بن مسعود يستقصون الخبر، فقد كانوا يقرأون مصحفه. أخبر عن ذلك فلفلة الجعفي بقوله: "فزعت فيمن فزع إلى عبد الله في المصاحف، فدخلنا عليه فقال رجل من القوم: إنا لم نأتك زائرين، ولكنا جئنا حين راعنا هذا الخبر."[2] وورد في الرواية، أن عبد بن مسعود لم يذعن في البداية لقرار حرق أو إتلاف المصاحف ومنها مصحفه، فقام مناشداً العراقيين: "يا أهل العراق، التموا المصاحف التي عندكم وغلوها[3] (احفظوها)، فان الله يقول: ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة، فالقوا الله بالمصاحف."[4] وورد على لسان الصحابي حذيفة بن يمان: "يقول أهل الكوفة: قراءة عبد الله، ويقول أهل البصرة قراءة أبي موسى، والله لئن قدمتُ على أمير المؤمنين لأمرته أن يغرقها (المصاحف)، قال: فقال عبد الله: أما والله لئن فعلت ليغرقنك الله في غير ماء، وقال شاذان[5]: في سقرها."[6]

كان لعبد الله بن مسعود موقف من ترتيب أمر جمع القرآن أولاً، ومن الحرق والإتلاف ثانياً، فهو يعرف والناس تعرف أنه أفضل من يقوم بهذا الأمر، وحينها أخذ يفصح عما في صدره قائلاً: "يا معشر المسلمين، أعزل عن نسخ المصاحف وتولاها رجل (زيد بن ثابت) والله لقد أسلمت وأنه لفي صلب أبيه كافراً."[7] وقال أيضاً: "فكيف تأمروني أن أقرأ قراءة زيد ولقد قرأت من فيّ رسول الله بضعاً وسبعين سورة، ولزيد ذؤابتان يلعب بين الصبيان."[8] وورد في المفاضلة بين

ابن ثابت وبين ابن مسعود أن "عبد الله بن مسعود بدري وذاك ليس هو ببدري، وإنما ولاه لأنه كاتب رسول الله."[٩] وفي فضل إبن مسعود وردت أحاديث نبوية، منها عن ابن عمر: "استقرأوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل."[١٠] وعن أبي بكر وعمر أن الرسول قال أيضاً: "من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أُنزل فليقرأه على قراءة إبن أم عبد (إبن مسعود.)"[١١] ولكن الأثنين، أبا بكر وعمر، تنكرا لفضله في مهمام جمع المصحف، ثم استبعده عثمان في عملية تكثيره. ويروى أن علياً بن ابي طالب كان موافقاً على حرق وأتلاف المصاحف، رغم ما قاله بعض إخباريي الشيعة أن لديه مصحفاً كان قد جمعه قبل مصحف عثمان، ورد في الرواية أنه قال: "لو لم يصنعه هو (عثمان) لصنعته."[١٢] من كل ما سبق، نستخلص التالي: أن التشريع وأمر الحكم، والخوف من خلخلة المركزية كان وراء أن يبقى مصحف واحد، مثل التوراة التي لم يعرف منها غير نسخة واحدة، وأخرى بيد السامرة، الذين لا يزيد عددهم بفلسطين على ستمائة، يدعون أن التوراة الأصلية هي التي بيدهم. ولكن لماذا تعددت نسخ الإنجيل واعترفت الكنيسة بأربعة أناجيل فقط، وتنكرت لاثنين آخرين أو أكثر. وحسب اطلاعي عليهما إنجيل "برنابا" وأنجيل "يوحنا المنحول" (هكذا ورد عنوانه.) فلو أبقى عثمان بن عفان على المصاحف لأصبح بيد المسلمين عدة مصاحف، منها مصحف عبد الله بن مسعود، ومصحف أبي بن كعب، ومصحف حفصة، ومصحف عمر بن الخطاب، ومصحف عثمان بن عفان، ومصحف علي بن ابي طالب الذي لم يأت ذكره في عملية الإتلاف. ولعلّ الاختلاف بين تلك المصاحف لا يتعدى الاختلاف بين الأناجيل الأربعة.

أما أن حرقها كان لصيانة وحدة المسلمين، فالأمر لم يكن أكثر خطورة من الاختلاف في التفسير والتأويل، فهو قرآن واحد والمسلمون تفرقوا إلى أكثر من سبعين فرقة ومذهب. إن حال التمذهب حال سليمة، فمادام هناك حياة وتطور اجتماعي وفكري، لا بد أن تتبلور آراء ومفاهيم تقود إلى قيام فرقة أو مذهب. ومع

هذا لم يمر حرق المصاحف دون معارضة، وأكثر من عارضه المسلمون العراقيون عندما وقفوا مع عبد الله بن مسعود، ونهبوا يبحثون عن مصحف أبي بن كعب، كما سبقت الإشارة. وعارضه المسلمون المصريون أيضاً، عندما قدموا ناقمين على عثمان بن عفان، قائلين "أنه محا كتاب الله عز وجلّ، وحمى الحمى، وأستعمل أقرباءه."[13] ونكر في المصدر نفسه أن عثمان وافق مضطراً على جواز القراءة من غير مصحفه قائلاً: "أما القرآن فمن عند الله إنما نهيتكم لأني خفت عليكم الاختلاف فاقرؤوا على أي حرف شئتم." وقد يطرح السؤال نفسه، لماذا لم يفكر عمر بحرق الصحف، والمصاحف التي كانت موجودة في عهده، كمصحفي عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب؟ ولماذا ظهر الخلاف مفاجئاً بعد قتل عمر؟ وهل كان عمر غافلاً عن وجود تلك المصاحف؟ أسئلة عديدة تحتاج إلى إجابات، ابتعد عن إثارتها الباحثون، وقبلوا بواقع الحال.

إن الإصرار على وجود مصحف واحد، أو توراة واحدة مردّه أن الكتابين فيهما مشروع الدولة، فبهدى الأول تحددت معالم دولة إسلامية مركزية، ووفقاً للثاني قامت الدولة اليهودية، وبالتالي فأن تعدد الكتب يعني الإخلال بالمركزية التي يراد لها ان تكون صارمة. وما زالت دولة إسرائيل تتشبث بحقوق (مقدسة)، فدولتها المزعومة من النيل إلى الفرات، جاء خبرها في التوراة: "بتّ الرب مع إبرام (إبراهيم) عهداً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات."[14] ويقال أن هذا لا وجود له في النسخة السامرية، غير المعترف بها من قبل أغلب اليهود. لقد لعبت السياسة دوراً كبيراً في الإبقاء على كتاب واحد لكل من الديانتين. ولعلّ كلمة تنسب للإمام جعفر الصادق تغني عن المقال، أجاب بها على سؤال تقدم به أحد أصحابه "ما بال أصحاب عيسى كانوا يمشون على الماء، وليس ذلك في أصحاب محمد؟" قال: "إن أصحاب عيسى كفوّ المعاش، وإن هؤلاء ابتلوا بالمعاش."[15]

قال الشيخ محمد رشيد رضا في مقدمة النسخة العربية لـ"انجيل برنابا" ناقداً الكنيسة: "لو بقيت تلك الاناجيل كلها لكانت أغزر ينابيع التاريخ في بابها ما قبل منها أصلاً للدين، وما لم يقبل ولرأيت لعلماء هذا العصر من الحكم

عليها، والاستنباط منها بطرق العلم الحديثة المصونة بسياج الحرية والاستقلال في الرأي والإرادة ما لا يأتي مثله من رجال الكنسية الذين اختاروا تلك الأربعة ورفضوا سواها.[١٦] ولعلّ الشيخ رضا وهو يدين إتلاف أو إبطال الأناجيل الأخرى، ما عدا الأناجيل الأربعة، من قبل الكنيسة أومأ دون قصد إلى إتلاف المصاحف في زمن عثمان بن عفان، فحسب الروايات قد أعترض من هو أجل من محمد رشيد رضا، مثل الصحابي عبد الله بن مسعود. أما الأنجيل، فقد ظلت المسيحية حوالي ثلاثة قرون لا تنشد دولة ولا سلطة، فهي بالأساس دعوة اجتماعية روحانية، وليس في كتابها ما يشير إلى مشروع دولة، وأكثر ما فيه تحريمات وتحليلات عامة، بما لا يزيد عن وصايا قالها المسيح وهو يجوب القرى، ولكن بعد أن فرض المسيحية على دولته أحد القياصرة، أجتهد الكهنوت المسيحي وأوجد تشريعات كنائسية، وعلوم لاهوتية، قد لا تطرأ على بال المسيح نفسه، وكانت فاعلة في القرون الوسطى، وقتل من قتل بموجبها من علماء الطبيعة، مثل (غاليلو) و(جيراردو برونو)، بحفلات دموية لا تقل بشاعة عن قتل المسيح من قبل اللاهوت الوثني، والجعد بن درهم، من قبل هشام بن عبد الملك، والإمام عبد الرحمن الأوزاعي[١٧] ممثلاً للاهوت الإسلامي، وقتل السهروردي من قبل صلاح الدين الأيوبي بمحضر أقره فقهاء بلاطه.

اعترفت الكنسية بالأناجيل الأربعة وهي: "متي"، و"لوقا"، و"مرقس و"يوحنا"، أما الأنجيلان "برنابا" و"يوحنا المنحول" فهما حسب راي الكنيسة من تاليف المتأخرين من خارج الديانة. ووفقاً لذلك فإن المسيحيين على اختلاف طوائفهم لم يعترفوا بغير ما أقرته الكنيسة من غابر الزمان. والجدير ذكره ان "انجيل برنابا" نشره محمد رشيد رضا، صاحب مجلة المنار المصرية العام (١٩٠٧)، بعد ترجمته عن الإنكليزية (النص الأصلي كان بالإيطالية) من قبل خليل سعادة. ومن يقرأه بالمقارنة مع الأناجيل الأربعة يراه بعيداً عن روح المسيحية، وكذلك الحال بالنسبة لإنجيل "يوحنا المنحول"، الذي يعرف بمصحف "الأبقرفا"، وكان نسخه العام٧٤٢ (هـ)، وترجمه إلى اللاتينية (يوحنس غالبياتي) مدير المكتبة

الامبروسيانية) بميلانو العام (١٩٥٧)، حسب النسخة الموجودة في مكتبة لاستشراق البريطاني. (SOAS)

والناشر يفتتح الكتاب بحديث نبوي عن سفيان بن عيينة[١٨] "إذا دخلت خزانة ـاجتهد أن لا تخرج منها حتى تعرف ما فيها". ويبدو أن صاحب الترجمة ـالنشر أراد، بهذا الاقتباس الإشارة إلى مصدر التأليف أنه إسلامي، وأن ـقصده من ذلك نشر المعرفة لا غير. وبعد عام من نشر "أنجيل برنابا" كتبت مجلة المقتبس" التالي: "اعترفت الكنيسة بأناجيل أربعة، وأبطلت ما عداها من لأناجيل، وعدته مزوراً، ومن جملة الأناجيل التي أطلها البابا في القرن الخامس ـلمسيح" أنجيل برنابا. "وبرنابا هذا يهودي من ساكني قبرص دان النصرانية، ـكان من أتراب بولس الرسول، طاف آسيا الصغرى وسورية وبلاد اليونان، ـقتل بقبرص نحو سنة (٦٢) للمسيح. وقد وجدت نسخة من أنجيل ينسب إليه ـي مكتبة فينا الامبراطورية، كتب كما رجح العارفون في القرن السادس عشر باللغة الإيطالية القديمة، وعليه حواش بالعربية. فقال بعضهم أن لهذا الإنجيل اصلاً عربياً.[١٩]"

وافاد أنجيل "يوحنا المنحول" أن مسيحيين يعتقدون بأسرار لم تقلها الأناجيل الأربعة بعد، فهناك علم ما زال مخفياً. ويمثل هذا أفادت رواية إسلامية أن هناك قرآناً كثيراً لم يظهر بعد، واختلفوا بالأسباب، فمن قال: ضاع ـع موت الحفاظ والقراء بحرب اليمامة، وسيظهر كاملاً يوم القيامة، ومن عزاه إلى حكمة إلهية، وأن المهدي المنتظر سيظهره كله في آخر الزمان. ومثل هذا ورد ـي أنجيل "يوحنا المنَحول": "هذه السراير الإلهية التي خص بها الاهنا المسيح ـعبده وتلميذه يوحنا بن زبدي، أنه لما كان قبل صعود سيدنا المسيح إلى السماء، ـوالتي لم يزل (لعلها لم ينزل) منها أختص سائر الاثني عشر من تلاميذه الأبرار بشيء من السراير، واختص من بينهم بطرس المطهر، اطلع تلميذه اقليمس الذي صار بطريركاً بعده على مدينة روميه، التي هي قبة دين النصرانية على السرائر التي حفظها عن إلهه، ودوّنها اقليمس في ستة مصاحف معروفة،

ويوحنا دوّن السرائر التي تلقفها عن إلهه في عدة مصاحفه، وخلد جميع كتبه روميه، وأجتمع الحواريون المقدسون فحرموا كل ما يقع شيء من هذه السرائر إليه، فيخرجه للعوام. فمن مصاحف السراير التي دونها يوحنا التلميذ الحبيب هذا المصحف، وهو يعرف بمصحف الاتقرفا (هكذا وردت.)[٢٠]" وحجة يوحنا باطلاع العوام على هذا المصحف هي: "إني قد ضمنت هذا المصحف ما أطلعني عليه إلهي من السراير، و ذكرت فيه ما شاهدته من عجليبة (هكذا وردت ولعلها عجائبه التي أضمنها أنجيلي، ولا أجد من أصحاب الأناجيل، فإن هؤلاء الأربعة الأنجيليين المقدسون كتموا أكثر ما شاهدوه من العجايب، التي صنعها سيدنا وإلاهنا المسيح كراهة لطول الإنجيل بها. ولأنهم علموا أن عقول عوام الناس لا تقبلها، لصغر أمانتهم بهذا الأمر الجليل، الذي ستره الله عن ملائكته، وأكثر أنبيائه، وكشفه للصبيان المولودين في آخر الزمان، كما قالت الكتب.[٢١]" وورد ما يشبه الكلام الأخير في الرواية الإسلامية: "وإذا قام القائم (المهدي المنتظر) يقرؤه الناس كما أنزل على ما جمعه أمير المؤمنين." وما أشبهه أيضاً بحديث الكليني: "أن القرآن الذي نزل به جبرائيل على محمد سبعة عشر ألف آية، والتي بأيدينا ستة الاف ومائتان وست وثلاثون آية، والبواقي مخزونة عند أهل البيت فيما جمعه علي.[٢٢]" كما يشبه ما رواه المنخل عن جابر عن أبي جعفر "ما يستطيع أحد أن يدّعي أن عنده جميع القرآن كله، ظاهره وباطنه غير الأوصياء" حصر الأنجيل أو الأسرار بالحواريين. وما أشبه عبارة "حفظ السرائر" وأبعادها عن العوام بالحديث التالي: "نحن معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم.[٢٣]"

الهوامش:

(١) كتاب المصاحف، ص٣٢-٣٢

(٢) المصدر نفسه، ص٢٥

(٣) الشيء أخذه في خفية ودسه في متاعه.

(٤) كتاب المصاحف، ص٢٥

(٥) هناك راويتان عرفا بهذا الاسم وهما: أبو عبد الرحمن أسود بن عامر الشامي ثم

البغدادي، حدث عنه أحمد بن حنبل وعلي المديني وغيرهما، توفي ببغداد السنة ٢٠٨ هـ. وأبو بكر إسحاق بن إبراهيم النهشلي الفارسي، وصف أنه صدوق وثقة، توفي السنة٢٦٧ هـ (سير أعلام النبلاء،١٢ ص ٣٨٢.)

(٦) كتاب المصاحف، ص٢٠

(٧) المصدر نفسه، ص٢٥

(٨) المصدر نفسه، ص٢٢

(٩) المصدر نفسه، ص٢٥

(١٠) كنز العمال،٢/٣٠٧١

(١١) المصدر نفسه،٢/٣٠٧٧

(١٢) كتاب المصاحف، ص١٩

(١٣) المصدر نفسه، ص٤٥

(١٤) التكوين١٨/١٥

(١٥) بحار الأنوار،١٤ ص ٢٧٨

(١٦) محمد رشيد رضا، مقدمة الناشر في أنجيل برنابا، ص (ف)

(١٧) الإمام عبد الرحمن بن عمرو الشامي، كان يسكن بمحلة الأوزاع بدمشق، ثم سكن بيروت إلى أن مات بها. وقيل إنه لبناني الأصل من بعلبك. كان قاضياً لدى يزيد بن الوليد، المعروف بيزيد الناقص، ثم أصبح فقيه الدولة أيام هشام بن عبد الملك وهو الذي حقق مع غيلان الدمشقي وحكم عليه بالقتل بعد قطع أطرافه الأربعة. وقيل أن أبا العباس السفاح قد استدعاه وسأله رأيه بدماء بني أمية، وسأله عن موقفه والأمويين يشتمون علي بن أبي طالب على المنابر حتى خلافة عمر بن عبد العزيز. وهو القائل: "أخذنا حتى شهدنا على علي (إبن أبي طالب) بالنفاق وتبرأنا منه." توفي السنة١٥٧ هـ (الذهبي، سير أعلام النبلاء،٧ ص(١٠٧، الحنبلي، شذرات الذهب،٢ ص ٢٥٦.)

(١٨) محدث كوفي، من جيل تابعي التابعين، روى عنه الإمامان الشافعي وابن حنبل، وقدم إلى بغداد، توفي السنة١٩٨ هـ (تاريخ بغداد، ٩ ص ١٧٤.)

(١٩) مقال "أنجيل برنابا"، مجلة المقتبس، الجزء السادس، تموز ١٩٠٨

(٢٠) مخطوط انجيل يوحنّا المنحول (الابقرفا)، ص٣-١

(٢١) المصدر نفسه

(٢٢) التفسير والمفسرون،٢ ص٣٥، عن الكافي، ص٢٣

(٢٣) ميزان الحكمة،٨ ص١٠١

الفصل السادس

اختلاف الكتابة

ظهرت اختلافات بين نسخ الأمصار، رغم أنها نسخت من مصحف واحد. ونشير هنا إلى بعض الاختلاف بين قراءة أهل العراق، البصرة والكوفة، وأهل المدينة. قرأ العراقيون، الآية ١٣٢ من سورة "البقرة": "ووصى بها إبراهيم"، بينما قرأها المدنيون "وأوصى بها إبراهيم." وقرأ العراقيون الآية ١٣٣ من سورة "آل عمران": "وسارعوا إلى مغفرة من ربكم"، وقرأها المدنيون "سارعوا إلى مغفرة من ربكم." وقرأ العراقيون الآية ٥٤ من سورة "المائدة": "من يرتدّ" وقرأها المدنيون "من يرتدد." وقرأ العراقيون الآية ٢٤ من سورة "الحديد": "فإن الله هو الغني الحميد"، وقرأها المدنيون "فإن الله الغني الحميد." وردت الآيات المذكورة في المصحف الذي بين أيدي الناس اليوم على قراءة العراقيين. وقرأ العراقيون الآية ٧١ من سورة "الزخرف": "ما تشتهي الأنفس"، وقرأها المدنيون "ما تشتهيه الأنفس"، وردت هذه الآية في المصحف الحالي على قراءة المدنيين. وقال السجستاني: قرأ العراقيون الآية ٦٨ من سورة "الزخرف": "يا عباد" وهي "يا عبادي"، لكنها في المصحف الحالي "ياعبادِ" الكسرة بدل الياء. وقرأوا أيضاً الآية١٦، ١٧ من سورة "الإنسان": "كانت قوارير قوارير"، وهي "كانت قواريرا قواريرا"، والقراءة الأخيرة مطابقة لقراءة المصحف الحالي.[1] وقرأ سعيد بن جبير الآية ١٩ من سورة الزخرف "وجعلوا الملائكة الذين هم (عند) الله إناثاً" فأمره عبد الله بن عباس أن "يمحها ويكتبها عباد الله" كما هي في المصحف الحالي. ويعلق الداني على اختلاف قراءة هذه الآية بقوله: "مع علمه (ابن عباس) بصحة القراءتين في ذلك، وأنهما منزلتان من عند الله تعالى، وأن رسول الله قرأ بهما جميعاً، وقرأ بهما أصحابه. غير أن التي أمره بإثباتها منهما كانت اختياره (ابن عباس) إما لكثرة القارئين بها من الصحابة، وإما لشيء صحّ عنده عن النبي، أو أمرٍ شاهده من علية الصحابة.[2]" وقال عوف بن أبي جميلة[3]: "إن

الحجاج بن يوسف الثقفي غيرَّ في مصحف عثمان احد عشر حرفاً، قال: كانت في البقرة: لم يتسن وأنظر بغير الهاء، فغيرها: لم يتسنه بالهاء. وكانت في المائدة: شريعة ومنهاجاً، فغيرها: شرعة ومنهاجاً. وكانت في يونس: هو الذي ينشركم، فغيره: يُسيِّركم. وكانت في يوسف: أنا اتيكم بتأويله، فغيرها: أنا أنبئكم بتأويله. وكانت في المؤمنين: سيقولون الله الله الله، ثلاثتهن، فجعل الآخريين: الله الله. وكانت في الشعراء في قصة نوح: من المخرجين، وفي قصة لوط: من المرجومين، فغير في قصة نوح: من المرجومين، وقصة لوط: من المخرجين. وكانت الزخرف: نحن قسمنا بينهم معايشهم، فغيرها: معيشتهم. وكانت في الذين كفروا (محمد): من ماء غير ياسين، فغيرها: من ماء غير اسن. وكانت في الحديد: فالذين آمنوا منكم واتقوا لهم أجر كبير، فغيرها: وانفقوا. وكانت في "إذا الشمس كورت (التكوير): وما هو على الغيب بظنين، فغيرها: بضنين".[4]

وإن كل الآيات التي وردت في المصحف الذي بين أيدي الناس اليوم جاءت مطابقة حسب ما اثبتها الحجاج بن يوسف الثقفي، حسب ما ورد في رواية السجستاني. وللحجاج نسبت بعض المصادر عملية تنقيط القرآن بتوجيه من عبد الملك بن مروان، لكن الواقع غير ذلك تماماً، كما سنرى في الفصل التالي.

الهوامش:

(١) راجع كتاب المصاحف، ص ٤٦ وما بعدها

(٢) المحكم في نقط المصاحف، ص٢١

(٣) أبو سهل البصري الحافظ، عرف بالاعرابي ولم يكن اعرابياً، ويعد من صغار التابعين، وكان متشيعاً ومخالفاً للجبرية، فوصف بالشيعي والقدري، والرواة يعدونه من الثقات. توفي السنة١٤٦ هـ (سير اعلام النبلاء،٦ ص ٣٨٣.)

(٤) كتاب المصاحف، ص ٥٩، وردت الآيتان في "الشعراء" ١١٦، ١٦٧.

الفصل السابع

الإعجام والتنقيط

تسمى عملية التفريق بين الحروف المتشابهة بالإعجام، وعملية وضع الحركات وضبط أواخر الكلمات بالتنقيط. وكان ذلك لغرض وضوح القراءة. ومصطلح التنقيط يستوعب العمليتين اللتين تحققتا كما يبدو في آن واحد. وفي إزالة الالتباس بين الحروف المتشابهة أعجمت بما يناسبها من عدد النقط ومكانها منها. ومن ستة أصناف شخَّص الخليل الفراهيدي صنفاً مكوناً من "خمسة عشر حرفاً احتاج إلى العجم، منها ثمانية أحرف، لكل حرف نقطة واحدة: خ ذ ز ض ظ غ ف ن، واثنان بنقطتين من فوقها: ت ق، واثنان بثلاث نقط من فوقها: ث ش، واثنان بواحدة من تحتهما: ب ج، وحرف واحد بنقطتين من تحته: ي."[1]

وقد استعملت الألوان في تمييز النقط، فأهل العراق مثلاً استخدموا في تنقيط مصاحفهم اللون الأحمر، بينما استخدموا أهل المدينة الأحمر والأصفر، واستخدم أهل الأندلس الأحمر والأصفر والأخضر. وقد شاهد الداني مصحفاً عراقياً وفيه لون الحمرة، ورد ذلك بقوله": ووصل إليّ مصحف جامع عتيق كتب في أول خلافة هشام بن عبد الملك، سنة عشر ومائة، كان تاريخه في آخره، كتبه مغيرة بن مينا في رجب سنة مائة وعشر، وفيه الحركات والهمزات والتنوين والتشديد نقط بالحمرة، على ما رويناه عن السالفين من أهل المشرق."[2] ويعني بالمشرق العراق، فقد سبق أن قال الداني: "أما نقاط أهل العراق فيستعملون للحركات وغيرها وللهمزات الحمرة وحدها."[3]

وقد أطلعنا على نسخة عراقية من القرآن، في المكتبة البريطانية، يعود نسخها إلى القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) وكان تنقيطها وإعجامها باللون الأحمر، أما الهمزات فكانت باللون الأزرق المائل للخضرة، وخاتمة الآيات باللون الذهبي.[4] وأطلعت على نسخة أخرى حجازية غير منقطة، منسوخة بالخط المائل

في القرن الثامن ميلادي (الثاني الهجري)، والذي يدقق النظر فيها يشعر بصعوبة وربما استحالة قراءة صفحاتها، وميزت، فيما بعد، نهاية كل عشر آيات بدوائر حمراء.[5] وحول ضرورة استخدام الألوان قال أبو عمرو بن العلاء: "فأما نقط المصاحف بالسواد من الحبر وغيره فلا استجيزه، أنهى عنه، وأنكره اقتداء بمن ابتدأ النقط من السلف، واتباعاً له في استعماله لذلك صبغاً يخالف لون المداد، إذ كان لا يحدث في المرسوم تغييراً وتخليطاً، والسواد يحدث ذلك فيه."[6] وتباينت آراء الفقهاء في التنقيط، فهو بدعة لم يكن في زمن الرسول، لكن الحاجة له بانت ضرورية بعد الاختلاط بالأقوام الأخرى، وقد حذر من ذلك والي البصرة زياد بن أبيه، ففي رواية انه قال لأبي الأسود الدؤلي: "إن هذه الحمراء (الموالي) قد كثرت، وأفسدت من ألسن العرب."[7] أما فقيها البصرة، الحسن البصري وابن سيرين، "كانا يكرهان نقط المصاحف"[8] وهما من الحمراء (من الموالي) وكانت حجة محمد بن سيرين: "إني أخاف أن يزيدوا في الحروف أو ينقصوا."[9] وبرواية الفقيه الأوزاعي يرى ثابت بن عبد "العَجم نور الكتاب."[10] وعن أبي يوسف، صاحب أبي حنيفة، قال عن الفقيه ابن أبي ليلى[11] أنه "من أنقط الناس للمصحف."[12] أما مالك بن أنس[13] فأجاب لما سأله البعض عن إدخال النقط وغيرها من الإضافات: "إني أكره ذلك في أمهات المصاحف، أن تكتب فيها شيٌ أو يشكل. فأما ما يتعلم فيه الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأساً."[14] و يرى صاحب كتاب "النقط" أبو الحسين بن المنادي إجازة التنقيط مع شرط "إذا نقطت ما يقرأ على وجهين فاكثر فارسم في رقعة غير ملصقة بالمصحف أسماء الألوان، وأسماء القراء، ليعرف ذلك الذي يقرأ."[15]

والثابت في المصادر أن أبا الأسود الدؤلي[16]، ظالم بن عمر بن سفيان، هو الذي قام بمهام التنقيط. فقد جاء في "طبقات النحويين" و"المنتظم": أبو الأسود "أول من وضع العربية ونقط المصاف."[17] و ورد في "الوافي": "وقيل هو أول من نقط المصاحف ووضع للناس النحو"[18] وكانت طريقته في التنقيط، كما قال لكاتبه، وهو من عبد القيس أختاره من بين عشرات الكتاب الذين عرضوا عليه:

"خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فأنقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف الحرف، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أفله، فإذا أتبعت ذلك شيئاً من هذه الحركات غُنّة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره."[19] وأفادت الروايات أن بداية عملية التنقيط كانت أيام علي بن أبي طالب، ثم استكملت بإجازة من والي البصرة زياد بن أبيه، بعد أن ذكر له الدؤلي حال اللغة ولحن الناس فيها. ويعترف الدؤلي بفضل علي عليه في علم النحو، بقوله: "تلقيته من علي بن أبي طالب رحمه الله"، وفي حديث آخر قال: "ألقى إليّ علي أصولاً احتذيت عليها."[20] ولعلّ الأوزاعي، فقيه الدولة الأموية ومحققها مع المفكرين المخالفين، يؤكد بالرواية التالية تحقق التنقيط زمن الصحابة، وهذا لا يخالف الخبر في أن علي بن أبي طالب كان وراء تلك الخطوة، فعلي كان في مقدمتهم. قال الأوزاعي: "سمعت قتادة (السدوسي، من كبار التابعين بالبصرة) يقول: بدؤوا فنقطوا، ثم خمّسوا، ثم عشّروا." وفسر أبو عمرو بن العلاء ذلك بقوله: "هذا يدل على أن الصحابة وأكابر التابعين، رضوان الله عليهم، هم المبتدئون بالنقط ورسم الخموس والعشور، لأن حكاية قتادة لا تكون إلا عنهم."[21]

ويؤكد النحوي مهدي المخزومي فضل أبو الأسود (توفي قبل ولاية الحجاج على العراق بست سنوات) في التنقيط بقوله: "ورأينا كيف تشعبت الدراسات القرآنية، وكيف انتهى العلماء إلى أن يتناولوا الجانب اللغوي من القرآن، وكيف تطورت دراسة الجانب اللغوي من النقط الذي اصطنعه أبو الأسود إلى بحث في التأليف بحثاً يتناول الكلمة، من حيث أصولها، ومن حيث بناؤها، ومن حيث إعرابها."[22] وهناك روايات محدودة الانتشار أشارت إلى آخرين في المبادرة للإعجام والتنقيط، منهم: يحيى بن يعمر[23]، ونصر بن عاصم الليثي[24]، وأسلم بن خدرة. لكن الداني حسم الخلاف بقوله: "النقط لأهل البصرة، أخذه الناس كلهم عنهم، حتى أهل المدينة، وكانوا ينقطون على غير هذا النقط، فتركوه ونقطوا نقط أهل البصرة."[25] ومعلوم أن أبا الأسود الدؤلي كان في مقدمة أهل البصرة

في هذا المضمار.

وفي فضل الحجاج المزعوم نقرأ لكاتب معاصر: "وأن الحجاج كانت على يديه الجولة الثانية في نقط المصاحف وشكلها، بعد أن كانت الجولة الأولى على يد الصحابة.[٣٦]" وبهذا الكلام العام يلغي الكاتب دور أبي الأسود الدؤلي، ليلمع صورة الحجاج بن يوسف الثقفي. إن الذي يريد أن يخلع على الحجاج ثوباً زاهياً فليلتفت إلى تاريخه الدموي، ومعاداته لآل محمد[٣٧] واتفاق المؤرخين من المذاهب كافة على أن الرجل لا يحسن غير القتل. مع علمنا أن أبا الأسود الدؤلي، وكان بصرياً، قد توفي السنة٦٩ (هـ) أي قبل أن يتسيد الحجاج على العراق بست سنوات. فأين وجد الحجاج علم النحو ليتقط به القرآن الكريم، والمعروف عن علوم اللغة العربية أنها نشأت بالبصرة ثم الكوفة، وكانتا مدرستين لا ثالث لهما. وإذا فاخرت مدرسة البصرة بتنقيط القرآن وضبط كلماته حسب النحو، فأن لمدرسة الكوفة" صلة بالأعمال القرآنية، بل لا يزال النحو مسخراً لخدمة القرآن وأحرفه، والقراء في نظر نحاة الكوفة كانت من المصادر التي أعتمد عليها النحو الكوفي."

الهوامش:

(١) المحكم في نقط المصاحف٢٧–٣٦

(٢) المصدر نفسه، ص٨٧

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠

(٤) مخطوطة محفوظة في المكتبة البريطانية تحت رقم Or.1397.ff.187-19.

(٥) مخطوطة محفوظة في المكتبة البريطانية، تحت رقم: Or.2165.ff.76v-77

(٦) المحكم في نقط المصاحف ص١٩

(٧) المصدر نفسه، ص٢

(٨) المصدر نفسه١١

(٨) المصدر نفسه

(٩) المحكم في نقط المصاحف ص. ١٢والعجم، تمييز الحروف بالنقط.

(١٠) محمد بن عبد الرحمن الأنصاري، مفتي الكوفة وقاضيها، حدث عنه سفيان بن عيينة وسفيان الثوري، ويعد، عند أصحابه، نظيراً للإمام أبي حنيفة النعمان، ومع ذلك هناك من

يتهمه بسوء الحفظ، وكان يجيز شر بالنبيذ، وقيل كان "لا يجيز قول من لا يشرب النبيذ" والمقصود من لا يجيز شرابه. وقيل انه كا يضيق بالإمام ابي حنيفة، وطلب مرة من امير الكوفة أن يمنعه من الإفتاء. توفي السنة١٤٨ هـ (سير أعلام النباء،٦ ص ٣١٠.)

(١١) المحكم في نقط المصاحف، ص١٢

(١٢) لقب بشيخ الإسلام وحجة الأمة وإمام دار الهجرة (المدينة)، أصله من اليمن. ومن مبالغات الإخباريين فيه قالوا: إن أمه حملت به ثلاث سنين، وقيل سنتين، كذلك وضعوا أحاديث نبوية فيه، كتوقعات نبوية، منها بإسناد ابي هريرة احدها يقول: "ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة." وقال له ابو جعفر المنصور: "والله لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف ولأبعثن به إلى الآفاق، فلأحملنهم عليه. ولكن بعد رفض تقبيل يد المنصور وشكاية والي المدينة عليه جُلد بالسيط. ولان ابا يوسف من أصحاب الإمام ابي حنيفة من أهل الرأي رفض مالك اجابته قائلاً: "يا هذان إذا وجدتني جلست لأهل الباطل فتعال أجبك معهم"، وهذا من بواكير معادات أصحاب الحديث لأصحاب الراي ثم الأصحاب العقل المعتزلة. توفي بالمدينة السنة١٧٩ هـ (سير أعلام النبلاء،٨ ص ٤٨وما بعدها.)

(١٣) المصدر نفسه، ص١٧

(١٤) المصدر نفسه،٢٢-٢١

(١٥) وأبو الأسود عندما كان قاضياً بالبصرة كتب إلى الإمام علي بن أبي طالب من البصرة شاكياً من تصرف عبد الله بن عباس، ورد ذلك برسالته: "اما بعد (...) إن ابن عمك عبد الله بن عباس قد أكل ما تحت يديه بغير علمك، فلم يسعني كتمانك ذلك، فانظر فيما هناك، وتقدم إليّ فيما احببت أتبعه، إن شاء الله" (الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٣.) وكان جواب علي بن أبي طالب، الذي لم يذكر في "نهج البلاغة"، تقديراً لابن عباس من قبل جامعي كتاب النهج، رغم أنه ورد في تاريخ الطبري وغيره: "أما بعد، فإنك ناصح للإمام والامة، وأنت ممن والى أهل الحق، وبارز أهل الباطل والجور، وقد كتبت إلى صاحبك فيما كتبت فيه إليّ من أمره، ولم أعلمه كتابك إليّ فلا تدع إعلامي بما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمة صلاح، فإنك بذلك جدير، وهو حق واجب عليك إنشاء الله."

(١٦) المصدر نفسه، ص، ٢١المنتظم في تاريخ الأمم والملوك،٦ ص٩٦

(١٧) الصفدي، الوافي بالوفيات،١٦ ص٥٢٤

(١٨) الداني، المحكم في نقط المصاحف، ص٤

(١٩) طبقات النحويين، ص. ٢١ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك،٦ ص٩٦

(٢٠) طبقات النحويين، ص٣- ٢

(٢١) المخزومي، الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه، ص٠ ٢٥

(٢٢) ابو عدي العدواني البصري، قاضي مرو، قرأ القرآن على ابي الأسود الدؤلي، وقيل عنه انه أول من نقط المصاحف وذلك قبل تشكيل الكتابة بمدة طويلة. نفاه الحجاج بن يوسف الثقفي، وولاه قتيبة بن مسلم، قضاء خراسان، وقيل عزله بسبب شربه المنصف، وهو النبيذ. توفي قبل السنة ٩٠ هـ (معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار،١ ص ٦٧.)

(٢٣) قرأ على أبي الأسود الدؤلي، حتى عرف بالدؤلي البصري النحوي، روى عنه أبو عمرو بن العلاء، وقيل في مذهبه السياسي أنه من الخوارج. توفي بعد السنة ٨٠ هـ وقبل السنة ١٠٠ هـ (ابن سعد الطبقات الكبرى،٧ ص(٤٨،) إبن الخياط الطبقات، ص(٢٠٦.) الذهبي، معرفة القراء الكبار،١ ص ٧١.)

(٢٤) المحكم في نقط المصاحف ص٧

(٢٥) إبراهيم الأبياري، تاريخ القرآن، ص١٢٨

(٢٦) فالحجاج ينحدر من قبيلة لا تقل سخطاً على الدعوة الإسلامية من ال امية. وفي إيذاء النبي ذكر اليعقوبي أنه قال: "ما كنت ارفع قدماً، ولا اضعها إلا على حجر" (الفرج بعد الشدة،١ ص ١٩١.) وفي بغضه لآل علي قال الشاعر: "انا في الحلة الغدلة كاني/علوي في قبضة الحجاج". "وبلغ حقده على النبيّ، انه لما دخل المدينة سماها: نتنة، وقد سماها رسول الله: طيبة. ولما رأى الناس يطوفون بقبر الرسول ومنبره، قال: إنما يطوفون برمة واعواد" (المصدر نفسه) عن إبن عبد ربه (العقد الفريد ٤٩/٥) فأي قرآن سعى الحجاج إلى حفظه وحمايته؟!

(٢٧) المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص١٢٤

الفصل الثامن

أخبار التحريف

قال القاضي الباقلاني حول تصحيفه أو تحريف حروف القرآن، عند النسخ، أو اختلاف اللفظ من لهجة إلى أخرى: "نحن لا ننكر أن يغلط في حروف معدودة، كما يغلط الحافظ في حروف وينسى، وما لا يجيزه على الحفاظ مما لا نجزه عليه.[1]" وقال ابو القاسم الخوئي في معنى التحريف: "يطلق لفظ التحريف، ويراد من عدة معان على سبيل الاشتراك، فبعض منها واقع في القرآن باتفاق المسلمين، وبعض منها لم يقع باتفاق منهم أيضاً، وبعض منها وقع الخلاف بينهم.[2]" وللتحريف عنده ستة معانٍ، اقر حدوث بعضها في القرآن، ونلخصها بالتالي: أن لا خلاف بين المسلمين في أن المفسرين تصرفوا في معانيه. وحدوث زيادة ونقصان في حروفه وحركاته اللغوية، مع تأكيده على عدم إخلال هذا التحريف في القرآن، اي لم يضع منه شيئاً. وقصد الخوئي مطابقة القرآن" لإحدى القراءات "دون غيرها. كذلك يعترف بحدوث زيادة ونقصان بكلمة أو كلمتين، مع عدم الإخلال بالقرآن. ودليله على ذلك ان عثمان حرق المصاحف من غير ما جمع، لحدوث زيادة ونقصان فيها. ووقع التحريف بزيادة ونقصان في آية أو سورة مع صيانة القرآن من الخلل. فالمسلمون اتفقوا واختلفوا على البسملة في أن تكون سابقة لكل سورة ماعدا سورة براءة (التوبة) او لا تكون من القرآن فذهبت" المالكية إلى كراهية الإتيان بها قبل قراءة الفاتحة في الصلاة المفروضة، إلا إذا نوى به المصلي الخروج من الخلاف، وذهب جماعة أخرى إلى أن البسملة من القرآن. وأما الشيعة فمنهم متسالمون (موافقون) على جزئية البسملة من كل سورة غير سورة التوبة.[3]" كل التحريفات التي ذكرت أقرها الخوئي لأنها لا تمس جوهر القرآن غير تغير بالمعنى من فعل المفسرين، وتغير بالحروف وشكل الكلمات بفعل الكتاب. أما التحريف بزيادة نصوص من غير القرآن فهذا، حسب قول الخوئي مرفوض بإجماع المسلمين. لكنه لم يعط حكماً

أو رأياً في التحريف بنقصان نصوص من القرآن، وحسب قوله "بمعنى أن المصحف الذي بين أيدينا لا يشتمل على جميع القرآن الذي نزل من السماء، فقد ضاع بعضه على الناس، والتحريف بهذا المعنى وقع فيه خلافه، فأثبته قوم ونفاه آخرون."[٤] وتابع آية الله الخوئي في كتابه "البيان في تفسير القرآن" روايات عديدة، وردت على لسان فقهاء ومفسرين من أهل السنّة، أشارت إلى نقص في مصحف عثمان بن عفان، الذي بين أيدي المسلمين اليوم، ولم يختص أعيان الشيعة، مثل محمد بن يعقوب الكليني صاحب "الكافي"، بذلك. ومن هذه الروايات ما ذكره جلال السيوطي بقوله: "أول من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد (...) وأن عمراً أتى بآية الرجم فلم يكتبها، لأنه كان وحده."[٥] والمتفق عليه كان شهادة شهيدين. ومنها ما ورد عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: "كانت سورة الأحزاب تقرأ زمن النبي صلى الله عليه وسلم مئتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن."[٦] ويعلق الخوئي على هذه الروايات وامثالها: بقوله: "ومن العجيب أن جماعة من علماء أهل السنّة أنكروا نسبة القول بالتحريف إلى أحد من علمائهم."[٧] وفي الزيادة والنقصان في المصاحف السابقة على المصحف العثماني، ذكر الراغب الأصبهاني، في باب ما أدعى أنه من القرآن مما ليس في المصحف وما أدعى أنه منه وليس فيه: "أثبت زيد بن ثابت سورتي القنوت في القرآن، واثبت ابن مسعود في مصحفه: لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب. وروي أن عمراً، رضي الله تعالى عنه، قال: لو يقال زاد عمر في كتاب الله تعالى لأثبت في المصحف، فقد نزلت الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله، والله شديد العذاب. وقالت عائشة: لقد نزلت آية الرجم والرضاع الكبير، وكانتا رقعة تحت سريري، وشغلنا بشكاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلت داجن (شخصته بعض الروايات من الغنم) فأكلته."[٨] ولا ندري كيف وازن المؤرخون، من أصحاب الحديث، روايتهم في عجز عمر من تثبيت نص قرآني وبين موافقة القرآن له في كثير من النصوص، منها روايتهم للحديث: "ما قال الناس في شيء وقال عمر بن الخطاب إلا جاء القرآن نحو ما يقول."[٩] ومثل

ذلك ورد في رواية: "كان عمر إذا رأى رأياً نزل به القرآن.[10]" وكيف وازن أصحاب الحديث أيضاً بين هذه الروايات والأحاديث وبين تشددهم ضد من قال بخلق القرآن؟ فعلى حد رواياتهم أن آية الحجاب والتي ما زال المتشددون يوظفونها ضد المرأة أنها نزلت برأي من عمر على رب العالمين، وأن تعريف القرآن للإنسان بأنه "سلالة من طين" جاءت أيضاً بعد تفكير عمر بها.[11] وذكر الأصبهاني في باب "قراءة تخالف صور حروفها ما في المصحف أو ترتيبها تغيير في كلمات آياته، مشيراً إلى قول بعض العلماء إجازة ابن عباس في استخدام المرادف عند عجز القارئ عن اللفظ. قال الراغب": قرأ بدل العهن: كالصوف، وبدل فهي كالحجارة: فكانت كالحجارة. وذكر بعض العلماء أن ابن عباس كان يّجوز أن يقرأ القرآن بمعناه، واستدل بما روي عنه أنه كان يعلم رجلاً طعام الأثيم، فلم يكن يحسن الأثيم، فقال: قل الفاجر، وليس ذلك بشيء فيما ذكره جل العلماء، لأن ابن عباس أراد أن يعرفه الأثيم فعرفه بمعناه لما أعياه. و قرأ بدل السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما: فاقطعوا أيمانهما، وكان عمر يقرأ: غير المغضوب وغير الضالين، وعبد الله بن الزبير: صراط من أنعمت عليهم، وقرأ بعضهم: وضربت عليهم المسكنة والذل، وأبو بكر رضي الله تعالى عنه: وجاءت سكرة الحق بالموت.[12]" كما أطنب اللغويون والمفسرون عند الشواذ اللغوية في عدد من الآيات، حملت عائشة النُساخ مسؤوليتها، فقد ورد برواية مرفوعة إلى "هشام بن عروة (حفيد الزبير بن العوام)، عن أبيه: سألت عائشة عن لحن القرآن: إن هاذان لساحران"، وعن قوله: والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة، وعن قوله: والذين هادوا والصابئون. فقالت: يا ابن أختي هذا عمل الكتّاب، اخطأوا في الكتاب.[13]" كما ورد في رواية أن سُئل أبان بن عثمان[14]: "كيف صارت: لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلوة والمؤتون الزكاة، ما بين يديها وما خلفها رفع وهي نصب؟ قال: من قبل الكتاب، كتب ما قبلها ثم قال: ما أكتب؟ قال: أكتب الصلاة فكتب ما قيل له.[15]" ومن آراء اللغويين فيما ذكر من لحن لغوي، قال الزجاج: "إن هذان

لساحران، يعنون موسى وهارون. وإن هذا الحرف من كتاب الله عز وجل مُشكِل على أهل اللغة، وقد كثر اختلافهم في تفسيره، ونحن نذكر جميع ما قاله النحويون ونخبر بقراءة القراء فيه. أما قراءة أهل المدينة والأكمة في القراءة فبتشديد إنّ، والرفع في هذان، وكذلك قرأ أهل العراق، حمزة وعاصم، في رواية أبي بكر بن عياش، والمدنيون. وروي عن عاصم: إن (هذان) بتخفيف إنّ، ويصدق ما قرأه عاصم في هذه القراءة ما يروي عن أبي فإنه قرأ: ما هذان إلا ساحران، وروي أيضاً عنه أنه قرأ: إنْ هذان إلا ساحران، ورويت عن الخليل: إنْ (هذان) لساحران، بالتخفيف، والإجماع أنه لم يكن أحد بالنحو أعلم من الخليل. وقرأ أبو عمر وعيسى بن عُمَر: إنّ هذين لساحران، بتشديد إنّ، ونصب هذين.[16]" ويذكر الزجاج أيضاً رواية لهشام بن عروة عن عائشة، السالفة الذكر، واحتج عدد من النحاة بها. وقال مبرراً ذلك اللحن بقوله: "انها لغة كنانة، يجعلون الف الاثنين في الرفع والنّصب والخفض على لفظ واحد، يقولون أتاني الزيدان، ورأيت (الزيدان)، ومررت بـ(الزيدان.)[17]" وقال أبو البقاء العكبري[18]: "قوله تعالى (إن هذين) يقرأ بتشديد إنّ، وبالياء في هذين، وهي علامة النصب. ويقرأ انّ بالتشديد، وهذان بالألف، وفيه أوجه: أحدهما: أنها بمعنى نعم، وما بعدها مبتدأ وخبر. والثاني: إن فيها ضمير الشأن محذوفاً، وما بعدها مبتدأ وخبر أيضاً، وكلا الوجهين ضعيف من أجل اللام التي في الخبر، وإنما يجيء مثل ذلك في ضرورة الشعر.[19]"

وورد في باب الأسئلة والأجوبة في "مجلة المنار"، العام (١٩٠٢)، سؤال من قارئ قال فيه: "هل يوجد حديث صحيح بأن في القرآن لحناً ستقيمه العرب بالسنتها وأن منه قوله تعالى: والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة؟ نرجو الرد على ذلك لإزالة الشبهة.[20]" وكان جواب الشيخ محمد رشيد رضا، صاحب" تفسير المنار": "لم يرد في هذا المعنى حديث صحيح ولا ضعيف ولا موضوع، ولكن الزنادقة الذين حاولوا العبث بدين الإسلام، كما كان يفعل أمثالهم في الأديان الأخرى لما عجزوا عن زيادة حرف في القرآن، أو نقص حرف منه لحفظه في الصدور والصحف أرادوا أن يشككوا بعض المسلمين فيه بشيء يضعونه عن

لسان الصحابة الكرام فزعم بعضهم أن عكرمة قال: لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال: لا تغيروها فأن العرب ستغيرها، أو قال: ستقرؤها بألسنتها، لو كان الكاتب من ثقيف والملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف."[31] وقد حمل المجيب أهل الأديان الأخرى دس مثل هذا الحديث، بقوله: "ومن يدري، أن كان الساقط من سنده مجوسي أو دهري وإسرائيلي." لكن للراغب الأصبهاني رأياً آخر، تبنى فيه ما سلف ذكره عن عائشة، جاء فيه: "كان القوم الذين كتبوا المصحف لم يكونوا قد حذقوا الكتابة، فلذلك وضعت أحرف على غير ما يجب أن تكون عليه."[32] وروى في باب "من ذكر مثلاً فاعتقد أنه من القرآن"، أمثلة عديدة على توهم الخطباء بين الأمثال والقرآن، منها، أخطب أحدهم فقال: "قال الله تعالى: لن يعجز القوم إذا تعاونوا. وخطب عتاب بن ورقاء[33] فقال: "إن الله تعالى يقول: إنما يتفاضل الناس بأعمالهم، فقيل: ليس هذا قرآناً، فقال: ما أظنها إلا آية. وقال بعض الناس: ما أحسن ما قال الله تعالى، اقتلوا السفلة حيث وجدتموهم! فقيل ليس هذا بقرآن، فقال، الحقوها به فإنها آية حسنة. وغضب أبو عباد الكاتب[34] على بعض كتابه فرماه بدواة، فبلغ المأمون فقال له: لم فعلت ذلك؟ فقال: أنا ممن قال الله فيه: وإذا ما غضبوا هم يستغفرون."[35] ونقل عن أحدهم أنه قال في مجلس الإمام الشافعي: "كيف يقرأ بشوال يعجنك أو بشوال يعجبك؟ فقيل ليس في القرآن شيء من ذلك، فقال الشافعي: دعوه لي إنما يريد بسؤال نعجتك (ص٢٤)."[36] وقال الجاحظ": سمعت من يقرأ: ض (بدلاً عن: ص) والقرآن، وقرأ آخر: أن السموات والأرض كانتا ربقاً (بدلاً عن: رتقا)، وقرأ آخر: نبية من ربكم (بدلاً عن: بينة من ربكم)، وقرأ آخر: ومريم بنت عمران التي أخصيت فرجها (بدلاً عن: والتي أحصنت فرجها.)[37]"

كان الذين أشركوا القرآن في حياتهم اليومية في حزنهم ومرحهم مؤمنين، ومنهم الفقهاء والمتكلمون، وما يفعلونه ليس سخرية بآي القرآن بل لأن له حضوراً في حياتهم العامة، وسخرية من لحنهم فيه. ومن ذلك ما ذكره الراغب في حكاية ظريفة ورد فيها": صلى رجل يقال له يحيى بأربعة نفر، فأكثر اللحن في:

قل الله أحد، فلما فرغ قال أحدهم: أكثر يحيى غلطاً/في قل هو الله أحد، فقال الثاني: قام يصلي قاعداً/حتى إذا اعيا قعد، فقال الثالث: كأنما لسانه/شد بحبل من مسد، فقال الرابع: يزحر في محرابه/زحير حبلى بولد."[٢٨] وبنفس المعنى روى إبن عبد ربه الأندلسي أن والي خراسان وكيع بن أبي سوّد التميمي قرأ في خطبته: "إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أشهر. فقالوا له: بل في ستة أيام، فقال: والله لقد قلتها وأنا استقلّها."[٢٩] ومن "نوادر العرب فيما سمعوه من القرآن، وتعاملهم العفوي مع نصوصه: قيل لإعرابي: اقرأ قل يا أيها الكافرون. فقال: أدخل يدك في الجراب، فأخرجت شيئاً فيه هبوط وصعود، هات غيرها. وقيل لآخر: ما تقرأ في صلاتك؟ قال: أم القرآن ونسبة الرب وهجاء أبي لهب. وقيل لآخر: ما قرأ إمامكم البارحة في صلاته؟ فقال: أوقع بين موسى وهارون شراشر. وسمع آخر يقرأ: الأعراب اشد كفراً ونفاقاً، فقال: لقد هجانا، ثم سمعه يقرأ بعده: ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، فقال: لا بأس هجاء ومدح (...) وسمع آخر قوله تعالى: وفي السماء رزقكم وما توعدون، فقال: أين السلم إليه؟"[٣٠] ويذكر أبو منصور الثعالبي الشبه بين الآيات القرآنية والأمثال العربية في باب "من أمثال العرب، يتمثل من ألفاظ القرآن بأحسن منها وأبلغ[٣١]"، ومنها: "العرب تقول: يداك أو كتا وفوك نفخ"، وفي القرآن: "ذلك بما قدمت أيديكم." وفي المثل: "وإن غداً لناظره قريب"، وفي القرآن: "أليس الصبح بقريب." وفي المثل: "لكل مقام مقال"، وفي القرآن: "لكل نبأ مستقر"، وغيرها كثير.

ثمة حقيقة يفترض أن نضعها نصب أعيننا عند معاينة الكتب المقدسة، أو السماوية الأخرى، فما دامت تعتبر من السماء، بصفتها كلام الله، حسب ما ورد في القرآن والحديث، فمن الصعب بمكان تصديق رواية تحريفها. ويبدو لي أن تفسير الآيات الخاصة بأحوال أهل الكتاب تحتاج إلى تأويل يرقى بها إلى مستوى الاعتراف بكتبهم، وتسميتهم من قبل المسلمين بأهل الكتاب. إن الإقرار بديانة يدان بها من جهة، واعتبارها محرفة من جهة أخرى يضعنا في تناقض بائن.

الهوامش:

(١) إعجاز القرآن، ص٤٤٣

(٢) البيان في تفسير القرآن، ص١٩٧

(٣) المصدر نفسه

(٤) المصدر نفسه، ٢٠٠-١٩٧

(٥) المصدر نفسه، ص٢٠٢، عن الإتقان في علوم القرآن،١ ص١٠١

(٦) المصدر نفسه، ص٢٠٣، عن الإتقان

(٧) المصدر نفسه، ص٢٠٦

(٨) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء،٤ ص٤٣٤-٤٣٣

(٩) تاريخ دمشق،٤٤ ص١١١

(١٠) المصدر نفسه،١١٤

(١١) أنظر ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عمر بن الخطاب.

(١٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء،٤ ص٤٣٤-٤٣٣

(١٣) كتاب المصاحف، ص٤٣

(١٤) أبو سعد بن عثمان بن عفان، كان فقيهاً، حدث بأحاديث عن أبيه، تولى المدينة سبعة أعوام، توفي السنة١٠٥ هـ (سير أعلام النبلاء،٤ ص ٣٥١.)

(١٥) المصدر نفسه٤٣-٢٤

(١٦) معاني القرآن وإعرابه،٣ ص٣٦١

(١٧) المصدر نفسه، ص٣٦٢

(١٨) محب الدين عبد الله بن الحسين البغدادي الضرير، نحوي معروف، من تصانيفه: "إعراب القرآن"، "إعراب الشواذ"، "إعراب الحديث" و"عدد الآي" توفي ببغداد السنة٦١٦ هـ (سير أعلام النبلاء،٢٢ ص ٩١.)

(١٩) التبيان في أعراب القرآن،٢ ص٨٩٥-٨٩٤

(٢٠) أسئلة وأجوبة، مجلة المنار، نيسان١٩٠٢، المجلد الخامس، ص٢١

(٢١) المصدر نفسه، ص. ٢٢ورد الحديث في أكثر من مصدر، منها: محاضرات البلغاء، ٤ص ٤٣٤، و الزجاج في معاني القرآن وإعرابه،٢ ص. ١٣٦

(٢٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء،٤ ص٤٣٤

(٢٣) الرياحي، أرسله الحجاج إلى قتال شبيب الخارجي وزوجته غزالة وقيل إنها قاتلت "قتالاً عجز عنه كُمَّل الرجال" حتى قتلت إلى جانب زوجها، وقتل أيضاً عتاب، كان ذلك السنة٧٧ هـ (شذرات الذهب،١ ص ٣١٦.)

(٢٤) ثابت بن يحيى بن يسار الرازي، وزير للمأمون، كان بارعاً في الحساب والمعرفة، تولى إدارة الأموال أيام المأمون، واستعفى من الوظيفة بسبب مرضه بالنقرس، توفي السنة ٢٢٠هـ (ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص(١٧٠،) الفرج بعد الشدة،٣ ص ٤٣.)

(٢٥) محاضرات الأدباء،٤ ص١٤١

(٢٦) المصدر نفسه،١ ص١٠٧

(٢٧) المصدر نفسه

(٢٨) المصدر نفسه،١، ١٤١

(٢٩) العقد الفريد،٦ ص١٥٩

(٣٠) محاضر الأدباء،١ ص١٤٠

(٣١) التمثيل والمحاضرة، ص١٧-١٥

الفصل التاسع

القراءات

لعب تعدد قراءات أو أحرف القرآن دوراً ملحوظاً في ما حصل من اختلاف بين المصاحف، ثم في ما حصل من اختلاف في النسخ المنسوخة عن مصحف واحد. وفي هذا المجال، أمامنا عدة أحاديث، وصفت أنها نبوية، أشارت إلى اختلاف الناس في النقل عن الرسول، لتبرير هذه الظاهرة، منها: "أقرأني جبريل القرآن على حرف واحد فراجعته، فلم أزل أستزيده فيزيد حتى انتهى إلى سبعة أحرف"، و"أنزل القرآن على أربعة أحرف"، و"أنزل القرآن على ثلاثة أحرف"، و"أنزل القرآن على سبعة أحرف" و"أنزل القرآن على عشرة أحرف: بشير ونذير وناسخ ومنسوخ وعظة ومثل ومحكم ومتشابه وحلال وحرام.[1]" ويورد ابن الجوزي حادثة أشار بها الرسول إلى شرعية تعدد قراءة القرآن، مع خطأ تفسيرها من قبل البعض، جاء فيها: "قال عمر بن الخطاب: سمعت هشام بن الحكيم[2] يقرأ سورة الفرقان، فقرأ فيها حروفاً لم يكن نبي الله، صلى الله عليه وسلم، اقرأنيها، فأردت أن أساوره، وأنا في الصلاة، فلما فرغت قلت: من اقرأك هذه القراءة؟ قال: رسول الله، قلت كذبت، فأخذت بيده أقوده إلى رسول الله، فقلت: إنك اقرأتني سورة الفرقان، وإني سمعت هذا يقرأ حروفاً لم تكن اقرأتنيها. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: اقرأ يا هشام، فقرأ كما قرأ، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هكذا أُنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت، فقال: هكذا أُنزلت، ثم قال رسول الله: إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف.[3]"

فماذا تعني هذه الأحرف، هل هي القراءة أم الأحكام والنواهي والأوامر أم اللغات؟

لهذا السؤال جمع ابن الجوزي أربعة عشر جواباً، واقتنع هو بالجواب الرابع عشر، نوردها مع التصرف كالتالي: الأول: حلال وحرام وأمر وزجر وضرب أمثال ومحكم ومتشابه. الثاني: حلال وحرام وأمر ونهي وخبر ما كان، وخبر ما

هو كائن وأمثال. الثالث: حلال وحرام وأمر ونهي ووعد ووعيد ومواعظ وأمثال واحتجاج. الرابع: محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص. الخامس: مقدم ومؤخر وفرائض وحدود ومواعظ ومتشابه وأمثال. السادس: لفظة خاص يراد بها عام، ولفظة يغني تنزيلها عن تأويلها، ولفظة لا يعلم فقهها إلا العلماء، ولفظة لا يعلم معناها إلا الراسخون في العلم. السابع: ايات في إثبات الصانع، ووحدانيته، وصفاته، ورسله، وكتبه، والإسلام وإبطال الكفر. الثامن: الإيمان بالله، ومحمد، والقرآن، والرسل، والكتب، والملائكة، والبعث. التاسع: إنها ما يدخل في اللغة مثل: الهمز والفتح والكسر والإمالة[1] والتفخيم والمد والقصر. العاشر: إنها الألفاظ المختلفة بمعنى واحد، مثل قولهم: هلمّ، تعال، أصل، هاهنا إلى عندي، أعطف عليَّ. الحادي عشر: أحد الوجوه الجمع والتوحيد كقوله: بشهادتهم وبشهاداتهم، والتذكير والتأنيث، والإعراب، والتصريف، والأدوات، واختلاف اللغات: في المد والقصر والهمز وتركه والإمالة والتفخيم والإدغام والإظهار وضم الميمات في الجمع وكسرها، والهاءات في الكنايات وكسرها. وتغيير اللفظ في الحاضر إلى الغائب كقوله: يرتيه ونوتيه، يدخله وندخله. الثاني عشر: اختلاف الإعراب في الكلمة بحركة لا تزيلها عن صورتها في الكتاب كقوله: هن أطهر لكم، برفع الراء وبفتحها. واختلاف في أعراب الكلمة على وجه يعترى حركاتها، ويختلف به معناها ولا يزيلها في الكتاب عن صورتها، كقوله: إذ تلقونه بألسنتكم. واختلاف في تغيير حروف الكلمة بما يغير معناها دون صورتها وإعرابها، كقوله: كيف ننشرها، وقرأ ننشزها بالزاي، وكذلك: حتى إذا افزع عن قلوبهم، وقرأ بالغين المعجمة. واختلاف في صورة الكلمة في الكتاب دون المعنى كقوله: إن كانت الأضحية واحدة، قرأ الأزقية. والاختلاف بتقديم الكلمة وتأخيرها، كقوله: وجاءت سكرة الموت بالحق، وقرأت: وجاءت سكرة الحق بالموت. و اختلاف تغيير صورة الكلمة ومعناها، كقوله: وطلح منضود، وقرئ طلع. والزيادة والنقصان، كقوله: وما علمت أيديهم، وقرأ: وما عملته، وقوله: إن الله هو الغني الحميد، وقرأ: أن الله الغني الحميد.

الثالث عشر: الاختلاف بالتأنيث والتنكير، كقوله: ولا يقبل منها شفاعة، ولا تقبل، ولا تحل لك النساء، ولا يحل. في الجمع والتوحيد، كقوله: وصدقت بكلمات ربها وكتبه، وكتابه. في الخفض والرفع، كقوله: في اللوح محفوظ، ومحفوظ وهل من خالق غير الله، وغير الله. في الأدوات والآلات كالنون إذا شددت، والألف إذا كسرتها أو فتحها. وفي الإعراب والتصريف كقوله: يعرشون. وفي تغيير اللفظ والنطق: كيف ننشرها وننشزها بالزاي والراء. وفيما يدخل في اللفظ مما تجوزه اللغة كالقصر والمد والتفخيم والإمالة والكسر والفتح والهمز. الرابع عشر: وبه يصل ابن الجوزي إلى التفسير المناسب، بعد جولته الطويلة في احتمالات مقصد الحديث، آخذاً ذلك من علماء ومفسرين سبقوه، بقوله": إن المراد بالحديث أنزل القرآن على سبع لغات، وهذا هو القول الصحيح، وما قبله لا يثبت عن السبك، وهذا اختيار ثعلب وابن جرير (الطبري)، إلا ان أقواماً قالوا: هي سبع لغات متفرقات لجميع العرب في القرآن، وكل حرف منها لقبيلة مشهورة. وقوماً قالوا: أربع لغات: لهوازن وثلاث لقريش. وقوماً قالوا: لغة لقريش ولغة لليمن ولغة لجرهم ولغة لهوازن ولغة لقضاعة، ولغة لتميم، ولغة لطي. وقوماً قالوا: إنما هي بلغة الكعبين كعب بن عمر وكعب بن لؤي، ولهما سبع لغات.[٥]" على ضوء ما تقدم، فأن هناك حقاً في الاختلاف بقراءة القرآن، لكن إتلاف المصاحف، كما تقدم، ألغى هذا الحق، لتكون لهجة قريش هي السائدة.

ومن المعاصرين، يرى أبو القاسم الخوئي "أن القرآن إنما نزل على حرف واحد، وأن الاختلاف قد جاء من قبل الرواة.[٦]" لكنه سبق أن أعتبر اختلاف اللهجات في معنى القراءات أو الحروف السبعة أحسن الوجوه، فقال شارحاً: "إن لكل قوم من العرب لهجة خاصة في تأدية بعض الكلمات، ولذلك نرى العرب يختلفون في تأدية الكلمة الواحدة حسب اختلاف لهجاتهم. فالقاف في كلمة يقول مثلاً يبدلها العراقي بالكاف الفارسية، ويبدلها الشامي بالهمزة، وقد أنزل القرآن على جميع هذه اللهجات للتوسعة على الأمة، لأن الالتزام بلهجة خاصة من اللهجات فيه تضييق على القبائل الأخرى التي لم تألف هذه اللهجة، والتعبير

بالسبع إنما هو رمز إلى ما ألفوه من معنى الكمال في هذه اللفظة، فلا ينافي ذلك كثرة اللهجات، وزيادتها على السبع.[7] ثم ينفي الخوئي ما تقدم لاعتبارات عديدة منها: لأنه ينافي ما ورد عن عمر وعثمان من أن القرآن نزل بلغة قريش، وأن عمر منع ابن مسعود من قراءة: عتى حين، كما أسلفنا. ولأنه ينافي مخاصمة عمر لهشام بن حكيم في القراءة، وكلاهما من قريش. أما اللغوي المعاصر هاشم الطعان فقال باحثاً في أمر الأحرف: إنها "فسرت في بعض المصادر باللهجات، واستدعى ذلك أن يبحث عن القبائل التي يقرأ القرآن بلهجاتها." واعتقد الطبري[8] أن هذه اللهجات، وسماها الألسن، ممثلة تمثيلاً كاملاً، إلا أنه أعلن ستة من الأحرف السبعة قد اندثرت في زمنه، وعفا أثرها، وأن القراءة الآن على حرف واحد دون الستة الأخرى. ومن آثار تلك اللهجات التي عثر عليها أحمد تيمور ما ورد في "فقه اللغة" للثعالبي: "أن بعضهم قرأ: قد جعل (ربش تحتش سريا) يعني الآية (قد جعل ربك تحتك سريا)، وقد قرأ شاذان: (إنا إنطيناك الكوثر) وهو الأستنطاء، وقرأ عبد الله بن مسعود: (عتى عين) يعني (حتى حين) وهي الفحفحة."[9]

وحول ما ورد عن لهجات أو لغات أو قراءات أو حروف القرآن، ينشأ الاحتمالان التاليان: الأول، أن القرآن لم ينزل إلا بالهجة التي كان ينطقها النبي محمد، وهي لهجة قريش. وإذا تقرر حسب رأي المعتزلة أن القرآن مخلوق فقد عبر الرسول عن الوحي بالحروف والكلمات التي ينطقها، ولعلها ممزوجة بمفردات من لهجات أخرى. والثاني، أن دخول تلك اللهجات جاء بعد انتشار القرآن، ونقله من مكان إلى آخر، ولا أظن أن امتداده خارج قريش سيكون خالصاً بلهجة قريش، أي كما نطقه الرسول.

والقراء السبعة، كما أوردهم الخوئي في "البيان في تفسير القرآن" هم: عبد الله بن عامر الدمشقي[10]، و ابن كثير المكي[11]، وعاصم بن بهدلة الكوفي[12]، و أبو عمرو البصري[13]، وحمزة الكوفي[14]، ونافع المدني[15]، والكسائي الكوفي.[16] لكن الذهبي في كتابه "معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار" عدَّ من هؤلاء

السبعة أثنين فقط، وهما: عاصم بن بهدلة و حمزة الكوفي، ولعل تشخيص الآخرين سقط سهواً من قبل النساخ. ويرى الجزري في اختيار هذا العدد من القراء، الذين ظهروا للوجود بعد جيل التابعين، أن الأمر لا يرتبط بالسبعة لأن هذا العدد، كثيراً ما يستخدم في صيغة المبالغة، ولهذا يكون عدد القراء غير محدود. ورد ذلك بقوله: "والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعمائة، ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر، قال تعالى: (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل)، و(إن تستغفر لهم سبعين مرة)، وقال صلى الله عليه وسلم في الحسنة: إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة."[17]...وإضافة إلى ما قاله الجزري في اختيار هذا العدد بالذات فإن له حضور واسع في الأديان والمثيولوجيا الدينية، فالسماوات سبع، وأبواب العالم السفلي عند السومريين سبع، وأبواب جهنم سبع في القرآن، والفقهاء المختارون سبعة[18] و"غير ذلك كثير."[19] ويقول الباحث الإسماعيلي عارف تامر، وما يتعلق ذلك في حضوره بالتوراة وأخبار عيسى والقرآن، وبمعتقد الإسماعيلية: "وقد نذهب إلى القول بأنه عدد مقدس."[20] وإن كان العدد سبعة هو أكثر الأرقام حظوة عند المؤرخين في إحصاء القراءات والقراء، لكن هذا لا يعني أنه الوحيد، بل هناك القراء العشر، كما يدل عليه كتاب "النشر في القراءات العشر"، والقراء الأحد عشر، والثلاثة عشر، والعشرون، والخمسة والعشرون، وهناك من يعتقد أن لا حدود لعدد القراء. غير أن هناك حدوداً للغات واللهجات. والغريب أن أبا القاسم الخوئي وقبله كثير من علماء الدين ينفون وجود القراء وقراءاتهم، ولكن ما سر هذا الكم الكبير من الكتب المؤلفة في هذه الظاهرة، والتي أحصاها الجزري في كتابه "النشر في القراءات العشر" بسبعة وخمسين كتاباً، منها: كتاب "التسيير" لأبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ)، كتاب "الروضة في القرءات الأحدى عشرة" لأبي علي محمد بن إبراهيم البغدادي (ت٣٩٩هـ)، كتاب الجامع في العشر "للفارسي (ت٤٦١هـ)، كتاب "السبعة" لأبي بكر أحمد بن موسى البغدادي (ت٣٢٤هـ)، كتاب "التذكار في القراءات العشر" لأبي الفتح عبد الواحد بن شيطا البغدادي

(ت٤٤٥هـ)، وغيرها. وذكر هاشم الطعان[٣١] عناوين كتب تناولت لغات القرآن، منها: "اللغات في القرآن" لمقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ)، و"لغات القرآن" لإبن الكلبي (ت٢٠٤هـ)، و"لغات القرآن" لهيثم بن عدي (ت٢٠٦هـ)، و"لغات القرآن" للفراء (ت٢٠٧هـ)، و"اللغات في القرآن" لإبن دريد (ت٣٢١هـ) وغيرها. وأخيراً، يتم الاعتراف باختلاف اللهجات، وتعدد القراءات في القرآن الكريم بالحديث النبوي التالي: "اقرؤا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين."[٣٢] وحسب ما ورد من اختلاف في القراءة، كيف تتم مواجهة ترجمة القرآن إلى مختلف اللغات، فليس من المعقول أن يشترط بالمسلمين من مختلف الانحدارات أن يستعربوا؟ وهل كان في ذهن الرسول أن يبقى الإسلام عربياً فقط، وانه موجه إلى قوم لا إلى أقوام؟ ثم أن الحديث التالي: "القرآن لم ينزل بالكسكسة[٣٣] ولا الكشكشة[٣٤]، ولكن بلسان عربي مبين[٣٥]" يلغي الاعتراف بغير لهجة قريش، فالكسكسة والكشكشة من طبيعة اللهجات الأخرى. لكن هناك حديثاً يقول: "إن الرجل الأعجمي من أمتي ليقرأ القرآن بعجميّته فترفعه الملائكة على العربية."[٣٦] ثمة إرباك في روايات الأحاديث المتضادة، سواء كانت صحيحة أو موضوعة، فكل حديث يعبر عن حادثة محددة، ولكن دون حصول اتفاق ولو بحدود بين الروايات. فراوية الحديث أو واضعه لا يهمه أن يتناقض كلية مع غيره، ومع هذا التناقض يحدث انقلاب كبير، فكيف نفهم جواز القراءة بالأعجمية والملائكة تقوم بالترجمة، حسب ما يفهم من الحديث السالف، وتحريم القراءة بلهجات عربية، كما حدث أن عمر بن الخطاب وبخ عبد الله بن مسعود، لأنه قرأ على غير قراءة قريش. ويتضح من الاختلاف حول القراءة والأحرف التي كتب وحفظ بها القرآن أن حملة إتلاف وحرق المصاحف التي جردها عثمان بن عفان واستكملها الحجاج بن يوسف الثقفي ترمي إلى فرض قراءة واحدة، هي قراءة قريش، وقد سبق وذكرنا احتجاج العراقيين ثم المصريين على منع عثمان للقراءات. وقد استحدثت عقوبات صارمة، ليس أقل من التكفير والموت، على أي قراءة تخالف قراءة المصحف

العثماني. ورغم ذلك أستمر الخلاف بالقراءة في فترة لاحقة، فقد نقل عن المقرئ البغدادي أبي الحسين محمد بن أحمد بن شنبوذ أنه أحضر للتحقيق أمام الوزير العباسي محمد بن مقلة بتهمة تغييره حروفاً من القرآن، مع أنه كان من مشاهير القراء في القرن الرابع الهجريين وكاد أن يقتل بسببها، لولا تراجعه السريع عن ذلك واعترافه بمخالفة قراءة أكثر من عشرة آيات. وعندها كتب بخط يده محضر توبته: "فمتى خالفت ذلك أو بان مني غيره فأمير المؤمنين في حل من دمي وسعة، وذلك يوم الأحد لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة في مجلس الوزير أبي علي محمد بن علي بن محمد بن مقلة.[٢٧]" ثم كتب الشهود شهاداتهم. ونسب المقرئ المذكور المحققين معه "إلى قلة المعرفة وغيرهم بأنهم ما سافروا في طلب العلم كما سافر." وبهذا أشار إلى تفشي القراءات الأخرى في أصقاع الدولة رغم تعميم المصحف العثماني، والحملات الكثيرة والمتعاقبة لجمع المصاحف الأخرى ومنع أي قراءة مخالفة. ولم تنته محنة هذا القارئ بكتابته للمحضر وإعلان توبته فقد رُحل إلى المدائن خوفاً عليه من فتك العامة به، وقيل: "إنه توفي في محبسه بدار السلطان." وبشأن اللغات الأعجمية بالقرآن روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: "في هذا القرآن من كل لسان.[٢٨]" وفي المصدر نفسه ورد في الحديث "أن في القرآن من غير لسان العرب." وورد أيضاً: "ما في الأرض من لغة إلا أنزلها الله تعالى في القرآن." لكن جماعة منهم أبو عبيدة[٢٩] قالوا: "من زعم في القرآن لساناً سوى العربية فقد أعظم على الله القول، وأحتج بقوله: إنا جعلناه قرآناً عربياً.[٣٠]" ويروى أن الحجاج بن يوسف الثقفي أتخذ قراراً مخالفاً للإسلام فمنع إمامة الصلاة لغير العربي، وورد ذلك في رواية أحمد بن عبيد الله العجلي[٣١]، أحد التابعين ومقرئ الكوفة، أن يحيى بن وثاب[٣٢] أعتزل الصلاة بعد سماعه بقرار الحجاج، وأنه قال للمصلين: "اطلبوا إماماً غيري، إنما أردت أن لا تستثقلوني.[٣٣]"

الهوامش:

(١) وردت الأحاديث في كتاب الحديث "كنز العمال."

(٢) ابن حزام بن خويلد القرشي، أسلم يوم فتح مكة، وكان من الفضلاء ممن تطوع للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عاش بالشام متطوعاً للاحتساب دون أمر من أحد، ووصف بالسائح لأنه لم يتخذ أهلاً ولا ولداً، فهو من الزهاد الأوائل (ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الصحابة٤ ص ١٠٠.)

(٣) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ص٣١

(٤) الإمالة: وتعني الميل بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء، ويقال له الإضجاع، والبطح، وربما قيل له الكسر أيضاً (راجع الجزري، النشر في القراءات العشر٢ ص٣٠.) و(هاشم الطعان، الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة، ص ١٥٨.)

(٥) فنون الأفنان، ص٣٤

(٦) البيان في تفسير القرآن، ص١٩٢

(٧) المصدر نفسه، ص١٩٢

(٨) الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة، ص٩٣

(٩) المصدر المذكور، ص١٦٧-١٦٦، عن تيمور، لهجات العرب، ص. ٦٧والاستنطاء معروف بين العراقيين، مثل قولهم: الله ينطيك (يعطيك)، أو إنطيني.

(١٠) عبد الله بن عامر اليحصبي الدمشقي، إمام أهل الشام في القراءة، أصله من حمير باليمن. اخذ عن أبي الدرداء وعن المغيرة بن أبي شهاب، وقيل قرأ عند عثمان بن عفان. وتولى قضاء دمشق، توفي السنة١١٨ هـ (ابن الخياط، الطبقات،(٢١١) معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار،١ ص ٨٢.)

(١١) أبو معبد عبد الله بن كثير مولى عمرو بن علقمة الداري المكي، أصله فارسي، وقال إبن الخياط في "الطبقات": كان من الأبناء، أي الأب فارسي والأم يمنية. عمل بمكة عطاراً، وقرأ على عبد الله السائب المخزومي، ومجاهد، ودرباس مولى إبن عباس. وتصدر القراءة بمكة حتى أصبح إماماً بها. توفي السنة١٢٠ هـ (معرفة القراء الكبار١ ص ٨٦.)

(١٢) عاصم بن بهدلة بن أبي النجود الأسدي، من موالي الكوفة، وهو معدود من التابعين، وانتهت إليه إمامة القراءة بالكوفة، بعد شيخه أبي عبد الرحمن السلمي. وتوفي السنة١٢٧ هـ، وقيل١٢٨ هـ (معرفة القراء الكبار،١ ص(٨٨،) ابن الخياط، الطبقات، ص ١٥٩.)

(١٣) أبو عمرو بن العلاء المازني المقرئ النحوي، مقرئ أهل البصرة، أخذ عنه الأصمعي وأبو عبيدة، وقال الأول: "كنت إذا رأيت ابا عمرو يتكلم ظننته لا يعرف شيئاً، كان يتكلم كلاماً سهلاً." توفي السنة١٥٤ هـ (معرفة القراء الكبار،١ ص(١٠٠،) ابن الخياط، الطبقات، ٢٢٠.)

(١٤) أبو عمارة حمزة بن حبيب الكوفي، مولى آل عكرمة، أحد السبعة. أدرك عدد من الصحابة، وقرأ القرآن على الأعمش والكسائي، وحدث عنه أبي سفيان الثوري، وهو القائل: نظرت في

المصحف حتى خشيت أن يذهب بصري، وكان مصحفه على هجاء مصحف ابن الزبير، وسماه الأعمش بحبر القرآن. ويذكر أنه كان تاجراً بالزيت والجوز والجبن بين حلوان والكوفة. توفي السنة١٥٦ هـ وقيل١٥٨ هـ (معرفة طبقات القراء،١ ص ١١١.)

(١٥) أبو نعيم نافع بن عبد الرحمن المدني، قرأ على طائفة من أهل المدينة، وكان أسود اللون حالكاً، وأصله من أصبهان، وقال عنه مالك بن أنس: نافع إمام الناس في القراءة. توفي السنة١٦٩ هـ (معرفة القراء الكبار،١ ص ١٠٧.)

(١٦) الإمام أبو الحسن علي بن حمزة الكوفي المعروف بالكسائي، من موالي الكوفة، رحل إلى البصرة، وأخذ العربية عن الخليل بن أحمد الفراهيدي. وكتب الكثير من اللغات، والغريب عن الأعراب بنجد وتهامة، ثم قدم وقد أنفذ خمسة عشر قنينة حبر، ومن المؤكد أنها من الحجوم الكبيرة، وكان مؤدب محمد الأمين بن الرشيد. وقال الشافعي في منزلته العلمية: من أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي. ومن اعتداد الكسائي بعلمه أنه التقى مع اللغوي اليزيدي (يحيى بن المبارك البصري النحوي) فقال له الأخير: يا أبا الحسن أمور تبلغنا عنك ينكر بعضها! أجابه الكسائي أو مثلي يخاطب بهذا؟! وهل مع العالم من العربية إلا فضل بصاقي هذا، ثم بصق، فسكت اليزيدي. واختلف المؤرخون في تاريخ وفاته بين السنة١٨١ هـ١٩٣– هـ (معرفة القراء الكبار،١ ص ١٢٠.)

(١٧) النشر في القراءات العشر،١ ص٢٦

(١٨) جمعهم الشاعر بقوله:

إذا قيل من في الفقه سبعة أبحر
روايتهم ليست عن العلم خارجة

فقل هم عبيد الله عروة قاسم
سعيد أبو بكر سليمان خارجة

(سير أعلام النبلاء،٨ ص ٥٢.)

(١٩) إن الله خلق الكون في ستة أيام، ثم استوى على العرش في اليوم السابع، وفي التوراة استراح في هذا اليوم، وعدد الأرضين سبع، وعدد الكواكب النيرة سبع، والنفس الكلية سبع نفوس، والموجودات التي يتألف منها عالم الطبيعة سبع، وعدد أيام الأسبوع سبع، والأئمة الإسماعيليين سبعة، الخ. وهناك من مسايرة الاكتشافات العلمية من أجل إيجاد دلائل رقمية على وجود المعجزات وعصمة الأئمة، وبحوث في هذا الجانب لا تزيد على تسلية تشبه إلى حد ما لعبة الكلمات المتقاطعة، ولا تضيف شيئاً للعقائد الدينية والمذهبية، إن لم تهبط بها من برجها المتسامي.

(٢٠) عارف تامر، الأعداد ودلالتها، مجلة الموسم، العدد١٥، ١٩٩٣.

(٢١) الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة، ص.١٤٧

(٢٢) النشر في القراءات العشر،٢ ص.٣٠

(٢٣) إبدال كاف المؤنث أو كاف الخطاب عند الوقف سيناً، أو إلحاقها سيناً، أو هي إبدال كاف المذكر سيناً أو إلحاقها سيناً لتحقيق الفرق بين المذكر والمؤنث (هاشم الطعان، الأدب الجاهلي، ص ١٥٣.)

(٢٤) إبدال كاف المؤنثة شيناً، أو إلحاقها شيناً في الوقف، أو في الوقف والوصول معاً، ومن العرب من هذه الكاف بين الجيم والشين، وتنسب إلى ربيعة ومضر وحمير وأهل الشحر من قضاعة ومهرة، وتنسب لتميم وهوازن (المصدر أعلاه.) وقد سمعنا الكشكة على أرض الواقع، تلفظ باليمن، كقولهم: أحبش وأحب الجمل الحملش، بدلاً عن أحبكِ وأحب الجمل الذي حملكِ.

(٢٥) كنز العمال،٢٤٧٠٠/١

(٢٦) الأصول من الكافي،٢ ص٦١٩

(٢٧) معرفة القراء الكبار،١ ص. ٢٧٦نزهة الجليس ومنية الأنيس،٢ ص٤٣٢

(٢٨) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ص٧٧

(٢٩) معمر بن مثنى، من الموالي، قيل كان على مذهب الخوارج، وظل يصنف الكتب حتى وفاته عن عمر ناهز المائة، توفي السنة ٢١٦ أو٢١١ هـ (طبقات النحويين، ص ١٩٢.)

(٣٠) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ص٧٧

(٣١) أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن مسلم الكوفي، نزيل طرابلس الغرب، له مصنف في "الجرح والتعديل" هرب من الامتحان بخلق القرآن إلى طرابلس، وهناك أفتى بالكفر على القائلين بالخق، توفي السنة٢٦١ هـ (سير أعلام النبلاء،١٢ ص ٥٠٥.)

(٣٢) ابن برذويه بن ماهويه، نزيل الكوفة، كان والده مسبياً لدى ابن عباس، وكان أحد القراء، توفي السنة١٠٣ هـ (سير أعلام النبلاء،٤ ص ٢٧٩.)

(٣٣) معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار،١ ص٦٤-٦٣

الفصل العاشر

حمّال ذو وجوه

في ظاهرة التناقض بين آي القرآن ورد الحديث التالي: "القرآن ذو وجوه فأحملوه على أحسن وجوهه."[1] وقال علي بن أبي طالب لعبد الله بن عباس، وهو متوجه إلى مناظرة الخوارج: "لا تخاصمهم بالقرآن، فإن القرآن حمّال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنّة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً."[2]" ويشرح إبن أبي الحديد المعتزلي هذه الوصية بقوله: "إن القرآن كثير الاشتباه، فيه مواضع يظن في الظاهر أنها متناقضة متنافية، نحو قوله: لا تدركه الأبصار (الأنعام) ١٠٣/، وقوله: إلى ربها ناظرة (القيامة ٢٣)"[3].

الحديث والوصية، يشيران إلى وجود حالة من التضارب أو التناقض في النصوص، فكل طرف من الأطراف المختلفة، فكراً وسياسية، يجد ما يؤيد وجهة نظره ضد خصومه. فعلى سبيل المثال لا الحصر، أن مثبتي القدر ونفاته، ومثبتي الصفات ونفاتها، والقائلون بخلق القرآن أو أنه كلام الله القديم وجدوا آيات وظفوها ضد خصومهم، وسنأتي على تفصيل ذلك في باب خلق القرآن. ولعلّ تفسيراً مقبولاً لهذا التضارب نجده عند الباحث سيد محمود قمني، بقوله: "والمعلوم أنه عندما جمع المصحف زمن عثمان، رضي الله عنه، تم جمع كثير من الآيات المنسوخة إلى جوار الآيات الناسخة، وهذا الواقع الذي فرض إنشاء باب في النسخ بعنوان: ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته، وهو الواقع الذي أدى إلى ظهور كثير من الآيات بمظهر التضارب والتناقض، وليس الأمر يعود إلى واقع حدث الجمع، فالقرآن الكريم لا يحمل تناقضاً ولا تضارباً."[4] ويلغي سيد قمني عبارته المجاملة: لا "تناقض ولا تضارب" بين آي القرآن عندما يأتي بأربعة نماذج لهذا التناقض، نوردها كالتالي: التناقض بين الآيات المتعلقة بأهل الكتب ومنها: "وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله" (المائدة:٤٣) "وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه" (المائدة:٤٧) و"إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى

والصابيئين، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا يحزنون" (البقرة،٦٢،) مقابل: "من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه" (النساء،٤٦،) و"يحرفون الكلم عن مواضعه" (المائدة،١٣،) و"ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" (آل عمران،٨٥،) والتناقض بين الآيات المتعلقة بالحرية الدينية ومنها: "لكم دينكم ولي دين" (الكافرون،٦،) "لا إكراه في الدين" (البقرة،٢٥٦،) مقابل "أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً." ولعلّ الآية الأخيرة تحمل تفسيراً يجعلها لا تدين بشرك أهل الكتاب في الأقل. فالإسلام والحنفية كانا معروفين، قبل الرسالة المحمدية، في ديانات قديمة، ومنها الديانة المندائية، وكذلك الحنفية التي سبقت الإسلام، وأغلب الظن هي المندائية. فمن صلاة ودعاء الديانة المذكورة: "أيها المسلمون المؤمنون، وأيها المؤمنون والمسلمون لا تتراجعوا عن عهدكم الذي عاهدتم الله عليه"، ووردت في اللغة المندائية: "يا شلماني وأمهيمني، يا مهيمني وشلماني لاتيفخون من مملا لخون.[٥]" وينبأ القرآن الكريم عن إبراهيم: "ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.[٦]" والتناقض الآخر بين الآيات المتعلقة بالموقف من المشركين: "فإن تولوا فإنما عليك البلاغ (آل عمران، ٢٠)، و"إن أنت إلا نذير" (فاطر، ٢٣)، و"فاعفو عنهم واصفح" (المائدة، ١٣)، و"فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب" (الرعد، ٤٠)، مقابل: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله" (التوبة، ٢٩)، و"واقتلوهم حيث ثقفتموهم" (النساء، ٩١)، و"فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتهم فشدوا الوثاق" (محمد، ٤.) وقال سيد قمني، عن العلماء، معللاً بقاء المنسوخ: "وقد ذهب العلماء في تعليل ذلك إلى القول بأن بقاء المنسوخ هو من قسم المنسأ.[٧]" والمنسأ: "الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى.[٨]" وكان هذا جوهر التمايز بين السور المكية والمدنية.

الهوامش:

(١) ميزان الحكمة٨ ص١٠٢

(٢) نهج البلاغة "شرح محمد عبدة، وصية رقم ٣١٥ ص٦٢٢

(٣) شرح نهج البلاغة، دار مكتبة الحياة،٥ ص٢٥٠

(٤) الأسطورة والتراث، ص. ٢٧٠ولعلّ الباحث أضطر إلى العبارة، التي تتنافى مع حديث الرسول ووصية علي بن أبي طالب بسبب ما تعرض له بمصر من إرهاب فكري، وهو القائل في تصعيد الإرهاب: "إن المناخ السائد في مصر الآن الذي يشبه من جوانب كثيرة طالبان الأفغانية" (النبي موسى،١ ص ١٩.)

(٥) نصوص من الكنز الكبير، عن سليم البرزنجي، الصابئة المندائيون، ص٤٢

(٦) آل عمران٦٧/

(٧) الأسطورة والتراث، ص٢٧٢

(٨) المصدر نفسه،٢٧٢

الفصل الحادي عشر

حروف التهجي

وردت آراء عديدة في ظاهرة حروف التهجي في القرآن، وهي الحروف المقطعة التي وردت في أوائل تسع وعشرين سورة: "البقرة، آل عمران، الأعراف، يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر، مريم، طه، الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، يس، ص، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، ق، القلم.[1]" والحروف هي: ص، ق، ن، طس، يس، حم، الم، الر، طسم، المص، المر، كهيعص، حمعسق.

قال الزجاج: "فإجماع النحويين أنّ هذه الحروف مبنية على الوقف لا تعرب، ومعنى قولنا مبنية على الوقف، أنك تقدر أن تسكت على كل حرف منها.[2]" وقال أبو عبيدة والأخفش[3]: إنها افتتاح الكلام، "ودليل ذلك أن الكلام الذي ذكر قبل السورة قد تم.[4]" وقال قطرب[5]: إنها دلالة على تأليف القرآن منها "فجاء بعضها مقطعاً وجاء تمامها مؤلفاً ليدل القوم الذين نزل عليهم القرآن أنه بحروفهم التي يعقلونها لا ريب فيه.[6]" وقال الشعبي: إنها سر القرآن. وقال عبد الله بن عباس انها رموز ترمز إلى قسم الله، وعلمه، ورؤيته. وذكر القاضي الباقلاني ثمانية اقوال فيها[7]: الأول: أنها أسماء من أسماء القرآن، كالذكر والفرقان. والثاني: أسم لكل سورة ذكرت في أولها. والثالث: أنها أقسام أقسم بها الله تعالى. والرابع: يعبر بها عن أسم الله الأعظم. والخامس: أنها حروف مقطعة من أسماء وافعال، كقوله تعالى: أنا الله أعلم، الألف أنا، واللام من الله، والميم من أعلم. والسادس: أن كل حرف منها يدل على معان مختلفة، فالألف مفتاح أسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد. والسابع: أنها حروف من حساب الجمل. والثامن: أنها حروف هجاء، اعلم الله بها العرب حين تحداهم، أن تلاوة القرآن بحروف كلامهم.

وجاء في "رسائل أخوان الصفا" حول الأقوال السالفة الذكر: "أعلم أن كل

هذه الأقاويل مقنع لنفوس أقوام، وذلك أن في الناس أقواماً عقلاء لا يرضون بالتقليد، بل يريدون البراهين والكشف عن الحقائق وطلب العلة، ولم، وكيف، ولماذا؟ ولا يغنيهم من جوع ما يتأولون من التفسير في هذا المعنى، بل يطلبون وراء ذلك ما هو أحسن تأويلاً، وأبين تفسيراً."[8] ويطابق أخوان الصفا بين هذه الحروف ومكونات الطبيعة. نكتفي بذكر ما يخص جسم الإنسان والحيوان اللبون منها: "أن عددها مطابق لعدد ثمانية وعشرين خرزة هي في عمود ظهر الإنسان، منها أربعة عشر في أسفل الصلب، وأربعة عشر في أعلاه، وهكذا يوجد خرزات العمود التي في أصلاب الحيوانات التامة الخلقة، كما البقر والجمل والإبل والحمر والسباع، وبالجملة كل حيوان ترضع وتلد، منها أربعة عشر في مؤخر الصلب، وأربعة عشر في مقدم البدن."[9] ومن التفيسير الصوفي لحروف التهجي، قال محي الدين بن عربي عن مطلع سورة "البقرة": "الم": "أشار بهذه الحروف الثلاثة إلى كل الوجود من حيث هو كل، لأن (أ) إشارة إلى ذاك الذي هو اول الوجود على ما مرّ، و(ل) إلى العقل الفعال المسمى جبريل، وهو أوسط الوجود، الذي يستفيض من المبدأ ويفيض إلى المنتهى، و(م) إلى محمد الذي هو آخر الوجود، تتم به دائرته وتتصل بأولها، ولهذا ختم وقال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض."[10] ويفسر ابن عربي الحروف الأخرى على نفس المنوال، اي أنها عبارة عن رموز الذات الإلهية ومظاهرها. وأضاف الفضل بن الحسن الطبرسي، من مفسري الشيعة الإمامية في القرن السادس الهجري، على ما أورده القاضي الباقلاني قولين هما: أن المراد بها حروف المعجم، وقد استغنى بذكر ما ذكر منها عن ذكر الباقي كما يقال: أ، ب ويراد بها جميع الحروف. وأنها تسكيت الكفار، لأن المشركين كانوا تواصوا فيما بينهم أن لا يستمعوا للقرآن، فربما صفروا وربما صفقوا وربما غلطوا فيه ليّغلّطوا النبي، صلى الله عليه وسلم، في تلاوته، فأنزل الله تعالى هذه الحروف فكانوا إذا سمعوها استغربوها، واستمعوا إليها، وتفكروا فيها، واستشغلوا بها عن شأنهم فوقع القرآن في مسامعهم.[11] ويبدو القول الأخير هو المقبول

والعملي من بين الأقاويل العشرة التي ذكرها الطبرسي. لكن محمد حسين الطباطبائي، بقوله "والحق أن شيئاً من هذه الأقوال لا تطمئن إليه النفس(١٢)"، أختار أسهل الطريق وذلك بإحالتها إلى عالم الغيب ورد ذلك بقوله: "إن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه وبين رسوله، صلى الله عليه وسلم، خفية عنا، لا سبيل لإفهامنا العادية إليها، إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها وبين المضامين المودعة في السور ارتباطاً خاصاً (...) ولعل هذا معنى ما روته أهل السنّة عن علي، عليه السلام، أن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي.(١٣)" وبهذا زاد الأمر غموضاً وتعقيداً. ويضيف أحد الباحثين تفسيراً عرفانياً غامضاً، نسبه للإمام جعفر الصادق، دون الإشارة إلى إسناد تاريخي، ورد فيه: "الحروف المقطوعة في القرآن إشارات إلى الوحدانية، والفردانية، والديمومية، وقيام الحق بنفسه بالاستغناء عما سواه.(١٤)" ويرى بعض الكُتّاب، من هو ليس على وئام مع الإسلام، أن مصدر حروف التهجي، أو الحروف المقطعة هي اللغة الآرامية، وكانت معروفة في الكتاب المقدس في فواتح النبوءات عند الأنبياء السابقين وهي اللهجة الآمرة الناهية. أورد مثل ذلك الياس المرّ بقوله "إذا رجعنا إلى اللهجة الآمرة التي استعملها القرآن، والتي شابهت اللهجة في التوراة، تكوين وعدد وتثنية، تؤكد أن الم هي ترجمة للحروف الأولى (أمر لي مريو) أي "أمر لي الرب أن أقول كذا وكذا.(١٥)" وعند التطبيق تصبح "الم ذلك الكتاب" أي أمر لي الرب أن ذلك الكتاب لا ريب فيه، وكذا بالنسبة لفواتح السور الأخرى التي تفتتح بـ(الم) وهي: البقرة، وآل عمران، والروم، والعنكبوت، ولقمان، والسجدة. ويذكر الكاتب نفسه "أن المسيحيين كانوا يستخدمون كلمة (كهيعص) للتعارف فيما بينهم بعد أن لوحقوا وعذبوا وشردوا، وذلك لأنها تمثل عددياً كلمتي: "المسيح إلهي.(١٦)" ولا ندري، إذا كان في الحديث النبوي التالي دليل على ما ذهب إليه الكاتب المذكور: "أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى.(١٧)"... ولنتعامل مع المصدر المشار إليه بما تتطلبه الأمانة العلمية، فنقول: هل أعتبر المسيحية نحلة يهودية؟ أو نحلة مندائية كما

تدل على ذلك دلائل عديدة؟ فالعلائق بين الأديان موجودة، وليس هناك دين صافٍ على الإطلاق. وعلى أية حال، لم يتنكر المسلمون لما ورد في القرآن الكريم من قصص وتشريعات ونصوص من الكتب الأخرى، وهي التوراة والإنجيل، مع ما دخل عليها من تغيير. ففي التكوين والخليقة وردت الفكرة عند السومريين كالتالي: "بعد أن أبعدت السماء عن الأرض، وفصلت الأرض عن السماء، وتم خلق الإنسان، وأخذ (آن) السماء، وأنفصل (أنليل) بالأرض.[١٨]" وورد في التوراة: "وصنع الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وسمى الله الجلد سماء، وكان مساء وكان صباح: يوم ثان، وقال الله: لتتجمع المياه التي تحت السماء في مكان واحد وليظهر اليبس، فكان كذلك، وسمى الله اليبس أرضاً.[١٩]" وورد في "القرآن": "أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلاً لعلهم يهتدون، وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون.[٢٠]" إذا كان هذا التوافق موجوداً كواقع حال بين الأديان في نشأة الكون فما المانع من تأثر بعضها ببعض في موضوع حروف التهجي مثلاً؟

وفي تفسير هذه الحروف أورد بهاء الدين الوردي في كتابه "حول رموز القرآن الكريم[٢١]"، مستفيداً من معاجم قديمة، معاني محددة لحروف التهجي القرآنية، وهي كالتالي: الم: هاكم الكلمات الإلهية. حم: الكلمات السماوية. طه: حبيب الله. المص: الكلمات الإلهية الحقيقية. كهيعص: ها هي الكلمات الإلهية اساس السعادة. المر: ها هي الكلمات الواضحة كالشمس. الر: ها هن الكلمات الإلهية واضحة كالشمس. عسق: كلمات النبي الأصيلة. طس: النبي الحبيب. طسم: كلام يعلنه النبي الحبيب. ق: أعلن الكلام. ن: بالحقيقة. يس: نبي الله، القمر الساطع.

وبالتطبيق، تظهر قراءة الآيات كالتالي: "الم" هاكم الكلمات الإلهية (ذلك الكتاب لا ريب فيه) "البقرة". (الم) هاكم الكلمات الإلهية (الله لا إله إلا هو الحي

القيوم) "آل عمران".(الم) هاكم الكلمات الإلهية (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) "العنكبوت". (الم) هاكم الكلمات الإلهية (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيَغلبون) "الروم". (الم) هاكم الكلمات الإلهية (تلك آيات الكتاب الحكيم) "لقمان". (الم) هاكم الكلمات الإلهية (تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) "السجدة". (حم) الكلمات السماوية (تنزيل من الرحمن الرحيم) "فصلت". (حم) الكلمات السماوية (والكتاب المبين، إنا جعلناه قرآناً عربياً) "الزخرف". (حم) الكلمات السماوية (والكتاب المبين، إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين) "الدخان". (حم) الكلمات السماوية (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) "الجاثية". (حم) الكلمات السماوية (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) "الأحقاف". (طه) حبيب الله (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) طه. (وطه حسب قاموس "حول رموز القرآن الكريم": "اسم إله، وعند السامريين انتظار مسيح اسمه طاهاب، وعند الهنود الحمر هناك إله اسمه طاهايو". المص) ها هي الكلمات الإلهية الحقيقية أو الساطعة أو الصحيحة (كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين) "الأعراف". (ص) الساطع أو الصادق (والقرآن ذي الذكر) "ص". (كهيعص) ها هي الكلمات الإلهية أساس السعادة (ذِكر رحمة ربك عبده زكريا) "مريم". (المر) ها هي الكلمات الواضحة كالشمس (تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) "الرعد". (الر) ها هن الكلمات الإلهية واضحة كالشمس (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) "هود". (الر) ها هن الكلمات الإلهية واضحة كالشمس (تلك آيات الكتاب الحكيم) "يونس". (الر) ها هن الكلمات الإمية واضحة كالشمس (تلك آيات الكتاب المبين) "يوسف". (الر) ها هن الكلمات الإلهية واضحة كالشمس (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) "إبراهيم". (الر) ها هن الكلمات الإلهية واضحة كالشمس (تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) "الحجر". (حم) الكلمات السماوية (عسق) كلمات النبي الأصيلة (كذلك يوحى إليك وإلى

الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) "الشورى".(طس) النبي الحبيب (تلك آيات القران وكتاب مبين) "النمل". (طسم) كلام يعلنه النبي الحبيب (تلك آيات الكتاب المبين) "الشعراء". (ق) أعلن الكلام (والقرآن المجيد، بل أعجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب) "ق". (ن) الحكمة أو العقل أو العلم (والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون) "القلم". (يس) نبي الله أو إله، أو القمر الساطع (والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين) "يس".)

لا شك، أن هناك انسجاماً ما بين معاني عدد من الحروف والآيات المذكورة، ولكن لو طبقت هذه الحروف على نصوص أخرى من آيات القرآن وغيرها من النصوص لوردت منسجمة أيضاً، والسبب أنها معان عامة غير مختصة. فليس هناك ما يمنع من تعميمها على كلام آخر. ولعلّ تناسقها كان مع عدد قليل من السور، منها على سبيل المثال سورة "طه". "كذلك لم تكن عبارة" أمر لي الرب أن أقول "متناسقة بالمعنى مع كل الآيات التي عقبتها. فهي الأخرى عمومية، وقد لا ترفض في سياق أي كلام آخر، مع ما فيها من معنى كبير، ويعبر عن غاية محددة ومقبولة عقلياً.

بعد التعرف على اجتهادات المهتمين في عالم حروف التهجي، أو فواتح الآيات، تبدو علاقتها بالأرقام هي المفتاح إلى حقيقتها. وفي هذا الأمر، أفادني مختصون في تاريخ اللغات بأن اللغة العبرية والسريانية وغيرها من اللغات الشرقية لا توجد فيها أرقام بل يرمز لها بالحروف، مثلها مثل اللاتينية. ووفقاً لذلك عبرت الحروف المذكورة عن أرقام، منها ما أشار إلى تاريخ محدد. وبما أن الأمر لم يكن مألوفاً لدى قريش، كما في الآيات القرآنية، فكان القصد من استخدامها في القرآن، على حد تفسير الطبرسي، "تسكيت للكفار"... نرى هذا الرأي مقبولاً، وليس بالضرورة أن يكون لها معنى معين من المعاني التي وردت أعلاه. وأرى أن تبرير الذين فسروا هذه الحروف بقولهم "الله أعلم بمراده"[٢٧]"، أنها لو لم تنسب إلى الغيب لأصبح وجودها كما قال الطبرسي، القصد منه هو الإبهام. فالرمزية الرقمية تعطي مكانة خاصة للحروف، بما فيها من إبهام في المعنى والدلالة،

استخدمت في السحر، والإيهام بفعل ما هو عجيب. فعند عرض الأرقام كحروف تبدو طلاسم[٣٣] لا يقرأها إلا أصحاب الخوارق. لكن ذلك لا يعني أن اللغات التي استخدمت فيها الحروف رموزاً للأرقام كان كل أرقامها طلاسم. فما زال يشار بالحرف اللاتيني إلى تأريخ ملحمة أو بوابة تاريخية بما في ذلك من رمزية تشير بعمق إلى مكانة المكان. فالرقم الحرفي (MDCCCCX) المنقوش على واجهة إحدى بوابات لندن التي تفضي إلى القصر الملكي (بكنجهام بلاس) لا يلفت النظر، ولا يعبر عن معنى غير حساب السنين إن نقش بالأرقام.

وفي العربية تظهر رمزية الحروف الرقمية كالتالي: (أبجد) ويقابلها من الأرقام حسب الترتيب: (١، ٢، ٣، ٤،) و(هوز): (٥، ٦، ٧،) و(حطي): (٨، ٩، ١٠،، و(كلمن): (٢٠،٣٠،٤٠،٥٠،) و(سعفص): (٦٠، ٧٠، ٨٠،٩٠،) و(قرشت): (١٠٠، ٢٠٠، ٣٠٠، ٤٠٠،) و(ثخذ): (٥٠٠، ٦٠٠، ٧٠٠،) و(ضظغ): (٨٠٠، ٩٠٠، ١٠٠٠).

وعن تفسير فسر حروف القرآن المقطعة كحساب للجمل وتسجيل للتاريخ، ورد في رواية مرفوعة إلى عبد الله بن عباس، قال: "مر أبو ياسر (إبن أحطب اليهودي) والرسول يتلو فاتحة الكتاب، وسورة البقرة (الم ذلك الكتاب) فأتاه أخوه حيي بن أحطب فأخبره، فقال حيي وأقبل على اليهود، فقال لهم: الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، وهذه أحد وسبعون سنة. ثم ذهب حيي مع هؤلاء النفر إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال لرسول الله: فهل معك غير هذه؟ قال نعم: المص، قال: أثقل وأطول، والألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه أحد وستون ومائة سنة. ثم قال: هل معك غير هذه يا محمد؟ قال: نعم: ماذا؟ قال: المر، فقال: هذه أثقل وأطول، الألف واحد، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتان سنة "إلى آخر الرواية".

الهوامش:

(١) عبد المنعم السيد حسن، ظاهرة التكرار في القرآن الكريم ص ١٣٧

(٢) معاني القرآن وإعرابه،١ ص٥٩

(٣) ابو الحسن بن سليمان بن الفضل، قدم مصر ثم رحل عنها إلى حلب ثم نزل بغداد حتى وفاته السنة٣١٥ هـ (طبقات النحويين واللغويين، ص ١٢٥.)

(٤) معاني القرآن وإعرابه، ص٥٥

(٥) محمد بن المستنير النحوي البصري، من الموالي، عده الزبيدي من طبقة النحويين البصريين السابعة (طبقات النحويين واللغويين، ص ١٠٦.)

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٦

(٧) الإنصاف، ص١١١-١١٠

(٨) رسائل أخوان الصفا وخلان الوفاء، الرسالة التاسعة، ص١٣٨

(٩) المصدر نفسه، ١٤٠-١٣٩

(١٠) محي الدين بن عربي، تفسير القرآن الكريم،١ ص١٣

(١١) مجمع البيان في تفسير القرآن،١ ص١١٢-١١٢

(١٢) الميزان في تفسير القرآن،١٨ ص ٧

(١٣) المصدر نفسه، ص٩

(١٤) علي زيعور، التفسير الصوفي للقرآن عن الصادق، ص١٣١

(١٥) الإسلام (نحلة نصرانية)، ص٢١٧

(١٦) المصدر نفسه

(١٧) كنز العمال،٢٥٢٨/١

(١٨) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص٢٤

(١٩) الكتاب المقدس، سفر التكوين١/

(٢٠) الانبياء ٣٢-٣٠ /

(٢١) حول رموز القرآن الكريم، ص٦٩-٥٩

(٢٢) ظاهرة التكرار في القرآن الكريم، ص١٣٦، عن تفسير الجلالين

(٢٣) الطلسم مفردة يونانية وردت في القاموس بمعنى "خطوط أو كتابة يستعملها الساحر ويزعم أنه يدفع بها كل مؤذٍ."

(٢٤) الإنصاف، ص١١١

الفصل الثاني عشر

الإعجاز

أتفق علماء ونحاة العربية أن القرآن كان معجزاً لغوياً، وأن جوهر هذا الإعجاز هو تحدي العرب في بيانه وفصاحته، وهم أهل ذلك، في أن يأتوا بمثله. ومع ذلك، كان لبعض شيوخ المعتزلة رأي آخر، سنأتي على ذكره لاحقاً. وما يزيد تلك المعجزة قوة أن النبي محمد كان أمياً، بمعنى لا يقرأ ولا يكتب، وهذا ما يجهد الاخباريون في تأكيده، ويحاول المعاصرون في إشهاره حجة ودليلاً. لكن هناك من يفسر كلمة الأمي بأنه ينحدر من أم القرى وهي مكة، لا من جهله بالقراءة والكتابة. وفي هذا المجال، قال علي بن محمد الطباطبائي - من أعيان القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي - في كتابه "القضاء" راوياً عن الإمام محمد الجواد: "ففي مجمع البحرين عن كتاب بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار في باب أن رسول الله (ص) كان يقرأ ويكتب بكل لسان بإسناده إلى جعفر بن محمد الصوفي، قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الرضا يا ابن رسول الله لم سمي النبي (ص) الأمي؟ قال: ما يقول الناس؟ قلت: يزعمون إنما سمي أمي لأنه لم يقرأ ويكتب، فقال: كذبوا عليه لعنهم الله، أنى يكون ذلك، والله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه: هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. فكيف يعلمهم مالا يحسن؟ والله لقد كان رسول الله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين لساناً، وإنما سمي أمي لأنه كان من أهل مكة، ومكة من أمهات القرى، وذلك قوله تعالى في كتابه: أنذر أم القرى ومن حولها."[1] إن وجاهة الرسول الشخصية والأسرية، وعمله في التجارة بين الحجاز والشام تؤيد ما ورد في هذه الرواية، مع علمنا أن أقرب المحيطين به، مثل أبي بكر وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، كانوا يقرأون ويكتبون. وكيف كان الرسول أمياً وهو محط عناية جده عبد المطلب ثم عمه أبي طالب. وقبل الحديث عن محاولات معارضة القرآن، نعرج قليلاً على ما سبق

القرآن من أشعار ونصوص، قالها من عرفوا بالأحناف، وكان أمية بن أبي الصلت أبرزهم في هذا المجال. وهو الذي رفض الدخول بالإسلام، وظل يترقب أن يكون نبياً في يوم ما، وبعد شيوع الإسلام أعتكف بالطائف حتى وفاته. فمن هو أمية وما صلته بالأمر؟ يتصل نسب أمية بآل عبد مناف من طرف أمه، فهي "رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف[1]"، أما أبوه فثقفي النسب والمحتد. وعندما سأله أبو سفيان بعد ظهور النبي محمد ما يمنعه من إتباعه، رد قائلاً: "ما يمنعي إلا الاستحياء من نساء ثقيفه أني أحدثهن أني هو، ثم يرينني تابعاً لغلام من بني عبد مناف.[2]!" وذكر ابن كثير رواية مرفوعة إلى نافع بن عاصم بن مسعود[4] وآخرين، قال: "قرأ رجل من القوم الآية التي في الأعراف: وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين (الأعراف، ١٧٤) فقال: هل تدرون من هو؟ فقال بعضهم: هو صيفي بن الراهب، وقال آخر: بل هو بلعم[5] رجل من بني إسرائيل. فقال: لا، قال: فمن؟ قال: هو أمية بن أبي الصلت[6]" وقال صاحب "الأغاني": "كان أمية بن أبي الصلت قد قرأ كتاب الله عز وجل الأول (التوراة) فكان يأتي في شعره بأشياء لا تعرفها العرب، فمنها قوله: قمر وساهور يسل ويغمد، وكان يسمي الله عز وجل في شعره السلطيط، فقال: والسلطيط فوق الأرض مقتدر، وسماه في موضع التغرور، وقال ابن قتيبة: وعلماؤنا لا يحتجون بشيء من شعره لهذه العلة.[7]" وقال ابن عساكر عنه: "شاعر جاهلي قدم دمشق قبل الإسلام، وقيل إنه كان نبياً، وأنه كان في أول أمره على الإيمان ثم زاغ عنه.[8]" وورد في رواية تحنفه وتوقه إلى النبوة أنه "نظر في الكتب وقرأها، ولبس المسوح تعبداً وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنفية، وحرم الخمر، وشك في الأوثان، وكان محققاً، والتمس الدين وطمع بالنبوة، لأنه قرأ في الكتب أن نبياً يبعث من العرب، فكان يرجو أن يكون هو. قال: فلما بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، قيل له هذا الذي كنت تستريث[9] وتقول فيه، فحسده عدو الله، وقال: إنما كنت أرجو أن أكونه، فأنزل الله فيه عز وجل: وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها. قال: وهو القائل:

كل دين يوم القيامة عند

الله إلا دين الحنفية زور[10]"

والبيت من قصيدة منها:

إن آيات ربنا ثاقبات

لا يماري فيهن إلا الكفور

خلق الليل والنهار فكل

مستبين حسابه مقدور

ثم يجلو النهار رب رحيم

بمهاة شعاعها منشور

وقال موحداً:

وإياك لا تجعل مع الله غيره

فإن سبيل الرشد أصبح باديا[11]"

وكذلك للأحناف الآخرين أشعار ونصوص تحث على التوحيد والوعد بالجنة والوعيد بالنار. فذكرت الروايات نبوة خالد بن سنان العبسي قبل الإسلام. قال المسعودي: ذكره النبي فقال": ذلك نبي أضاعه قومه (...) وأتت أبنته رسول الله، صلعم، فسمعته يقرأ: قل هو الله أحد الله الصمد، فقالت: "كان أبي يقول هذا.[12]" وذكر علي بن محمد بن عبد الله الفخري خالد بن سنان في سياق حديثه عن نبوة (زرادشت)[13]: "وقد أختلف العلماء في نبوته كالخضر ولقمان وخالد بن سنان.[14]" وذكر أبو حيان التوحيدي أن لخالد بن سنان "دعواه[15]"، وورد ذلك في سياق نص أدبي.

ويلفت نظرنا حسين مروة إلى طامح آخر بالنبوة، من غير المعروفين، وهو سويد بن الصامت، الذي كانت له آيات وصحيفة، ولقاء مع الرسول عند حجه إلى الكعبة قبل الإسلام. وكان قومه يدعونه بالكامل، ولنتذكر ما يفترض أن يتوفر بالأنبياء، قبل هبوط الوحي عليهم، من كمال خلقي يضرب فيه المثل. ذكر مروة أنه من "المجهولين في الرواية التاريخية.[16]" صحيح أن أغلب التواريخ

عزفت عن ذكره إلا أن ابن هشام يذكره بتفاصيل وافية، رواية عن كاتب السيرة الأول ابن إسحاق، بقوله:

"قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجاً أو معتمراً، وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم الكامل لجلده وشرفه ونسبه(...) فتصدى له رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعلَّ الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان، يعني حكمة لقمان، فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أعرضها عليَّ؟ فعرضها عليه، فقال له: إن هذا لكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليَّ هو هدى ونور، فتلا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا لقول حسن، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتلته الخزرج، فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم، وكان قتله قبل يوم بعاث."[١٧] ومن شعره الديني:

"الا رُبَّ من صديق ولو ترى
مقالته بالغيب ساءك ما يفرى
مقالته كالشهد ما كان شاهداً
وبالغيب مأثورٌ على ثغره النحر[١٨]"

وروى ابن عساكر، المتأخر على ابن هشام بحوالي ثلاثة قرون، أن "أمية بن أبي الصلت[١٩]" هو الذي طلب مناظرة الرسول، لا صاحب مجلة لقمان سويد بن الصامت كما روى ذلك صاحب السيرة. ومن محاولات مضاهاة القرآن، كانت النصوص التي نسبت إلى مسيلمة بن حبيب الحنفي، الذي عرف بالمصادر الإسلامية بـ"الكذاب" فالمصادر قللت من شأنه كثيراً، بسبب حرب اليمامة. ومن ذلك ما قاله الباقلاني: "وأما كلام مسيلمة الكذاب وما زعم أنه من قرآن، فهو أخس من أن نشتغل به، وأسخف من أن نفكر فيه. وإنما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارئ، ولتبصر الناظر. فإنه على سخافته قد أضل، وعلى ركاكته قد أذل، وميدان الجهل واسع، ومن نظر فيمن نقلناه عنه، وفهم موضع جهله، كان

جديراً، أن يحمد الله على ما رزقه من فهم، وأتاه من علم.[٢٠] لكن الأخبار تؤكد أن مسيلمة كان من الأحناف، قبل الإسلام، وأن له صلة بالنبي محمد قبل النبوة وبعدها، وورد ذلك في إشارة ابن كثير إلى قول قريش للرسول: "فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن (مسيلمة)، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً."[٢١] ولعلّ كلام مسيلمة: "لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون"[٢٢] يشير إلى تلك العلاقة، بل والتنسيق بين حنيفة وقريش. لذا بعد ما إليه الأمر في السقيفة، وأعلنت أحقية قريش في الخلافة كان ردة فعل قوية من جانب حنيفة وقائدها مسيلمة وتميم وقائدتها سجاح، وكان ذلك خطراً قوياً هدد قريش.

ومع ما يراه باحثون عديدون أن الرواية التاريخية كانت منحازة جداً، لأن التاريخ يكتبه المنتصرون، فهزات بحنيفة وقائدها وأظهرتهم بصور مهلهلة. ويظهر تناقضها عندما تُذكر مظاهر الاستعداد للقتال، وتمجيد خالد بن الوليد قائداً، وتذكر القتلى من قريش وأطرافها بخلق كثير، وتمحو ذنب وحشي قاتل الحمزة بمعركة أحد، عبد من عبيد آل سفيان، بقتله مسيلمة. ولا بد من القول أن حرب اليمامة ما كانت ردة عن الإسلام بل أن قيادة قريش بعد إسلامها دفعت المسلمين الآخرين إلى اتخاذ مثل هذه المواقف. ومن تفاصيل أمر مسيلمة ذكرت الروايات أنه قدم مع وفد بني حنيفة على الرسول، وأعلن إسلامه، وهناك منْ يدعي أنه طلب من الرسول شراكته بالأمر. وعلى أية حال، ارتد بعد وفاة الرسول، أو أمتنع عن دفع الزكاة إلى قريش، أو أنه ضاق من احتكار قريش للسلطة، واليمامة بلاد وافرة الخيرات، فكل الاحتمالات واردة. لكن ما أهمله الباحثون في تلك الصراعات أن تتصدر أمرأة، وأعني بها سجاح قومها، وتلعب دوراً غير متوقع في الزمان والمكان، فبغض النظر عن الطرف الذي مثلته في تلك الصراعات، لكنها تبقى أنثى في مجتمع ذكوري، كانت المرأة فيه حصة من الميراث، وقبل بضعة سنوات كان الوأد يطولها. وهناك من الباحثين من يرى في مسيلمة قائداً لقومه في حرب ضروس مع قريش فلا يمكن أن يكون بالحالة التي وصفه فيها التاريخ الإسلامي. "إذ لا يعقل أن يسيطر على قبيلتين كبيرتين (بني حنيفة وتميم) ويدفع افرادهما إلى بذل تلك التضحيات الجسام، ويكبد أعداءه

تلك الخسارات الفوادح، أن يكون بتلك الصورة المزرية.[٣٣]" وقد زعم "نزل عليه من السماء": "والليل الأطحم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت اسيد من محرم (...) والليل الدامس والذئب الهامس، ما قطعت اسيد من رطب ولا يابس (...) والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، أنه لعجب محض، وقد حرم المذق، فما لكم تجتمعون (...) ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدّرين. لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون (...) والمبيدات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً. لقد فضلتم أهل الوبر، وما سبقكم اهل المدر، ريفكم فمنعوه، والمعتّر فأووه، والباغي فناوئوه.[٣٤]" وانتهت هذه المضاهاة بحرب اليمامة، وقتل مسيلمة، وهي الحرب التي فقدت فيها قريش حوالي سبعين حافظاً للقرآن. إن خسارة الحفاظ وجرأة مسيلمة في مضاهاة القرآن قد عجلتا بجمعه وتوحيد نسخه.

نعود إلى إعجاز القرآن، وما هو المعجز منه، ونبدأ بما حدده أبو الحسن الأشعري بقوله: "إن أقل ما يعجز عنه من القرآن السُورة، قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها. قال: إذا كانت الآية بقدر حروف سورة، وإن كانت سورة الكوثر، فذلك معجز، ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا العدد.[٣٥]" وذهبت المعتزلة: إلى أن كل سورة براسها فهي معجزة. وقد حكي عنهم نحو قولنا (الأشاعرة) إلا أن منهم منْ لم يشترط كون الآية بقدر السورة، بل شرط الآيات الكثيرة.[٣٦]" وخلاف الاتفاق على المعجز اللغوي في القرآن، نقل ابن الراوندي وعبد القاهر البغدادي، أحد فقهاء ومؤرخي الملل والنحل من أهل السنَّة، رأياً لإبراهيم النظام وهشام الفوطي وعباد بن سليمان، و عيسى المردار، جاء فيه": أن نظم القرآن وحسن تأليفه كلماته ليس بمعجزة للنبي عليه السلام، ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الأخبار والغيوب. فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإن العباد قادرون على مثله، وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف.[٣٧]" واعترف أبو القاسم البلخي، وهو من كبار شيوخ الاعتزال في القرنين الثالث والرابع

الهجريين، مقالة النظام في إعجاز القرآن بقوله: "إن الحجة في القرآن، إنما هو ما فيه من الإخبار عن الغيوب لا النَّظم والتأليف، لأن النَّظم عنده مقدور عليه لولا أن الله منع منه."[٢٨] كما اعترف أبو الحسين الخياط، وهو من أئمة الاعتزال في القرن الثالث الهجري وأستاذ أبي القاسم البلخي* في دفاع عن إبراهيم النظام: "إن القرآن حجة للنبي عليه السلام على نبوته عند إبراهيم من غير وجه، فأحدها ما فيه من الأخبار عن الغيوب."[٢٩] أما عن الإعجاز العلمي الذي يحاول الباحثون المعاصرون تأكيده بشتى الطرق، فهو لا يرقى إلى مستوى كتاب ديني له مكانته بين معتقديه، وبهذه الطريقة جعلوا من القرآن كتاباً علمياً، فيه الفيزياء والفلك والرياضيات، والطب، والهندسة، والبايولوجي، وعلوم اجتماعية منها الاقتصاد ودراسات المجتمع، وما سيخترع وسيكتشف مستقبلاً.

إن القرآن كتاب فيه خطوط عامة مقدسة، وإقحامه في معمعة العلوم والنظريات الخاصة يؤدي إلى نزوله إلى ما هي فيه من اختلاف وكر وفر. كذلك من الصعب جمع نظرية اقتصادية أو اجتماعية قرآنية، لأن النظرية بحد ذاتها هي فكر وأيديولوجيا، تتطور بزيادة ونقصان، أما القرآن فهو من الثوابت، مع ما يتغير حوله من أفكار اقتصادية واجتماعية. وعلى ضوء ما ورد بالقرآن وتبناه المعتزلة فإن الله وهب الإنسان العقل، ومن خلاله يصلح حاله، في بناء نظامه الاجتماعي المناسب، فأي نظرية هذه التي سيقبلها العالم بأجمعه، وتصلح لكل مكان وزمان؟ فالله لا يفكر بدلاً عن الإنسان، والذين يقولون هذا لم يدركوا ما هو الله، لذا لا يتخيلونه إلا بمثال الملك ورعيته. وهذا ما حارب المعتزلة من أجل إلغائه بمبدئهم المشهور: نفي الصفات.

الهوامش:

(١) كتاب القضاء، مخطوط (تاريخ التأليف ٢٧: صفر ١١٩٢ هـ)

(٢) ابو فرج الأصبهاني، الأغاني،١ ص١٧٩

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية،١ ص١٢٠

(٤) الثقفي، تابعي روى عنه عبد بن عمرو بن العاص، والبخاري والنسائي، وصف بالثقة (المزي، تهيب الكمال،١٩ ص ٢٠.)

(٥) حسب رواية المسعودي: هو بلعم بن باعور، كان بقرية البلقاء من بلاد الشام، وكان

مستجاب الدعوة، فحمله قومه إلى الدعاء على يوشع بن نون فلم يأت له. وقيل كان هو المقصود بالآية "فانسلخ منها" لا أمية بن الصلت، كما تقدم ذكر ذلك (مروج الذهب ومعادن الجوهر،١ ص٥٧.) ولماذا لا يكون الاثنان أو أي شخص آخر ينطبق عليه المعنى؟

(٦) ابن كثير، السيرة النبوية، ص١٣٢

(٧) الأغاني،١ ص١٨٠

(٨) تاريخ مدينة دمشق،٩ ص٢٥٥

(٩) الريّث الإبطاء، واستراث استبطأ (القاموس المحيط)، ولعلّ "هذا الذي كنت تستريث" بمعنى الأمر الذي كنت تنتظره وهو النبوة.

(١٠) الأغاني،١ ص١٨٠

(١١) سيرة ابن هشام،١ ص٥٣، ٢٠٩ . وهناك أخبار كثيرة تناقلتها كتب السيرة النبوية. ذكر إبن كثير ان الرسول قال لأخته فارعة بنت أبي الصلت: "يا فارعة إن مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ عنها." وكان الرسول يسمع أشعاره. وورد أيضاً: "قال عمر بن الشريد: كنت ردفاً مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال لي: أمعك شعر أمية بن أبي الصلت؟ قلت نعم، قال: فانشدني بيتاً، فانشدته بيتاً فلم يزل يقول لي كلما انشدته بيتاً: إيه، حتى أنشدته مائة بيت، قال: ثم سكت النبي وسكتُّ"، وقال الرسول بعد وفاته: "إن كاد يسلم"، وقال أيضاً: "آمن شعره وكفر قلبه." وفي رواية مرفوعة إلى عبد الله بن عباس: "أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، صدق أمية في شيء من شعره:

رجلٌ وثور تحت رجل يمينه
والنسر للأخرى وليث مرصدٌ
والشمس تبدو كلّ آخر ليلة
حمراء يُصبح لونُها يتوردُ
تأبى فما تطلع لنا في رسلها
إلا معذّبة وإلا تجلدُ

ولعلّ أبا الفداء حين يأتي مباشرة في الرواية العجيبة التالية، قصد إلى أنه من وحي هذه الأبيات. ورد عن عبد الله بن عباس: "أن الشمس لا تطلع حتى ينخسها سبعون ألف ملك، يقولون لها: أطلعي اطلعي. فتقول لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله، فإذا همت بالطلوع أتاها شيطان يريد أن يثبطها فتطلع بين قرنيه وتحرقه، فإذا تضيّفت للغروب عزمت لله عز وجل، فيأتيها شيطان يريد أن يثبطها عن السجود، فتغرب بين قرنيه وتحرقه" (السيرة النبوية، ص. ١٣٨)، ومن شعره الديني، أو المديح الإلهي، برواية الأصمعي (السيرة النبوية، ص: ١٣٩):

مجدوا الله فهو للمجد أهلٌ
ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء الأعلى الذي سبق الـ

ناس وسوّى فوق السماء سريرا

شرجعاً ما يناله بصر العيو

ن ترى دونه الملائك صورا

ومن شعره في المديح الإلهي أيضاً، وأشار فيه إلى حملة عرشه تعالى، قوله:

فمن حامل إحدى قوائم عرشه

ولولا إله الخلق كلّوا وابلدوا

قيام على الأقدام عانون تحته

فرائصهم من شدة الخوف ترعد

(١٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر،١ ص. ٧٦-٧٥

وهناك اخبار وافية عن شخصية خالد بن سنان ونبوته، ذكرت في غير مكان. ومن ذلك يذكر له معجزات في اطفاء نار المجوس باليمن، ونقل عنه أنه قال للنار بالرموز: "بدا بدا كل هدى مود إلى الله الأعلى لادخلنها وهي تتلظى ولأخرجن منها وثيابي تندا." ولا نجده يختلف بشيء، عن الذين كانوا ينتظرون الوحي، مثل امية بن أبي الصلت، و زيد بن عمرو بن نفيل، لكنه مات قبل ظهور النبي محمد لذا ذكرته المصادر الإسلامية بخير. وفي مكان أخر من كتاب "مروج الذهب" يروي المسعودي بخبر مرفوع إلى عبد الله بن عباس، قال فيه: "وردت أبنة له عجوز قد عمرت على النبي صلعم فتلقاها بخير، واكرمها، فأسلمت وقال لها: مرحباً بأبنة نبيٍّ ضيعه أهله."

وفيه قال شاعر عبس:

بني خالد لو أنكم إذ حضرتم

نبشتم عن الميت المغيب في القبر

لأبقى لكم في آل عبس ذخيرة

من العلم لا تُبلى إلى آخر الدهر

(١٣) قال الفخري بعد اسم زرادشت عبارة: عليه السلام، وعلى حد علمي هذا غريب الحدوث في المباحث الإسلامية.

(١٤) تلخيص البيان في ذكر فرق أهل الاديان، ص٢٢١

(١٥) الإمتاع والمؤانسة،١ ص. ٥٩، ويفهم من عبارة دعواه أنه كان نبياً، أو متنبياً.

(١٦) النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية،١ ص.٣١٨

(١٧) ابن هشام، سيرة النبي،٢ ص٣٤

(١٨) المصدر نفسه

(١٩) تاريخ دمشق،٩ ص٢٨٦

(٢٠) إعجاز القرآن، ص٢٣٩

(٢١) بو علي ياسين، الثالوث المحرم، ص١٢٧، عن مختصر السيرة، ص٨٢

(٢٢) أعجاز القرآن، ص٢٣٩

(٢٣) خليل عبد الكريم، دولة يثرب، ص١٥٩

(٢٤) إعجاز القران، ص٢٣٩

(٢٥) المصدر نفسه،٢٨٦

(٢٦) المصدر نفسه

(٢٧) فضيحة المعتزلة، ص٢٨، مقالات الإسلاميين، ص٢٢٥، الفرق بين الفرق، ص ١٢٨

(٢٨) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص٧٠

(٢٩) الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد، ص٢٨

الفصل الثالث عشر

ما ألقاه إبليس

إن البحث في تاريخ القرآن الكريم، لا في القرآن وأحكامه، يوجب الحديث عن كل ما تيسر في المصادر التاريخية. فالواقع أن الرواة والمؤرخين كانوا من المؤسسة الدينية، علماء وفقهاء ورؤساء مذاهب، ولم يكن أحداً منهم متهاوناً في دينه، لكنهم كانوا أكثر واقعية مما نحن عليه الآن. والشك في الرواية لا يعني إلغاءها بحال من الأحوال. وحسب الخارطة المذهبية الإسلامية ليس هناك رواية تظل خارج دائرة الشك. لكن المتوافر من الروايات، كما أراه، يعبر عن التاريخ إلى حد ما، فاختلاق الأحداث وفبركتها يحصل بحدود وبقيود أيضاً، وحتى الاختلاق مهما كان متخيلاً له صلة ما بالواقع. ولعلّ الخرافة والخبر المختلق ينمان عن حقيقة محجوبة لا تقوى على الظهور، والإفصاح عن نفسها في مكانها وزمانها.

إن الحديث عن أسباب نزول الآية الناسخة التالية: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي، إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم"[1] قد يراه البعض غير جائز لكني أراه كما أرخ له الطبري والسجتاني وغيرهما نقلاً عن صحابة فضلاء وتابعين من مستوى سعيد بن جبير، يلبي حاجة معرفية فقط. ولو كانت رواية ما ألقى إبليس على النبي، من كلام قد يغير مجرى الدعوة الإسلامية، فيها ما يسيء إلى الدين، أو القرآن الكريم لحذفها المؤرخون من صفحات تواريخهم. لكنهم تعاملوا مع الحدث بكل هدوء وصراحة، مع علمنا أنها وردت في غير مصدر، وناقليها كانوا فقهاء ومؤرخين مؤمنين.

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد زوبعة ما عرف بكتاب "الآيات الشيطانية" هل من الحق أن يختصر الإسلام كتاباً وشريعة وفكراً وعقيدة وفقهاً في هذه التسمية، وهل كانت هذه الرواية هي عنوان القرآن رغم أنها رواية تاريخية، شأنها شأن الروايات الأخرى، متارجحة بين النفي والإثبات؟ ثم ما هو هذا الأدب

الذي ينسج على حساب مشاعر الناس؟ ونقصد فيه ما ورد في الكتاب المذكور عن زوجات النبي، ألم يكن ذلك غلواً وتطرفاً، أكثر من غلو المتحصنين بقلعة أموت عشرات السنين؟ إن الفتوى التي أصدرها الخميني في تاريخ ١٤ شباط (فبراير ١٩٨٩) ساهمت بفعالية في رواج الكتاب المذكور، ودفعت العديد من الأوساط الغربية إلى تبني تلك الدعاية. لقد بدا سلمان رشدي مظلوماً ظلم رأي، وهو مهدد في داخل بلاد على الكلمة فيها حرج، فأصبح يثير الشفقة والعطف. لقد جانبت الفتوى رزانة وصبر العلماء، وكان التصرف الواقعي أن يقرأ الكتاب، ثم يرد عليه بمنطق التاريخ، وكشف الأحداث التي وظفها في روايته الأدبية. وحتى توضع الأمور في نصابها، دون تهويل ومبالغة، لابد من فهم هذا الحدث، الذي لا أراه خطيراً إلى حد محاولة حذفه من كتب التاريخ. فيكون مشابهاً لما حدث من تحريف في الجملة التالية من مقدمة ابن خلدون في نظرية خلق الإنسان": واتسع عالم الحيوان وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القردة[٢]"، فحرفوا القردة إلى القدرة لتصبح الجملة: "من عالم القدرة.[٣]" حدث ذلك نكاية بنظرية (تشارلز داروين)، عالم الأحياء الإنكليزي المعروف "الارتقاء والتطور." لكن هذا التحريف لم يبطل النظرية، بل شوه "مقدمة بن خلدون" التي اخذها نصاً من "رسائل إخوان الصفا." والنظرية، كما هو متعارف عليه، لا تبطلها غير نظرية أصدق منها. أورد الطبري حادثة دخول الشيطان، بين الرسول والوحي، مفصلة في "تاريخ الأمم والملوك"، وابن الأثير في "الكامل في التاريخ"، والنيسابوري في "أسباب النزول." وأوردتها كتب السير، والتفاسير كافة تقريباً. ومن الجدير ذكره، أن هذه الآية من آيات قلائل نسخت منسوخها خطاً وحكماً. وفي غيرها من المنسوخات يروى عن أنس بن مالك (خادم النبي) أنه قال: "كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة تعدلها سورة التوبة، ما احفظ منها غير آية واحدة: ولو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً، ولو أن لهما ثالثاً لابتغى إليهما رابعاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب.[٤]" فما هي قصة الآية الشيطانة، وما هي الأسباب التي أدت إلى وجودها، وكيف نسخت؟

كتب الطبري: "لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله. فإن كان جئت به خيراً مما في أيدينا كنا أشركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك كنت أشركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه. فأنزل الله عزل وجل: قل يا أيها الكافرون، حتى انقضت السورة. فكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حريصاً على صلاح قومه محباً مقاربتهم بما وجد إليه السبيل، قد ذكر أنه تمنى السبيل إلى مقاربتهم، فكان من أمره في ذلك ما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد المدني عن محمد بن كعب القرظي، قال: لما رأى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تولي قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم، ما جاءهم به من الله تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، وكان يسره مع حبه قومه، وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم، حتى حدث بذلك نفسه وتمناه وأحبه، فأنزل الله عز وجل: والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى، فلما انتهى إلى قوله: افرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى. ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه، وتمنى أن يأتي به قومه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن ترتضى. فلما سمعت ذلك قريش فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم، فأصاخوا له والمؤمنون مصدقون نبيهم. فلما جاءهم به عن ربهم ولا يتهمونه على خطأ ولا وهم ولا زلل. فلما انتهى إلى السجدة منها، وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون بسجود نبيهم تصديقاً لما جاء به، واتباعاً لأمره، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم، لما سمعوا من ذكر آلهتهم فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا وسجد، إلا الوليد بن المغيره فانه كان شيخاً كبيراً، فلم يستطع السجود، فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها، ثم تفرق الناس من المسجد، وخرجت قريش، وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتم. يقولون: ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، قد زعم فيما يتلو أنها الغرانيق العلى وإن شفاعتهن ترتضى. وبلغت السجدة من بأرض الحبشة

من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وقيل: أسلمت قريش فنهض منهم رجال وتخلف آخرون. وأتى جبريل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم آتك به من الله عز وجل، وقلت ما لم يقل لك. فحزن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عند ذلك حزناً شديداً، وخاف من الله خوفاً كثيراً، فأنزل الله عز وجل، وكان به رحيماً، يعزيه ويخفض عليه الأمر، ويخبره أنه لم يك قبله نبي ولا رسول تمنى كما تمنى، ولا أحب كما أحب إلا والشيطان قد ألقى في أمنيته كما ألقى على لسانه، صلى الله عليه وسلم. فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته، أي فإنما أنت كبعض الأنبياء والرسل (عبارة غير واضحة) الله عز وجل: وما أرسلناك من قبل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم آياته والله عليم حكيم.[٥]"

وحسب الرواية المذكورة وغيرها كان موقع الآية، التي ألقاها الشيطان، كان سورة "النجم"، وناسختها وردت في سورة "الحج." ولعلَّ هذا التداخل دليل آخر على أن ترتيب السور والآيات كان باجتهاد لا بتوقيف عن نبي أو وحي، كما زعم من زعم. ولكن الحديث ظل يجري حولها في سورة "النجم"، فقد جاء في وصف آلهة قريش الثلاثة: "افرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى، أن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى، أم للإنسان ما تمنى، فلله الآخرة والأولى، وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.[٦]" وبعد النسخ، وما ورد من آيات مصححة قالت قريش: "ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتكم عند الله، فغير ذلك وجاء بغيره، وكان ذانك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد وقعا في فم كل مشرك، فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه.[٧]"

الهوامش:

(١) الحج٥٢

(٢) رسائل أخوان الصفا،٢ ص١٧٠-١٥٠، مقدمة ابن خلدون، ص١٢٠

(٣) كتابنا: مذهب المعتزلة من الكلام إلى الفلسفة، ص١١٢

(٤) هبة الله بن سلامة، الناسخ والمنسوخ، بهامش أسباب النزول، ص١٠

(٥) تاريخ الأمم والملوك،٢ ص. ٧٧-٧٥أسباب النزول، ص٢١٨-٢١٧

(٦) النجم ٢٦-١٩

(٧) تاريخ الملوك والأمم،٢ ص٧٧

(٨) النشر في القراءات العشر،١ ص٤

الفصل الرابع عشر

الكرامات

في فضائل القرآن جملة، والسور والآيات والحروف مفرقة، وردت أحاديث كثيرة، منها ما اعترف البعض بوضعه لمصلحة الإسلام، أي دفع المسلمين إلى قراءة القرآن عن طريق هذه الأحاديث، وربما استهدفت ترغيب غير المسلمين أيضاً. كما لم يغب في تلك الأحاديث جانب الترهيب من ترك قراءة القرآن، أو الإخلال بضوابط تلاوته وحفظه. وقد سرى مفعول عدد من هذه الأحاديث بين المسلمين، فعلى سبيل المثال لا الحصر يكاد لا يخلو بيت من بيوت المتدينين من آية الكرسي (سورة البقرة) أو سورة الفاتحة، أو سورة الإخلاص مرسومة على لوح مزين، أو معلقة كقلادة ذهبية في النحور، وكثيراً ما كتبت بالتعاويذ والحروز للتحصين من الأذى، أو تقرأ قبل النوم أو عند الشروع بعمل ما، كما ورد في الحديث: "فاتحة الكتاب وآية الكرسي لا يقرأهما عبد في دار فتصيبهم ذلك اليوم عين أنس أو جن."

ما ورد في كرامة القرآن جملة:

عن ابن عمر: "أن الله لا يغضب فإذا غضب سبحت الملائكة لغضبه، فإذا اطلع إلى أرض فنظر الولدان يقرؤون تملأ رضاً." عن ابن عمر أيضاً: "إن الله تعالى لينصت للقرآن ويسمعه من أهله." عن عائشة: "أكرموا القرآن ولا تكتبوه على حجر ولا مدر، ولكن اكتبوه فيما يمحى، ولا تمحوه بالبزاق وامحوه بالماء." عن أبي هريرة وأبي الدرداء: "إن بيوتات المؤمنين لمصابيح إلى العرش يعرفها مقربو السموات السبع، يقولون: هذا النور من بيوتات المؤمنين التي يُتلى فيها القرآن." عن إبن مسعود: "إن أصغر البيوت بيت ليس فيه من كتاب الله شيء فاقرؤوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: الم، ولكن ألف ولام وميم." ومن تشبيه وتجسيم أحمد بن حنبل، ذكر محمد بن الجزري أنه قال: "رأيت ربَّ العزة في النوم فقلت يارب ما أفضل ما يتقرب المتقربون إليك؟ فقال: بكلامي يا أحمد، فقلت ياربِّ بفهم أو بغير فهم؟ فقال:

بفهم وبغير فهم.[1]" وسُئل عبد الله بن مسعود عن سبب قلة صيامه – لعله من غير شهر رمضان –فقال: "إني إذا صمت ضعفت عن القرآن وتلاوة القرآن أحب إليّ.[2]" ويفضل سفيان الثوري[3] قراءة القرآن على الغزو، قال عبد الحميد بن عبد الرحمن الحماني: "سألت سفيان الثوري عن الرجل يغزو أحب إليك أو يقرأ القرآن، فقال: يقرأ القرآن.[4]"

ما ورد في كرامة السور:

عن عبد الله بن عباس: "فاتحة الكتاب تعدل ثلثي القرآن." وعن أبي الدرداء[5]: "فاتحة الكتاب تجزي ما لا يجزي شيء من القرآن، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات." عن علي بن أبي طالب: "فاتحة الكتاب أنزلت من كنز تحت العرش." وعن أبي هريرة: "والذي نفسي بيده ما أنزل في القرآن ولا في الزبور ولا في الأنجيل ولا في الفرقان مثلها يعني أم القرآن، وإنها لسبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته." عن إبن مسعود: "اقرؤوا سورة البقرة في بيوتكم، فإن الشيطان لا يدخل بيتاً تقرأ فيه سورة البقرة." عن أبي هريرة: "لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي." وعن معقل بن يسار: "البقرة سنام القرآن وذروته، ونزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت الله لا إله إلا هو الحي القيوم من تحت العرش، فوصلت بها، ويس قلب القرآن لا يقرأ بها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له، واقرؤها على موتاكم." وعن إبن عمرو: "من قرأ سورة البقرة توج بها تاجاً في الجنة." عن جابر: "لقد شيَّع هذه السورة من الملائكة ما سدَّ الأفق، يعني الأنعام." وعن عبد الله بن عباس: "سورة الكهف تدعى في التوراة الحائلة تحول بين قارئها وبين النار." وإبن النجار عن أبيه: "من قرأ سورة الكهف فهو معصوم إلى ثلاثة أيام."

وعن رجاء الغنوي: "من قرأ قل هو الله أحد ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن أجمع." عن أنس: "من قرأ قل هو الله أحد خمسين مرة غفر الله له ذنوب خمسين سنة." عن أبي رافع: "من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له وزوج من

الحور العين." عن أنس: "أسمت السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد."

ما ورد في كرامة الآيات:

عن النعمان بن بشير[1]: "إن الله تعالى كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات بألفي عام، وهو عند العرش، وإنه أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا تقرءان في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان." عن ابن مسعود: "لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال، يعني (أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً.) وعن أبي هريرة: "البقرة فيها آية سيدة القرآن، لا تقرأ في بيت وفيه شيطان إلا خرج منه، آية الكرسي." عن أبي ذر: "يا أبا ذر إني لأعرف آية لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم، ومن يتق الله له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب." عن معاذ بن أنس: "آية العز: الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً."

ما ورد في كرامة الحروف:

عن أنس: "الحواميم (حم) ديباج القرآن." عن الخليل بن مرة: "الحواميم سبع وأبواب جهنم سبع يجيء كل يوم حاميم منها، يقف على باب من هذه الأبواب يقول: اللهم لا تدخل هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرأني." عن أنس: "إن الله تعالى أعطاني السبع مكان التوراة، وأعطاني الرءات إلى الطواسين مكان الأنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي." وعن أبي هريرة: "من قرأ حم الدخان في ليلة اصبح يستغفر له سبعون ألف ملك." وورد عن ابن مسعود أنه قال بفضل حروف القرآن كافة: "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، ولا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف."[2]

الهوامش:

(١) النشر في القراءات العشر، ص٣

(٢) من أبرز محدثي الكوفة، وردت رواية تشير انه تتلمذ على يد المتصوفة رابعة العدوية، وكان من زهاد المعروفين، قال عنه سفيان بن عيينة: أصحاب الحديث ثلاثة: عبد بن عباس في زمانه،

والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه (الخطيب، تاريخ بغداد،٩ ص ١٥١.) وينسب له القول التالي: "إنما الفقه الرخصة مع الثقة أما التشدد فيحسنه كل أحد."

(٣) النشر في القراءات العشر، ص ٣

(٤) عويمر بن زيد، وقيل إبن ثعلبة الأنصاري، حكيم الأمة، أسلم بعد بدر، وقرأ القرآن في عهد النبي، تولى القضاء بدمشق. توفي السنة٣٢ هـ (معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار،١ ص ٤٠.)

(٥) الأنصاري، صحابي، لاطفه الرسول، وهو صغير، وسماه غدراً، بعد أن سلمه عنقوداً من عنب الطائف إلى أمه، لكنه أكله اثناء الطريق. ولاه معاوية بن ابي سفيانعلى الكوفة ثم حمص، وبعد يزيد بن معاوية أنتقل إلى صف عبد الله بن الزبير، فقتل بحمص السنة٦٤ هـ (سير اعلام النبلاء،٣ ص ٤١١.)—

(٦) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ص. ٢٤وما ورد من الأحاديث الأخرى مقتبس من "كنز العمال" للهندي، والذي جمع فيه ما يقارب الاربعين الف حديثاً.

الباب الثاني

مقالة ومحنة خلق القرآن

مدخل

هل القرآن الكريم كلام الله أم مخلوق من مخلوقاته؟ منذ قولها من قبل المتكلّمين المقتولَين، الجعد بن درهم والجهم بن صفوان، أصبحت مقالة خلق القرآن في مقدمة المقالات الكلامية والعقائدية في الإسلام، وجزءاً من تاريخ القرآن. ورغم القرابين المقدمة على صخرتها ظلت تستهوي العديد من المفكرين، وما زالت حيوية على موائد الجدل الفكري. ففيها ما يشير إلى التخفيف من قدسية النص، لأن الفارق شاسع بين سماع وتلاوة كلمات الله تعالى، وهو يقولها بفم ولسان مقدسين عجيبين، وبين الكلام المخلوق، مثله مثل المخلوقات الأخرى، التي يجادل الإنسان في وجودها ومكوناتها بحرية كبيرة. أما كلام الله تعالى فلا سبيل إلى الجدال حوله، فكيف والمسلمون محكومون بكتاب آياته (٦٢٣٦) آيةً، هناك من يعتقد أنها كلمات إلهية، كانت قبل أن يكون الكون. فقد جاء في الحديث "إن اللّه تعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بألفي سنة، فلمّا سمعت الملائكة بالقرآن، قالت: طوبى لأمة ينزل عليها هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسن تتكلم بهذا."[1] إن هذا الحديث، سواء كان موضوعاً أو صحيحاً، فيه إشارة واضحة إلى التحذير من مقولة خلق القرآن، وليس بعيداً أن يروي ناقضو تلك المقولة أعجب من ذلك. ونجد في المصدر نفسه، وفي مصادر أخرى، تحذيرات شديدة للباحثين في القرآن، منها: "لا تجادلوا في القرآن فإن جدلاً فيه كفر[2]"، و"من قال في القرآن بغير علم فليتبوّ مقعده من النار."[3] وتكون الصورة واضحة إذ يضاف إلى ذلك قتل المتكلمين، وما فرضه الخليفة العباسي العاشر، المتوكل على الله، من تعسف ضدهم، وما حمله تاريخ الملل والنحل من تهم قاتلة بسبب مقولة "خلق القرآن"، وما يحيطها من مقولتي نفي الصفات ونفي القدر. فأي موضوع سنطرق، وأي كتاب ألف الجاحظ، ولماذا انتزع من بين كتبه، ونشرت فصول منه بلا عنوان، على هامش كتاب "الكامل في اللغة والأدب(١٩٠٦)"؟

الهوامش:

(١) كنز العمال،١/٢٦٨١

(٢) المصدر نفسه،٢٨٣٦

(٣) المصدر نفسه،٢٩٥٨

الفصل الأول

تاريخ المقالة

فيما يخص تاريخ مقولة "خلق القرآن"، كان مصدرها في الفكر الإسلامي الجعد بن درهم، وقد اتهم حينها من قبل حكومة هشام بن عبد الملك، أنه كذب الآية الكريمة" وكلم الله موسى تكليما."[1] قال ذلك خالد بن عبد الله القسري، وهو يهم بذبح الجعد أسفل منبر مسجد واسط العام ٩٩ هـ في صبيحة اليوم الأول من عيد الأضحى. ودلالة هذه الممارسة الوحشية أن المقتولين في سبيل هذه المقولة أو أي قضية أخرى كانوا بمثابة القرابين، ثم تصلب أجسامهم طعاماً للوحوش. فالمستبدون لم يجدوا أرخص من دماء البشر يسدون بها عطشهم باسم الدفاع عن الله. وقد ذبح الجعد بن درهم مع الأضاحي من الأغنام بعد صلاة العيد، شهد بذلك قاتله القسري وهو يهم بنحره: "انصرفوا تقبل الله منّا ومنكم، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم."[2] ودون المؤرخين هذه المأساة بالقول: "جعله بدلاً من الأضحية، بعد أن قال ذلك على المنبر."[3] ويروي أتباع أصحاب الحديث المعادين، أن الجعد اقتبس المقالة من "بيان بن سمعان عن طالوت بن أخت لبيد عن لبيد بن أعصم اليهودي، الذي سحر النبي، وكان لبيد يقرأ القرآن، وكان يقول بخلق القرآن."[4] وحسب رواية ابن كثير أن أصل المقالة عن "يهودي باليمن[5]"، على أساس أن لبيد بن أعصم يهودي من أهل اليمن. وليس لدينا العلم الكافي حول جدل اليهود في توراتهم، أمخلوقة أو كلام الله، حتى يفترض أصلها اليهودي. ولعلّ العكس هو الصحيح، بأن دخولها بالفكر اليهودي جاء بتأثير الإسلام، فتواجد المعتزلة وغيرهم كان ولا زال ملحوظاً بالشمال الأفريقي، وتأثيرهم على متكلمي اليهود هناك مثل موسى بن ميمون الأندلسي ليس مستبعداً. قال الأندلسي في خلق التوراة: "ما أراك بعد وصولك لهذه الدرجة وتحقيقك أنه تعالى موجود، وواحدة لا بوحدة،

تحتاج إلى أن يتبين لك نفي صفة الكلام عنه، ولاسيما بإجماع أمتنا أن التوراة مخلوقة، والقصد بذلك أن كلامه المنسوب إليه مخلوق، وأن نُسب إليه لكون ذلك القول الذي سمعه موسى الله خلقه، وأبتدعه، كما خلق كل ما خلقه وأبتدعه.[٦]"

وإذا كان القرآن كلام الله، وأنه تعالى كان يقرأه كما ورد في الحديث "قبل أن يخلق آدم بألفي سنة" فإن حديثاً مماثلاً مرفوعاً إلى عكرمة، جاء فيه: "إن الله تعالى خلق آدم بيده كرامة لابن آدم، وكتب التوراة بيده، وخلق السموات والأرضين، وكل شيء خلقه في ستة أيام، فبدأ بخلقهم يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، ثم استوى على العرش في ثلاث ساعات بقين من يوم الجمعة.[٧]"

وقال ابن ميمون شارحاً معنى كلام وقول الله على المجاز: "إن الكلام والقول لفظ مشترك وقع على النطق باللسان مثل قوله: موسى يتكلم، وقال فرعون، ويقع على المعنى المتصوّر في العقل من غير ان ينطق به، قال: فقلت في قلبي، فتكلمت في قلبي، وينطق قلبك، لك نطق قلبي، وقال عيسو في قلبه، وهذا كثير (...) فكل قوله وكلامه جاءت منسوبة لله، فهي من المعنيين الأخيرين، أعني أنهما أما كناية عن المشيئة والإرادة، وأما كناية عن المعنى المفهوم من قبل الله، سوى علم بصوت مخلوق، أو علم بطريق من طرف النبوة، التي سنبينها، لا أنه تعالى تكلم بحرف وصوت، ولا أنه تعالى ذو نفس، فترتسم المعاني في نفسه.[٨]" وكان أبو هاشم الجبائي، أحد شيوخ الاعتزال في القرنين الثالث والرابع وصاحب مقولة الأحوال في نفي الصفات، قد أرجع بداية القول بخلق القرآن إسلامياً إلى الإمام أبي حنيفة النعمان، ورد ذلك في إجابته على سؤال أحدهم: "في أيام الرسول وأيام الصحابة كان الناس على قولين: فمن لا يؤمن بالرسول يقول في القرآن: إنه فعلك يا محمد، وأنت بفصاحتك تورد علينا. وقال آخرون: بل هو من فعل الله، فلِم هو من فعل محمد؟ بيّن أن هذا الخلاف حادث، ويقال إنه حدث أيام أبي حنيفة وأصحابه أنكروا ذلك على من قاله.[٩]" وأكد مصدر آخر قول أبي حنيفة بخلق القرآن، فقد ورد عن سفيان الثوري أنه قال: "قال لي حماد بن أبي سليمان: أبلغ

أبا حنيفة المشرك أني منه بريء، قال سليمان: ثم قال سفيان: لأنه كان يقول: القرآن مخلوق."[10] وورد في المصدر نفسه أيضاً عن سفيان بن وكيع[11] أنه قال: "سمعت عمر بن حماد بن أبي سليمان[12] قال: أخبرني أبي قال: الكلام الذي استتاب فيه ابن أبي ليلى أبا حنيفة، وهو قوله: القرآن مخلوق، قال: فتاب منه وطاف به في الخلق. قال أبي: فقلت له: كيف صرت إلى هذا؟ قال: خفت والله أن يقدم عليّ، فأعطيته التقية." وورد عن القاضي أبي يوسف (أبرز تلاميذ أبي حنيفة، وقاضي قضاة الرشيد، ومؤلف دستور الدولة الاقتصادي' كتاب الخراج)" أنه قال: "ناظرت أبا حنيفة شهرين حتى رجع عن خلق القرآن."[13] وحسب تعليق محققة كتاب "الإبانة عن أصول الديانة"، أن الأشعري كذب هذه الروايات في نسخة مخطوطة من الكتاب المذكور، فقد ورد قوله: "وحاشا الإمام الأعظم أبو حنيفة، رضي الله عنه، من هذا القول، بل هو زور وباطل." ويؤكد ابن الجوزي، ضمنياً، أن أبا حنيفة كان يقول بخلق القرآن، حين عدّ اربعين فقيهاً ومحدثاً من رافضي هذه المقولة من الكوفيين، ولم يكن فقيه الكوفة الأول ضمنهم، وهو ليس بالمجهول حتى يسقط أسمه من بين اربعين.[14] وليس بعيداً أن يكون أبو حنيفة قائلاً بخلق القرآن، فقد كان على صلة بجهم بن صفوان، وأنه كان راغباً بعلم الكلام، وهناك من نصحه بالابتعاد عنه، بعد قتل عدد من أربابه، فقد نصح بالقول: "لا يسلم من نظر في الكلام من مشنعات الكلام فيرمى بالزندقة، فأما أن تؤخذ فتقتل، وأما أن تسلم فتكون مذموماً ملوماً."[15]

أما خلافات أبي حنيفة مع فقهاء عصره، من موظفي الدولة، فتعود إلى كونه تبنى مدرسة الرأي العراقية، مقابل مدرسة الحديث الحجازية. ومن اولئك الخصوم كان عبد الرحمن الأوزاعي (ت١٥٧هـ)، الذي قال فيه: "إنا لا ننقم على أبي حنيفة أنه رأى، كلنا يرى، ولكننا ننقم عليه أنه يجيئه الحديث عن النبي فيخالفه إلى غيره."[16] ويذكر أن الفقيه ابن أبي ليلى التمس أمير الكوفة لمنع أبي حنيفة من الإفتاء. كما يذكر القاضي عبد الجبار أن الجدل حول القرآن حدث "في أيام أبي حنيفة وأصحابه، وأنكروا ذلك عليه"[17] وما ذكر، كان رأياً مقبولاً في

تاريخ مقولة خلق القرآن، ويظهر ذلك من تزامنها مع نشأة علم الكلام، والصراع بين الفرق الكلامية حول نفي القدر ونفي الصفات، وليس هناك معطيات تؤكد طرحها زمن الرسول والصحابة كقضية للجدل، عدا أحاديث أغلب الظن أنها موضوعة. منها: حديث: "فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه."(١٨) وقال سفيان بن عيينة عن عمر بن دينار: "أدركت الناس، وكان أدرك أصحاب الرسول، صلى الله عليه وسلم، فمن دونهم منذ سبعين سنة كلهم يقولون: الله جل اسمه الخالق، وما سواه مخلوق إلا القرآن فإنه كلام الله تعالى."(١٩) وورد في حديث تماثله كثيراً فتاوى أحمد بن حنبل ضد هذه المقولة، جاء فيه "قال يحيى بن خلف: كنت عند مالك بن أنس، رضي الله عنه، فجاء رجل فقال: ما تقول فيمن يقول: القرآن مخلوق، فقال: زنديق كافر، اقتلوه."(٢٠) وورد حديث وصفه أبو الخير السخاوي "من جميع طرقه باطل": "القرآن كلام الله غير مخلوق فمن قال غير هذا فقد كفر." وورد في صيغة أخرى: "القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فاقتلوه فإنه كافر."(٢١)

ونقل عن علي بن الحسين بن أبي طالب أنه قال: القرآن "هو كلام الله ليس بخالق ولا مخلوق."(٢٢) وما يجدر التنويه عنه، أن هذه الأحاديث وغيرها لو كانت موجودة لأحتج بها أحمد بن حنبل قبل غيره، بينما لم يظهر هذا في أخبار امتحانه في القرآن، الذي سيأتي مفصلاً. ومن كان حول الرسول ويؤمن بما يوحى إليه أنه هو كلام الله. أما الجدل في مثل هذه المسائل لم يظهر إلا بعد الرسول بعقود.

الهوامش:

(١) النساء١٦٣

(٢) ابن منظور، مختصر تاريخ ابن عساكر،٦ ص٥١

(٣) النديم، الفهرست، ص٤٠١

(٤) ابن منظور، مختصر تاريخ ابن عساكر،٦ ص٥١

(٥) المصدر نفسه عن ابن كثير، البداية والنهاية،٩ ص٣٦٤

(٦) دلالة الحائرين،١ ص١٦٢

(٧) محمد الملطي، التنبيه والردّعلى أهل الأهواء والبدع، ص١٠١
(٨) المصدر نفسه، ص١٦٣
(٩) القاضي عبد الجبار، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص١٥٧
(١٠) ابو الحسن الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، ص٥٩٠
(١١) ابن الفقيه الحنفي المعروف وكيع بن الجراح، محدث وحافظ كوفي، توفي السنة٢٤٧ هـ (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٢/١٥٢.)
(١٢) لعله، المحدث الفضل بن دكين عمرو بن حماد بن زهير بن درهم، وجده مولى طلحة بن عبيد الله، امتحن بالكوفة أيام المحنة، توفي السنة٢١٩ هـ (ابن الجوزي، المنتظم،١١ ص ٤٦.)
(١٣) المصدر نفسه، ص٥٩١
(١٤) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ص٢٧
(١٥) تاريخ بغداد، ١٣ ص٢٣٢
(١٦) تأويل مختلف الحديث، ص٥٢
(١٧) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص١٥٧
(١٨) الباقلاني، الإنصاف، ص٧٢
(١٩) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ص٢٥
(٢٠) المصدر نفسه
(٢١) المقاصد الحسنة، ص. ٣٠٤ كذلك وصف السخاوي الروايات الأخرى لما يفيد معنى هذا الحديث، كما رفع إلى معاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود وجابر بقوله: "ولا يصح شيء من ذلك أسانيده مظلمة لا ينبغي ان يحتج به منها ولا أن يستشهد بها." والسخاوي لم يكن مؤيداً لمقالة خلق القرآن، وإن لم يعط رأياً بذلك، فهو القائل: "وسرد من الأدلة المرفوعة لمعنى كون القرآن كلام الله غير مخلوق ما فيه كفاية، وكذا ساق عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ما فيه مقنع."
(٢٢) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ص٢٥

الفصل الثاني

اختلاف المتكلمين

أختلف المتكلمون في القرآن، أمخلوق أم كلام الله، وقد بينّ أبو الحسن الأشعري مقالاتهم كالتالي[1]: قالت المعتزلة والخوارج وأكثر الزيدية والمرجئة، وكثير من الشيعة: إن القرآن مخلوق لا كلام الله القديم. وقال هشام بن الحكم، من أبرز متكلمي الشيعة في القرن الثاني الهجري: "إن القرآن صفة لله، لا يجوز أن يقال إنه مخلوق ولا خالق." وقال زهير الأثري: "إن القرآن كلام الله محدث غير مخلوق، وانه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد." وقال معاذ التومني: "القرآن كلام الله، وهو حدث، وليس بمحدث، وفعل وليس بمفعول، وليس بخلق ولا مخلوق، وانه قائم بالله، ومحال أن يتكلم الله سبحانه بكلام قائم بغيره، كما يستحيل أن يتحرك بحركة قائمة بغيره."

وقال عبد الله بن كلاب: "إن الله سبحانه لم يزل متكلماً، وأن كلام الله سبحانه صفة له قائمة به، وانه قديم بكلامه، وأن كلامه قائم به." وحجة الأخير ان القرآن الكريم كلام الله: إن كلامه "ليس بحروف ولا صوت ولا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتبعض ولا يتغاير، وانه معنى واحد بالله عز وجل، وأن الرسم هو الحروف المتغايرة، وهو صورة القرآن." وكانت حجة إبن كلاب المذكورة مماثلة لحجة المعتزلة في أن القرآن مخلوق، لانهم اعتبروا التجزأة والتبعض دليلاً على خلقه.

وقال ابن الراوندي (متكلم معتزلي، تمرد على الاعتزال وصار إلى التشيع، من أعيان الفكر في القرن الثالث الهجري): "القرآن معنى من المعاني، وعين من الأعيان، خلقه الله عز وجل ليس بجسم ولا عرض." وقال ضرار بن عمرو (متكلم معتزلي، أتصل بواصل بن عطاء، تمرد على الاعتزال، ومال إلى جبرية جهم بن صفوان، من أعيان القرن الثاني الهجري): القرآن من الله خلقاً ومنا قراءة وفعلاً، لأني أقرأ القرآن، والمسموع هو القرآن، والله يأجرني عليه، فأنا فاعل والله خالق."

وقال جهم بن صفوان، متكلم أعتمد المعتزلة أفكاره في نفي الصفات وخلق القرآن ورفضوا جبريته الخالصة المحددة بقوله "إنه لا فاعل إلا الله عز وجل"، (من أعيان القرن الأول والثاني الهجريين): "إن القرآن جسم، وهو فعل الله." وقال حسين الكرابيسي[1]: "القرآن ليس بمخلوق، ولفظي به مخلوق، وقراءتي له مخلوقة."

ويتضح رأي الإمام محمد أدريس الشافعي من مناظرة جرت بينه وبين المعتزلي حفص الفرد (تعمد بعض مؤرخي الملل والنحل ذكر اسمه بالقرد)، أحد أصحاب بشر المريسي، وفيها كفر الفرد بعد أن قال: القران مخلوق. ويعلق السخاوي على رواية هذه المناظرة بقوله": المناظرة دون الحديث صحيحة."[2] والحديث المقصود كما سبق ذكره يجيز القتل لتبني هذه المقولة.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: "الذي أعتقده وأذهب إليه، ولا أشك فيه أن القرآن غير مخلوق (...) سبحان الله، ومن يشك في هذا، وأي كفر أكفر من هذا، وأي كفر أشد من هذا؟ إذا زعموا أن القرآن مخلوق، فقد زعموا أن أسماء الله مخلوقة، وان علم الله مخلوق، ولكن الناس يتهاونون بهذا، ويقولون: القرآن مخلوق ويتهاونون به، ويظنون أنه هين، ولا يدرون ما فيه، وهو الكفر، وأنا أكره أن أبوح بهذا لكل احد، وهم يسألون، وأنا أكره الكلام في هذا، فبلغني أنهم يدعون اني امسك."[4] وقال إبن المبارك[5]: "إنا نستطيع أن نحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية (القرآن مخلوق.)"

وقال الأشعري: "إن القرآن غير مخلوق من كتاب الله عز وجل، وما تضمنه من البراهين، وأوضحه من البيان، ولم نجد أحداً ممن تحمل عنه الآثار وتنقل عنه الأخبار، ويأتمر به المؤتمرون من أهل العلم يقول بخلق القرآن، وإنما قال ذلك رعاع الناس، لا موقع لهم."[6] والأشعري، كما هو معروف، كان من القائلين بقول (الرعاع) حتى تمرد على الاعتزال، وعلى شيخه أبو علي الجبائي. والذين نعتهم بالرعاع، ويعني المعتزلة، قيل عنهم، وهم يفاخرون بما عندهم من علم ونظر: "تنظر إلى الناس بالعين التي ينظر بها ملائكة الناس إلى أهل الأرض."[7]

وقال ابن حزم الظواهري: "إننا نسألهم عن القرآن أهو كلام الله أم لا؟ فإن قالوا: ليس هو كلام الله كفروا بإجماع الأمة، وإن قالوا: بل هو كلام الله، سألناهم عن القرآن أهو الذي يتلى في المساجد ويكتب في المصاحف ويحفظ في الصدور، أم لا؟ فإن قالوا: لا، كفروا بإجماع الأمة."[8] وبنفس الوقت يرد ابن حزم على الأشعرية لأنهم جعلوا القرآن غير الله، بقوله: "وأما الأشعرية فيلزمهم في قولهم أن كلام الله غير الله، ما الزمناهم في العلم، وفي القدرة سواء بسواء، مما تقصيناه قبل هذا (...) وأما قولهم ليس لله تعالى إلا كلام واحد، فخلاف مجرد لله تعالى، ولجميع أهل الإسلام."[9] ويوجز القاضي عبد الجبار قول الأشعري، الذي رده إبن حزم بالعبارة: "أن القرآن قديم، قال: لا يقال فيه هو الله، ولا غير الله، ولا هو هو (مثل قول أبي الهذيل العلاف في الصفات تماماً) ولا غيره."[10] وقال ابن تيمية: "إن كثيراً من الناس فسروا النزول في مواضع من القرآن بغير ما هو معناه المعروف لاشتباه المعنى في تلك المواضع، وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع. فمن الجهمية من يقول: أنزل بمعنى خلقه كقوله تعالى: وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد، أو يقول: خلقه في مكان عالٍ، ثم انزله من ذلك المكان (وعند الكلابية النزول يعني الإفهام والإعلام) وعلى كلا القولين: فقد أثبت أنه منزل منهن وكذلك قوله: حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، والتنزيل بمعنى المنزل، تسمية للمفعول باسم المصدر، وهو كثير، ولهذا يقال القرآن كلام الله ليس بمخلوق."[11]

وتؤكد أحاديث أئمة الشيعة الاثني عشرية على رفض مقالة خلق القرآن، منها ينقل صاحب "بحار الأنوار" عن الشيخ الصدوق حديثاً للإمام علي بن موسى الرضا، رد فيه على سائل يدعى ابن خالد، عندما سأل الإمام بقوله: "أخبرني عن القرآن أخالق أو مخلوق؟" فكان جواب الرضا: "ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله عز وجل."[12] وفي حديث آخر، يرى بعض أعيان الشيعة القول بخلق القرآن فتنة. وتفصيل ذلك، أن طلب أبو الحسن الثالث إلى بعض شيعته ببغداد ناصحاً": عصمنا الله وإياك من الفتنة، فأن يفعل فأعظم بها نعمة، وإلا يفعل

فهي الهلكة، ونحن نرى أن الجدل في القرآن بدعة، أشترك فيها السائل والمجيب، فتعاطى السائل ما ليس له، وتكلف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلا الله، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله، لا تجعل له اسماً من عندك، فتكون من الضالين. جعلنا الله وإياك من الذين يخشون ربّهم بالغيب، وهم الساعة مشفقون."[13] وورد عن الجعفري أنه قال: "قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: يا إبن رسول الله ما تقول في القرآن، فقد أختلف فيه من قبلنا، فقال قوم: إنه مخلوق، وقال قوم: إنه غير مخلوق؟ فقال عليه السلام: أما أني لا أقول في ذلك ما يقولون، ولكني أقول: إنه كلام الله عزّ وجل."[14]

وقال الشيخ الصدوق باحثاً المسألة": جاء في كتاب الله أن القرآن كلام الله، و وحي الله، وقول الله، وكتاب الله، ولم يجيء فيه أنه مخلوق، وإنما امتنعنا إطلاق المخلوق عليه، لأن المخلوق في اللغة قد يكون مكذوباً، ويقال لك كلام مخلوق أي مكذوب. وقال الله تبارك وتعالى: إنما تعبدون من دون الله أوثاناً، وتخلقون إفكاً، أي كذباً."[15] وقال محمد الملطي (مؤرخ في الملل والنحل من أعيان القرن الرابع الهجري، ومن المتشددين ضد المعتزلة): "وينبغي أن يقال للجهمية: من يحاسب الناس يوم القيامة إن كان لم يكلم ولا يتكلم؟"[16] وعلى العموم أن الأقوال الشيعية السالفة تقر بأن القرآن كلام الله، لكنها لا تشير إلى قدمه بحال من الأحول.

ويجمع القاضي الباقلاني رأي الأشاعرة وأهل السنّة في خلق القرآن، بقوله: "إن الله تعالى متكلم، له كلام عند أهل السنّة والجماعة، وأن كلامه قديم ليس بمخلوق، ولا مجعول، ولا محدث، بل كلامه قديم صفة من صفات ذاته، كعلمه وقدرته وأرادته، ونحو ذلك من صفات الذات. ولا يجوز أن يقال كلام الله عبارة ولا حكاية، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق، ولا يجوز أن يقول أحد: لفظي بالقرآن مخلوق، ولا غير مخلوق، ولا أني متكلم بكلام الله."[17]

ومن آراء المتصوفة في خلق القرآن، ما ورد على لسان الشيخ معروف الكرخي ٢٠٠ (تهـ) برواية إبن أخيه يعقوب الكرخي، قال: "سمعت عمي معروف

وذاكروه أمر القرآن، فقال: واغوثاه بالله، القرآن كلام الله غير مخلوق.[18]" والمتصوفة لم يتوقفوا عند هذه المسألة أو يهتموا بها وبمثيلاتها من المسائل الكلامية. فهم حالمون، وإن كانت لديهم ثمة فلسفة فلا تتعدى الحلم بالتوحد مع الله، وفي عرفهم الصلة بين السماء والأرض تتحقق عبر العاطفة، لذا يصعب تمييز موقف فكري إزاء أي قضية كلامية. ولعلَّ ما صرح به الشيخ معروف له صلة بأحمد بن حنبل، فقد كان الأخير من المترددين على مسجده، ومن محبي سلوكه في الزهد، وهو القائل فيه: "وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف؟[19]"

ومن طريف ما يذكر أن أبا علي الجبائي قال في الذين اتخذوا موقفاً مؤيداً للقول بحدوث القرآن ومعارضاً للقول بخلقه: "من يقول بحدوث القرآن وينكر أن يكون مخلوقاً، لأنه ظن أن الخلق معناه إنه حيوان يجوز عليه الموت.[20]" وكان مصدر هذه العبارة بهلول القاضي، قالها ساخراً من الجعد بن درهم: "أحسن الله عزاءك في قل الله أحد، فإنها ماتت! قال: كيف تموت؟ قال: لأنك تقول: إنها مخلوقة، وكل مخلوق يموت.[21]" ومن فتاوى الفقهاء في القائلين بخلق القرآن: "من قال بخلق القرآن فهو مرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قتل[22]"، بمعنى أن القول فيها بمثابة الردة عن الإسلام.

الهوامش:

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ص٥٩٩-٥٨٢

(٢) كان يقف في مسألة خلق القرآن موقفاً وسطاً، فهو يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، لكنه يعتبر اللفظ بالقرآن مخلوق، وهو مناوئ أحمد بن حنبل، وهو القائل فيه: "ايش نعمل بهذا الصبي (ابن حنبل)؟ والأخير يوصفه بالمبتدع (الخطيب، تاريخ بغداد،٨ ص ٦٤.)

(٣) المقاصد الحسنة، ص٣٠٤

(٤) الإبانة عن أصول الديانة، ص٨٩-٨٧

(٥) ولعلَّه، ابن المبارك بن واضح، الفقيه والمحدث والصوفي من أهل خراسان مولى بني حنظلة، له مسند ضخم، توفي السنة١٨١ هـ (مروج الذهب، توضيح المحقق شارل بلا، ٤٧٨/٧.)

(٦) الإبانة عن أصول الديانة، ص٩٦

(٧) حور العين، ٢٤٠

(٨) الفصل في الملل والأهواء والنحل،٣ ص١
(٩) المصدر نفسه، ص٥
(١٠) المغني في أبواب التوحيد والعدل،٧ ص٤
(١١) رسائل ابن تيمية، رسالة الفرقان بين الحق والباطل، ص٢١٨
(١٢) بحار الأنوار،٩٢ ص١١٧
(١٣) المصدر نفسه، ص١١٨
(١٤) المصدر نفسه
(١٥) المصدر نفسه،١١٩
(١٦) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ص٩٧
(١٧) الإنصاف، ص ٧١
(١٨) ابن الجوزي، مناقب معروف الكرخي، ص٨٦
(١٩) المصدر نفسه
(٢٠) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص١٥٩
(٢١) ابن نباتة، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص٢٩٣
(٢٢) الإبانة عن أصول الديانة، ص٨٩

الفصل الثالث

دفاع المعتزلة

وفّر المعتزلة لمقالة خلق القرآن أجواءً فكرية مرتبطة بمقالاتهم الأخرى، وهي: نفي القدر ونفي الصفات، إضافة إلى انهم سعوا إلى تحقيقها عملياً أثناء قربهم من الدولة الممثلة آنذاك بشخص المأمون. وقبل ذكر حيثيات الحدث الذي عرف بمحنة خلق القرآن، نورد رأي المعتزلة، ومن مصدر معتزلي هو القاضي عبد الجبار الاسدابادي.

قال القاضي: "الذي يذهب إليه شيوخنا أن كلام الله عزّ وجلّ من جنس الكلام المعقول في الشاهد، وهو حروف منظومة وأصوات مقطعة، وهو عرض يخلقه الله سبحانه في الأجسام على وجه يسمع، ويفهم معناه، ويؤدي الملك ذلك إلى الأنبياء، بحسب ما يأمر به عزّ وجلّ، ويعلمه صلاحاً. ويشتمل على الأمر والنهي، والخبر وسائر الاقسام، ككلام العباد. ولا يصح عندهم إثبات كلام محدّث مخالف لهذا المعقول أيضاً، على ما يقوله بعضهم من أن كلام الله قائم بنفسه (...) ولا خلاف بين جميع اهل العدل في أن القرآن مخلوق محدّث مفعول، لم يكن ثم كان، وانهُ غير الله عزّ وجلّ، وانه أحدثه بحسب مصالح العباد، وهو قادر على امثاله، وانه يوصف بأنه مخبر به، وقائل وامر وناه من حيث فعله، وكلهم يقول: إنه عزّ وجلّ متكلم به."[1]

وجمع الجاحظ في كتاب "خلق القرآن" آراء أصحابه بقوله: "القرآن على غير ذلك جسم وصوت، وذو تأليف، وذو نظم وتقطيع وخلق قائم بنفسه، مستغن عن غيره، ومسموع في الهوى، ومرئي في الورق، ومفصل وموصول، ذو أجتماع وأفتراق، ويحتمل الزيادة والنقصان، والفناء والبقاء، وكلما احتملته الأجسام ووصفت به الأجرام كل ما كان ذلك فمخلوق في الحقيقة دون المجاز."[2]

واحتج المعتزلة، لخلق القرآن، بآيات قرآنية منها: "ومن قبله كتاب موسى"

(الأحقاف ١٢)، "وكان أمر الله مفعولاً" (النساء ٤٦)، "يدبر الأمر من السماء إلى الأرض" (ألم-السجدة ٥)، "إنا نحن أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون" (الحجر ٩)، "وهذا ذكر مبارك أنزلناه" (الأنبياء٥٠)، وكلم الله موسى تكليما" (النساء ١٦٤)، وقال القاضي في تأويل الآية الأخيرة، وهي أكثر الآيات تعبيراً عن أن القرآن كلام الله: "يدل على حدوث كلامه، لأن كلّم يقتضي أنه أحدث كلاماً كلم به غيره حادث، لأن المصادر لا تكون إلا حادثة."[٣] واحتجوا أيضاً بأحاديث نبوية، منها: "كان الله ولا شيء ثم خلق الذكر"، و"ما خلق الله عزّ وجلّ من سماء، ولا أرض أعظم من آية الكرسي في البقرة"، "لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدوّ مخافة أن تناله أيديهم". قال القاضي إن في الأحاديث المذكورة ما "يدل على حدوث القرآن."[٤] واحتج القاضي على نفاة خلق القرآن بقوله: "إذا جاز كون القرآن قديماً مع كونه أشياء كثيرة مختلفة متجزئة متبعضة، فما الذي يمنع من كون الإنسان على ما يختص به من التركيب والتصوير قديماً."[٥] وقال أيضاً: "وما قدمناه من أن إضافة الكلام إلى المتكلم لا تكون إلا من حيث فعله، يمنع كونه كلامه تعالى قديماً، كما يمنع من كون الإحسان والإنعام قديماً، على أن تجويز جسم قديم من جنس هذه الأجسام، وتجويز ذلك يبطل طريق معرفة حدوث الأجسام، وذلك يؤدي إلى ألا تصح معرفة القديم تعالى أصلاً، فضلاً عن كلامه. ويوجب ذلك تجويز حركة قديمة من جنس الحركات المحدثة، وإثبات معان من جنس الأعراض كلها قديمة معه، وفي هذا فساد الطريق إلى معرفة حدوث الأعراض والأجسام والقديم."[٦] ومثل نفيهم للصفات، حتى لا تكون شريكاً للقديم تعالى بقدمه، نفى المعتزلة قدم كلامه بالمنطق التالي: "إن كلامه تعالى لو كان قديماً لوجب كونه إلهاً، وان ما شاركه في هذه الصفة (القدم) فيجب كونه مشاركاً في سائر الصفات الذاتية."[٧]

وقال القاضي في رده على الأشاعرة، حينما جعلوا كلامه تعالى غيره مع أنه قديم غير مخلوق: "لو ثبت أن القرآن غير الله تعالى، لأنه يختص بصفات تستحيل على الله، لأنه متجزئ، متبعض، له ثلث وربع، مدرك مسموع، محكم مفصل، أمر ونهي، ووعد ووعيد، وقد تعبدنا بتلاوته وحفظه، وكان كذلك يستحيل عليه تعالى،

وما يصح على القديم سبحانه من كونه قادراً عالماً سميعاً بصيراً يستحيل عليه، وذلك يوجب كونه مخالفاً للقديم عز وجل، فبأن يكون غير الله أولى.[٨]" ومثلما أستظل المعتزلة بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، لتأكيد صحة مقولتهم في خلق القرآن، أستظل الأشاعرة بنصوص كثيرة لتثبيت وجهة نظرهم المعارضة، ومنها نفس الآيات والأحاديث. وقال الباقلاني في هذا المضمون: "والذي يدل على نفي خلق القرآن من القرآن قوله تعالى: إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون. فلو كان القرآن مخلوقاً، لكان مخلوقاً بقول آخر، وذلك يوجب أن لا يوجد من الله تعالى فعل أصلاً، إذا كان لابد أن يوجد قبله أفعال، هي أقاويل لا غاية لها، وذلك محال باتفاق منّا ومنهم (المعتزلة.)[٩]" ومن الأحاديث النبوية التي أحتج بها الباقلاني لتفنيد مقولة خلق القرآن، قول النبي: "إن أبا الدرداء لما سأل الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن القرآن، فقال: كلام الله غير مخلوق.[١٠]" وتحت عنوان "إثبات صفة الكلام[١١]" ذكر أحمد البيهقي ايات وأحاديث كثيرة يشير ظاهرها إلى أن القرآن كلام الله قديم لا محدث ولا مخلوق. فمن الآيات: "قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا" (الكهف ١٠٩)، "فأجره حتى يسمع كلام الله" (التوبة ٦)، "يسمعون كلام الله ثم يحرفونه" (البقرة ٧٥)، "يريدون أن يبدلوا كلام الله" (الفتح ١٥)، "لا تبديل لكلمات الله" (يونس ٦٤)، "وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته" (الأنعام ١١٥.) وذكر البيهقي من الحديث النبوي أيضاً: "تكفل الله تعالى لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا في سبيل الله وتصديق كلمته.[١٢]" كذلك أحتج الباقلاني بقول للإمام علي بن أبي طالب يرد به على من طالبه بنقض نتائج التحكيم مع معاوية: "والله ما حكمّت مخلوقاً، وإنما حكمّت القرآن.[١٣]" لكن الخطبة كما وردت في نهج البلاغة هي: "إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خط مستور بين الدفتين، لا ينطق بلسان، ولا بد له من ترجمان، وإنما ينطق عنه الرجال.[١٤]" وبهذا أختلف المعنى، وسقط احتجاج الباقلاني في قول علي بن أبي طالب. ومال الأشاعرة ومن رفض مقولة خلق القرآن

إلى الاحتجاج بالقرآن والحديث النبوي على المعنى الظاهر. لكن المعتزلة ومن أيد مقولتهم ردوا بنفس الاحتجاج مع تأويلهم النصوص. أما عقلياً فأن المعتزلة لا ينظرون إلى القرآن إلا بأنه صفة من صفات الفعل، أي أن الله خلقه بفعله، وهو ليس كلامه القديم، وإن أعترف بعضهم كونه كلام الله فقد أكدوا خلقه لكلامه. ومثال ذلك قال الجاحظ مناظراً أحد الدهريين: "وفي كتابنا المنزل الذي يدلُّنا على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدّلائل التي جاء بها من جاء به."[15] لا يناقض هذا الاعتراف عقيدة الجاحظ في خلق القرآن، كما سيأتي ذكره لا حقاً. وعلى العموم، فأن اختلاف الناس في نزول القرآن وجمعه وعدد سوره وآياته وحروفه، واختلاف القراءات بين أن يكون قراءة واحدة إلى أن يكون سبع قراءات أو عشر، يبدو أنه كان عاملاً مستوراً وراء تبني المعتزلة لمقالة خلق القرآن. كان هذا إضافة إلى أن الكلام صفة للموصوف لا يجوز، حسب منطق نفي الصفات، وصف الله بها.

الهوامش:

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل،٧ ص٣

(٢) كتاب خلق القرآن، سيرد لاحقاً.

(٣) المغني في أبواب التوحيد والعدل، ص ٩٠

(٤) المصدر نفسه، ص٩١

(٥) المصدر نفسه، ص٨٦

(٦) المصدر نفسه، ص١٥

(٧) المصدر نفسه، ص٨٦

(٨) المصدر نفسه

(٩) كتاب التمهيد، ص٢٣٧

(١٠) الإنصاف، ص٧٢

(١١) المصدر نفسه، ص٤٦٣

(١٢) الأسماء والصفات، ص٤٧٨

(١٣) الإنصاف، ص٧٢

(١٤) نهج البلاغة، شرح محمد عبده،٢ ص ٢٧٠خطبة ١٢٣

(١٥) كتاب الحيوان، ٤ ص ٩٠

الفصل الرابع

المقالة والدولة

بعد أن اتخذ المأمون (ت ٢١٨هـ) الاعتزال عقيدة لدولته، بادر إلى تعميم مقالة "خلق القرآن" على المفكرين والفقهاء، ولم يعلن ذلك إلا بعد إشاعة المناظرات الفكرية، التي جرت بين مختلف المذاهب والمنتصر فيها كان مناظري المعتزلة. وأن تعميم المقالة لم يكن بمعزل عن دعم الحركة العلمية والثقافية، التي اقدم عليها الخليفة المذكور، وهيأ لها الأجواء، من إحضار العلماء والمفكرين والمترجمين من شتى أصقاع الدولة، الممتدة أنذاك من بغداد إلى ما بعد النهر، وأقصى شمال أفريقيا، وإلى الهند والسند حتى حدود الصين. كان ذلك إلى جانب إلغاء الإجراءات التي قيد بها أسلافه الكلام والمتكلمين خاصة، والحياة الفكرية عامة. وقد يسأل سائل ما علاقة مقالة "خلق القرآن" بالنشاط العلمي والفكري الذي عزم المأمون على تحقيقه؟ وكما سلف القول، في المقدمة، فإن الفارق كبير بين أن يكون الاعتقاد بالقرآن أنه كلام الله القديم، وبين أن يكون مخلوقاً من مخلوقاته. فالقدسية الخالصة قد لا تسمح بمناقشة أو تأويل ولا حتى تفسير كلمات الله القديمة، والتي قالها قبل أن يخلق البشر، كما ورد في الروايات. مع أن القرآن يدخل في حياة الناس اليومية، أفراحهم وأتراحهم، وفي أدق التفاصيل، لذا يصعب الإقرار بحرية علمية وثقافية تتحدث في كل شيء وتستثني القرآن منها. فما أوردناه من نصوص نقلها الراغب الأصبهاني، و ابن عبد ربه وغيرهما، لا نعني به غير تأكيد مثول القرآن في الحياة الشعبية. وأعتقد أن من يتمثل بالقرآن بتلك الطريقة المحببة يصعب عليه القبول بأنه كلام الله القديم، لكنه الكتاب المقدس الذي خلقه الله و أوحاه للرسول. كما أن الأحاديث والنصوص التي أوردناها، وما عبرت فيه عن عجائبية يصعب تخيلها، كان من دوافعها معارضة فكرة أو مقالة خلق القرآن. وإذا كان من بركة المعتزلة، على حد رواية القاضي التنوخي: "أن صبيانهم لا يخافون الجن" فهم لم يقروا تلك

العجائبية، وحاولوا تقريب الناس من الدين بالعقل لا بخيال منفلت في عالم الماوراء.

عمم المأمون مقالة "خلق القرآن"، وهو يصطاف بالرقة على نهر الفرات من ديار الشام – حيث مكان أبيه المحبب للاصطياف والهروب من سخونة صيف بغداد –بكتابين من رسوم الخلافة إلى نائبه ببغداد، وقيل صاحب شرطته، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم[1]، وكتاب ثالث كان جواباً على ما كتبه النائب بعد امتحانه لجماعة من الفقهاء والقضاة . تشير الكتب الرسمية الثلاثة إلى جدية المأمون في فرض مقالة خلق القرآن بالنظر والجدل أولاً ثم الشدة ثانياً، حتى أفصح في كتابه الثالث عن قطع الرقاب. ومثلما لجأ أصحاب الحديث وتشددهم ضد الكلام والمتكلمين إلى القرآن والسنة، بداية من قتل غيلان الدمشقي لنفيه القدر والقول بالعدل والجعد بن درهم لقوله بخلق القرآن، وحتى تجريد هارون الرشيد حملته ضد المتكلمين، أعتمد المأمون الأسلوب نفسه، فقد ملأ كتبه بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية. كما تشير الكتب المذكورة إلى أن حملة المأمون ضد الفقهاء والمحدثين لم تكن سياسية بحال من الأحوال، بمعنى أنه لم ينتظر منها تحقيق مآرب سياسية، كما هو الحال في مطاردة الأمويين لنفاة القدر، وما يعنيه نفي بالقدر من تحقيق العدل الاجتماعي. فالفقهاء المتحنون لم يظهر أحدهما بمظهر المعارضة للحكم، فما حدث من ثورات في أيام المأمون ثم المعتصم، كثورة فلاحي البصرة وواسط (الزط) وثورة فلاحي أذربيجان والجبال (البابكية) وغيرها كانت أسبابها معروفة، ولم يكن أحداً من الفقهاء والمحدثين مع أحدها. كما نؤكد، من خلال قراءة كتب المحنة، أن المعتزلة غير مسؤولين عنها، إلا أن المأمون تبنى مقالاتهم، فمستشاره القوي ثمامة بن اشرس قد توفي قبل أعلان المحنة بحوالي خمس سنين، وان غيره لم يتسلم مركزاً هاماً بالسلطة، أعني من شيوخ الاعتزال، ما عدا أحمد بن دؤاد وكان قاضياً بعد اعلان المحنة بسنوات. لكن الذين تحدثوا عن دور المعتزلة في المحنة، اعتمدوا رأي الحنابلة وأصحاب الحديث والمتضررين الآخرين فكرياً منها. فاظهروا المعتزلة إرهابيين، حتى تناسوا ظلم هارون الرشيد وقبله

المهدي ضد المخالفين وكل المعتزلة كانوا زنادقة بعرفهم. إن قراءة الكتب الثلاثة وفقاً لتصوراتنا المعاصرة، تشير إلى إرهاب فكري، ومحنة حقيقة لأصحاب الرأي الآخر. ولكنه كان أخف إرهاب فكري وأرحم امتحان بالمقارنة بمجازر العصر الأموي والعباسي. إن الانفتاح الذي دأب المأمون على تحقيقه بمساعدة المعتزلة كان كفيلاً بانحسار أمر المحنة، إلا أنها بوفاته وصعود المعتصم، الذي لم يعرف عنها غير أنها أرث سلفه أخذت منحى آخر، حتى أن شيوخ المعتزلة ابتعدوا عن مجارات السلطة. ففي أيام الواثق، الذي ظل على القول بخلق القرآن، أفتى شيخ المعتزلة البغداديين بتحريم مجالسة السلطة، وكذلك فعل الجعفران، كما سلف التعرض إلى ذلك. وصف ابن طيفور الكتاب الأول في "كتاب بغداد"، والطبري في "تاريخ الأمم والملوك": أنه أول كتاب في المحنة.

وهذا نص كتاب المأمون الأول كما أورده ابن طيفور، مع مطابقته عند الطبري: "أما بعد، فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استخلفهم، ومواريث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم، والعمل بالحق في رعيته، والتشمير لطاعة الله فيهم. والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته الإقساط فيما ولاه الله في رعيته برحمته ومنته. وقد عرف أمير المؤمنين، أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له، ولا رؤية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته. ولا استضاء بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله، وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه، وواجب سبيله، وقصور أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، بضعف آرائهم ونقص عقولهم، وخفائهم عن التفكير والتذكير. وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن، وأطبقوا مخضعين، واتفقوا غير متجامعين على أنه قديم أول، لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه. وقد قال تبارك وتعالى في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء، وللمؤمنين هدى ورحمة: "إنا جعلناه قرآناً عربياً" (الزخرف ٢)،

فكل ما جعله الله فقد خلقه الله. وقال: "الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون" (الأنعام ١) وقال: عز وجل: "كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق" (طه ٩٩)، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثها بعده، وتلا بها متقدمها. وقال: "الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" (هود ١) وكل محكم مفصل فله محكم مفصل. والله جل وعز محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه، ثم هم أولئك الذين جادلوا بالباطل إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنّة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم، ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونحلتهم، ثم أظهر مع ذلك أنهم هم أهل الحق والدين والجماعة، وان من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة.

فاستطالوا بذلك على الناس، وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت[٢] الكاذب التخشع لغير الله، والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطاتهم على سيء آرائهم تزيناً بذلك عندهم، وتصنعاً للرئاسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم. واتخذوا دون هدى الله وليجة إلى ضلالتهم، فقبلت بتزكيتهم لهم شهاداتهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم، وبطل اديمهم وفساد نياتهم، وتفننهم، وكان ذلك غايتهم التي إليها اجروا، وإياهم طلبوا في متابعتهم، والكذب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ألا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه: "أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى ابصارهم افلا يتدبرون القران أم على قلوب اقفالها" (محمد ٢٣-٢٤) فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، ورؤوس الظلالة، والمنقوصون من التوحيد حظاً، والمخسوسون من الإيمان نصيباً وأوعية الجهالة، وأعلام الكذب، ولسان ابليس الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه من أهل دين الله، واحق من أتهم في صدقه، واطرحت شهادته، ولم يوثق بقوله ولا عمله. فإنه لا عمل إلا بعد رشده وحفظه من الإيمان بالله وبتوحيده، كان عما سوى ذلك من عمله والقصد من شهادته أعمى واضل سبيلا. ولعمر أمير المؤمنين إن أحجي الناس بالكذب في قوله، وتخرص الباطل في شهادته من كذب على الله و وحيه، ولم يعرف الله حقيقة معرفته. وأن

أولاهم أن يرد شهادة الله جل وعز على كتابه، ويهت حق الله بباطله.

فأجمع من بحضرتك من القضاة وأقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وأبدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله، واستحفظه في أمور رعيته من لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه. فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنظر من يحضرتهم من الشهود على الناس، ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك الإثبات بشهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث، ولم يروا الامتناع من توقيعها عنده. واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك من قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك، ثم اشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين، والإخلاص للتوحيد. واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك. كُتب في شهر ربيع الأول سنة ثماني عشرة ومائتين.[٣]"

وفي نفس الشهر من نفس السنة وصل كتاب المأمون الثاني، في محنة خلق القرآن، إلى نائبه ببغداد، طلب فيه مثول "سبعة نفر منهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي (صاحب كتاب الطبقات الكبرى)، وابو مسلم مستملي (الذي يملي عليه) يزيد بن هارون[٤]، ويحيى بن معين[٥]، وزهير بن حرب أبو خيثمة[٦]، وإسماعيل بن داوود[٧]، وإسماعيل بن أبي مسعود[٨]، وأحمد بن الدورقي.[٩] فأشخصوا إليه فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن. فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق، فأشخصهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره، فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فأقروا بمثل ما أجابوا المأمون، فخلى سبيلهم.[١٠]"

الكتاب الثاني:

"أما بعد، فإن من حق الله على خلفائه في أرضه وأمنائه على عباده، الذين ارتضاهم لإقامة دينه، وحملهم رعاية خلقه وإمضاء أحكامه وسننه، والائتمام

بعدله في بريته أن يجهدوا الله أنفسهم، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم، ويدلوا عليه. تبارك أسمه وتعالى، بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفة التي جعلها فيهم، ويهدوا إليه من زاغ عنه، ويردوا من أدبر عن أمره، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم. ويقفوهم على حدود إيمانهم، وسبل فوزهم وعصمتهم، ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم، ومشتبهاتها عليهم، بما لا يدفع عنهم، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم، وان يؤثروا ذلك من أرشادهم وتبصيرهم، إذ كان جامعاً لفنون مصانعهم، ومنتظماً لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم (الدنيا والآخرة)، ويتذكروا ما الله مرصد به من مسائلتهم عما حملوه، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده. وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده وحسبه الله وكفى. ومما بينه أمير المؤمنين برويته وطالعه بفكره ونظره. فتدس[11] عظيم خطره وجليل ما يرجع في الدين من وكفه وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن، الذي جعله الله إماماً[12] لهم، وأثراً من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وصفيه محمد، صلى الله عليه وسلم، باقياً لهم، واشتباهه على كثير منهم حتى حسن عندهم، وتزين في عقولهم ان لا يكون مخلوقاً. فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذي بان به عن خلقه، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدم عليها بأوليته، التي لا يبلغ أولاها، ولا يدرك مداها، وكان كل شيء دونه خلقاً من خلقه، وحدثاً هو المحدث له. وإن كان القرآن ناطقاً به ودالاً عليه، وقاطعاً للاختلاف فيه، وضاهوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى بن مريم، صلوات الله عليه، إنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، والله عز وجل يقول: "إنا جعلناه قرآناً عربياً" (الزخرف ٢)، وتأويل ذلك إنا خلقناه. كما قال جل ثناه: "ومن اياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها" (الروم ٢١) وقال: "وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً" (النبأ ١٢-١١) وقال: "وجعلنا من الماء كل شيء حي" (الأنبياء ٣٠) فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق، التي ذكرها في شية (هكذا وردت) الصنعة، وأخبر أنه جاعله وحده فقال: "بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ" (البروج ٢١) فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ولا

يحاط إلا بالمخلوق. وقال لنبيه، صلى الله عليه وسلم: "لا تحرك به لسانك لتعجل به" (القيامة ١٦) وقال: "ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث" (الأنبياء ٢) وقال: "ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته" (الأنعام ٢١)، وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا: "ما أنزل الله على بشر من شيء" (الأنعام ٩١)، ثم كذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: "قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى" (الأنعام ٩١).

فسمى الله تعالى القرآن قرآناً، وذكراً وإيماناً ونوراً وهدى ومباركاً وعربياً وقصصاً، فقال: "نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن" (يوسف ٣) وقال: "لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله" (الأسراء ٨٨) وقال: "قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات" (هود ١٣) وقال: "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه" (فصلت ٤٢) فجعل له أولاً وآخر ودل عليه أنه محدود مخلوق. وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثلم في دينهم، والحرج في أمانتهم، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده، وشبهوه به والاشباه أولى بخلقه. وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظاً في الدين، ولا نصيباً من الإيمان واليقين، ولا يرى أن يحل أحداً منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة، ولا شهادة، ولا صدق في قول ولا حكاية ولا توليته لشيء من أمر الرعية. وأن ظهر قصد بعضهم وعرف بالسداد مسدد فيهم، فأن الفروع مردودة إلى أصولها، ومحمولة في الحمد والذم عليها، ومن كان جاهلاً بأمر دينه الذي أمره الله به، من وحدانيته فهو بما سواه أعظم جهلاً، وعن الرشد في غير أعمى وأضل سبيلا.[١٣] (...) من كل فتنة فانه إن يفعل فأعظم بها نعمة، وإن لم يفعل فهي الهلكة، وليس لأحد على الله حجة. ونحن نرى أن الكلام في القرآن بدعة يشارك فيها السائل والمجيب، فيتعاطى السائل ما ليس له، ويتكلم المجيب بما ليس عليه. وما أعرف خالقاً إلا الله وما دون الله فمخلوق. والقرآن كلام الله، فانته بنفسك وبالمختلفين في القرآن إلى

أسمائه التي سماه الله بها تكن من المهتدين، وذر الذين يلحدون في أسمائه سيجزون بما كانوا يعلمون. ولا تسم القرآن باسم من عندك فتكون من الضالين. جعلنا الله وإياك من الذين يخشونه بالغيب وهم من الساعة مشفقون."[14] انتهى نص الكتاب الثاني.

ونقرا عند الطبري تكملة لكتاب المأمون الثاني إلى نائبه ببغداد: "فاقرأ على جعفر بن عيسى[15]، وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي[16] كتاب أمير المؤمنين، بما كتب به إليك وانصصهما عن علمهما في القرآن، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق. فإن قالا بقول أمير المؤمنين في ذلك، فتقدم إليهما في امتحان من يحضر مجلسهما بالشهادات على الحقوق، ونصهم عن قولهم في القرآن. فمن لم يقل منهم أنه مخلوق أبطل شهادته، ولم يقطعا حكماً بقوله، وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد في أمره. وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافاً يزيد الله به البصيرة في بصيرته، ويمنع المرتاب من إغفال دينه، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله."[17]

الهوامش:

(١) ذكر اسم هذا المسؤول، نائباً للمأمون على بغداد ومرة رئيس شرطته، وكان يمتحن الفقهاء في خلق القرآن، ومنهم أحمد بن حنبل. وظل حتى وفاة الواثق يمتحنهم في خلق القرآن. وهو "كاتب عباسي، تولى شرطة بغداد، فاستمر على وظيفته إلى أيام المتوكل، كان ابن عم طاهر بن الحسين" (مروج الذهب ومعادن الجوهر، من توضيحات محقق الكتاب المستشرق شارل بلا،٦ ص ٤٢٣.) وطاهر كان قائد جيش المأمون في حربه مع أخيه الأمين، وظل نائباً له حتى وصوله من خراسان.

(٢) الطريق

(٣) الكاتب أحمد بن طيفور، كتاب بغداد، ص. ١٨٢–١٨٠الطبري، تاريخ الأمم والملوك،٤ ص ١٩٥-١٩٧

(٤) أبو خالد بن زاذي، عراقي من اهل واسط من موالي آل السلمي، لقب بشيخ الإسلام، ووصف راساً بالعلم وكبير الشأن، توفي السنة٢٠٦ هـ (سير أعلام النبلاء،٩ ص ٣٥٨.)

(٥) ابو زكريا يحيى بن معين بن عون البغدادي (ت٢٣٣هـ)، من الموالي، أصله من سرخس، من كبار المحدثين، ذكره ابن حنبل بقوله: "أعلمنا جميعاً" ومن كلامه، كتبت بيدي ألف ألف حديث (الزركلي، الأعلام)

(٦) اورده ابن طيفور أحد السبعة، لكن الطبري يعد أبا خيثمة كنية لزهير بن حرب، وهو الصحيح، كون الأنفار سبعة لا ثمانية، كما ورد الرقم في المصدرين. وأبو خيثمة زهير بن حرب بن شداد النسائي بغدادي حدث عن سفيان بن عيينة الكوفي، ولغير بن كبار المحدثين، ويوصف بالثقة والحفظ المتقن، توفي السنة ٢٣٤ هـ في خلافة المتوكل (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٨ ص ٤٨٢هـ.)

(٧) ويلقب بالجوزي، محدث بغدادي (الخطيب، تاريخ بغداد، ٦ ص ٢٤٧)

(٨) أبو إسحاق، محدث بغدادي ثقة، وكاتب الواقدي، والمؤرخ المذكور أكثر من كاتب، وأبرزهم إبن سعد صاحب الطبقات الكبرى.

(٩) أبو عبد الله يعقوب بن إبراهيم بن كثير العبدي، حافظ ثقة، توفي ٢٥٢ هـ (الحنبلي، شذرات الذهب، ٢ ص ٣١١.)

(١٠) كتاب بغداد، ص١٨٣، تاريخ الأمم والملوك، ٤ ص ١٩٧

(١١) وردت عند الطبري فتبين

(١٢) من أسماء القرآن

(١٣) حسب إشارة المحقق هناك نقص في الأصل.

(١٤) كتاب بغداد، ص١٨٦-١٨٣

(١٥) ابن عبد الله بن أبي الحسن البصري، المعروف بالحسنى، تولى قضاء الجانب الشرقي ببغداد أيام المأمون والمعتصم، توفي ببغداد ٢١٩هـ (الخطيب، تاريخ بغداد، ٧ ص ١٦٠.)

(١٦) كان من أصحاب الرأي تولى قضاء الرقة من بلاد الشام، ومدينة المنصور، وشرق بغداد، بعد عزل حفيد الإمام أبي حنيفة النعمان إسماعيل بن حماد، توفي السنة ٢٣٢ هـ (تاريخ بغداد، ١٠ ص ٢٦٠.)

(١٧) تاريخ الأمم والملوك، ٤ ص ١٩٩-٢٠٠

الفصل الخامس

تفاصيل المحنة

كان عدد الذين أحضرهم إسحاق بن إبراهيم للامتحان من الفقهاء والقضاة والمحدثين ستة وعشرين نفراً منهم القاضي بشر بن الوليد الكندي[1]، وأحمد بن حنبل.[2] "فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين حتى فهموه.[3]" وفي امتحان القاضي بشر ورد التالي:

إسحاق: ما تقول في القرآن؟

بشر: عرفتُ مقالتي لأمير المؤمنين غير مرة!

إسحاق: تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى.

بشر: أقول القرآن كلام الله.

إسحاق: لم أسألك عن هذا! أمخلوق هو؟

بشر: الله خالق كل شيء.

إسحاق: ما القرآن شيء؟

بشر: هو شيء.

إسحاق: فمخلوق؟

بشر: ليس بخالق.

إسحاق: ليس أسألك عن هذا! أمخلوق هو؟

بشر: ما أحسن غير ما قلت لك، وقد أستعهدت أمير المؤمنين أن لا أتكلم فيه، وليس عندي غير ما قلت لك! وقرأ عليه رقعة جاء فيها: "أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً، لم يكن قبله شيء، ولا بعده شيء، ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه.[4]" فأقر بشر بن الوليد ما ورد في الرقعة، وهو عقيدة المعتزلة في التوحيد. ثم تقدموا واحداً بعد الآخر حتى نودي على الإمام أحمد بن حنبل.

إسحاق: ما تقول في القرآن؟

ابن حنبل: كلام الله.

إسحاق: أمخلوق هو؟

ابن حنبل: كلام الله لا أزيد عليها.

"فأمتحنه بما في الرقعة، فلما أتى على ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأمسك عن لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه. فأعترض إبن البكاء الأصغر (أحد المتحَنين)، فقال (لإسحاق بن إبراهيم): اصلحك الله، أنه يقول: سميع من إذن بصير من عين (عقيدة التجسيم).[٥]

إسحاق: ما معنى قوله سميع بصير؟

ابن حنبل: هو كما وصف نفسه.

إسحاق: فما معناه؟

ابن حنبل: لا أدري، هو كما وصف نفسه.

ومن طريف ما حدث في محاكمة هؤلاء النفر، "أن ابن البكاء الأكبر قال: "القرآن مجعول، لقول الله تعالى: إنا جعلناه قرآناً عربياً، والقرآن محدث لقوله: ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث. قال له إسحاق: فالمجعول مخلوق، قال: نعم، قال: فالقرآن مخلوق. قال: لا أقول: مخلوق ولكنه مجعول[٦]" لأن الجعل ورد في القرآن والخلق لم يرد فيه.

الكتاب الثالث: "جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم ونسخته" بعد امتحانه للفقهاء والمحدثين: "أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه كان إليك فيما ذهب إليه متصنعة أهل القبلة، وملتمسو الرئاسة فيما ليسوا بأهل من أهل الملة من القول في خلق القرآن، وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم، وتكشيف أحوالهم واحلالهم محالهم. تذكر إحضارك جعفر بن عيسى، وعبد الرحمن بن إسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين مع من أحضرت، ممن كان ينسب إلى الفقه، ويعرف بالجلوس للحديث، وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام. وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن،

والدلالة لهم على حظهم، وأطباقهم على نفي التشبيه، واختلافهم في القرآن.

وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث، والفتوى في السر والعلانية. وتقدمك إلى السنديّ وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدمت به فيهم إلى القاضيين بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين من امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود، وبث الكتب إلى القضاة في النواحي من عملك، بالقدوم عليك لتحملهم وتمتحنهم على ما حده أمير المؤمنين، وتثبيتك في آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم. وفهم أمير المؤمنين ما أقتصصت، وأمير المؤمنين يحمد الله كثيراً، كما هو أهله، ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد، صلى الله عليه وسلم، ويرغب إلى الله في التوفيق لطاعته وحسن المعونة على صالح نيته برحمته.

وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن، وما رجع إليك فيه كل مرئ منهم، وما شرحت من مقالتهم. فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وأدعى من تركه الكلام في ذلك، وأستعهاده أمير المؤمنين، فقد كذب بشر (ابن الوليد) في ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك، ولا في غيره عهدٌ ولا نظرٌ، أكثر من أخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص، والقول بأن القرآن مخلوق. فادع به إليك وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وأنصصه عن قوله في القرآن، وأستتبه منه، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصرّاح، والشرك المحض عند أمير المؤمنين. فإن تاب منها فاشهر أمره وامسك عنه، وإن أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده فاضرب عنقه، وأبعث إلى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله.

وكذلك إبراهيم بن المهدي[2] فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشراً، فإنه كان يقول بقوله، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ. فإن قال: إن القرآن مخلوق فاشهر أمره وأكشفه، وإلا فاضرب عنقه وأبعث إلى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله. وأما علي بن أبي مقاتل، فقل له: ألست القائل لأمير المؤمنين إنك تحلل وتحرم،

والمكلم له بمثل ما كلمته به، مما لم يذهب عنه ذكره.

وأما الذيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار، وفيما يستولي عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله، وانه لو كان مقتفياً آثار سلفه، وسالكاً مناهجهم، ومحتذياً سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه. وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوام، وقوله أنه لا يحسن الجواب في القرآن، فسيحسنه إذا أخذه التأديب، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك، إن شاء الله. وأما أحمد بن حنبل، وما تكتب عنه فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة، وسبيله فيها، واستدل على جهله وآفته بها. وأما الفضل بن غانم[8]، فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، وما اكتسب من لأموال في أقل من السنة، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله في ذلك، فإنه من كان شأنه، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته) هكذا وردت. (فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما، وإيثار لعاجل نفعهما، وأنه مع ذلك القاتل لعلي بن هشام ما قال، والمخالف له فيما خالفه فيه، فما الذي حال به عن ذلك، ونقله إلى غيره. وأما الزيادي[9]، فأعلمه انه كان منتحلاً، ولا اول دعي كان في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وكان جديراً أن يسلك مسلكه. فأنكر ابو حسان أن يكون مولى لزياد او يكون مولى لأحد من الناس، وذكر انه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور. وأما المعروف بأبي نصر التمار[10] فإن أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بنجاسة متجره. وأما الفضل بن الفرخان، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع، التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره، تربصاً بمن أستودعه، وطمعاً في الإستكثار لما صار في يده، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده، وتطاول الأيام به. فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا، وإيمانك إياه، وهو معتقد للشرك، منسلخ من التوحيد. وأما محمد بن حاتم[11]، وابن نوح، والمعروف بأبي معمر[12] فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله، ومجاهدتهم إلا لاربائهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لأستحل ذلك. فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركاً وصاروا للنصارى مثلاً. وأما أحمد بن شجاع فأعلمه انك صاحبه بالأمس،

والمستخرج منه ما استخرجته من المال، الذي كان أستحله من مال علي بن هشام، وأنه من الدينار والدرهم دينه. وأما سعدويه الواسطي[١٣]، فقل له: قبح الله رجلاً بلغ به التصنع للحديث والتزين به، والحرص على طلب الرئاسة فيه، أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها متى يمتحن فيجلس للحديث.

وأما المعروف بسجادة[١٤] وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث، وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى، وحكه لإصلاح سجادته، وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى[١٥] وغيره، ما أذهله عن التوحيد، وألهاه ثم سله عما كان يوسف بن أبي يوسف[١٦] ومحمد بن الحسن يقولانه، أن كان شاهدهما وجالسهما. وأما القواريري[١٧] ففيما تكشف من أحواله، وقبوله الرشا والمصانعات، ما أبان عن مذهبه، وسوء طريقته وسخافة عقله ودينه، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولى لجعفر بن عيسى في رفضه، وترك الثقة به، والاستنامة إليه. وأما يحيى بن عبد الرحمن العمري فانه كان من ولد عمر بن الخطاب، فجوابه معروف. وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم فانه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة، التي حكيت عنه، وأنه بعدُ صبي يحتاج إلى تعلم. وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبي مسهر[١٨]، بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن، فجمجم عنها، ولجلج فيها حتى دعي له أمير المؤمنين بالسيف، فأقر ذميماً. فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيماً عليه فأشهر ذلك وأظهره، إن شاء الله.

ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي فاحملهم أجمعين موثوقين إلى عسكر أمير المؤمنين، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف، إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة[١٩] بندارية، ولم ينظر به اجتماع

الكتب الخرائطية، معجلاً به تقرباً إلى الله عز وجل، بما أصدر من الحكم، ورجاء ما أعتمد وأدراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه. فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بندارية، مفردة عن سائر الخرائط، لتعرف أمير المؤمنين ما يعلمونه، إن شاء الله.[20]" انتهى نص الكتاب الثالث.

وبعد قراءة كتاب المأمون على الممتحنين من الفقهاء والمحدثين" أجاب القوم كلهم حين أعاد القول عليهم إلى أن القرآن مخلوق، إلا أربعة نفر منهم أحمد بن حنبل، وسجادة، والقواريري، ومحمد بن نوح.[21] فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشدوا في الحديد، فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً، يساقون في الحديد، فأعاد عليهم المحنة، فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده، وخلى سبيله، وأصر الآخرون على قولهم. فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضاً، فأعاد عليهم القول، فأجاب القواريري إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده، وخلى سبيله. وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما (...) فشدا جميعاً في الحديد، ووُجّها إلى طرسوس.[22]" لكن وفاة المأمون كانت مفاجئة أنقذت رافضي مقالة خلق القرآن من مصير مأساوي. فسيروهم من طرسوس إلى الرقة ثم إلى بغداد، حيث ينتظرهم امتحان أبي إسحاق المعتصم بن الرشيد.

الهوامش:

(١) أبو الوليد بشر بن الوليد بن خالد الكندي، أخذ الفقه عن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، تولى قضاء شرق بغداد، ثم قضاء مدينة المنصور. اختلف مع قاضي القضاة يحيى بن أكثم، فشكا الأخير أمره إلى المأمون. وناشد أخو المأمون بالرضاعة أبو محمد اليزيدي أخاه لعزل بشر بن الوليد مفضلاً عليه المعتزلي عيسى المردار بقوله:

يا أيها الملك الموحد ربه
قاضيك بشر بن الوليد حمار
فاعزله واختر للرعية قاضياً
فلعل من يرضى ومن يختار
لكن من جمع المحاسن كلها
كهل يقال لشيخه المردار

(٢) أحمد بن حنبل(١٦٤-٢٤١ هـ)، الذي عرف باسمه المذهب الحنبلي، كان موالياً من مرو

ببلاد فارس، ولد ببغداد، وكان أبوه والياً على سرخس، لكنه ينسب نفسه إلى بني شيبان. طاف متعلماً في عدة بلدان، وسمع من محمد أدريس الشافعي، ويزيد بن هارون الواسطي وغيرهم (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد،٦ ص ٤١٢.)

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ص٢٠٠

(٤) المصدر نفسه

(٥) المصدر نفسه، ص٢٠١

(٦) المصدر نفسه، ص٢٠٢-٢٠١

(٧) أمير عباسي، والده المهدي بن المنصور وأمه شكلة، حاول أن يأخذ لنفسه البيعة بعد وفاة هارون الرشيد، ولقبه أنصاره بالمبارك، وقد تولى ولاية دمشق أعواماً، طارده المأمون ثم عفا عنه، وتوفي السنة٢٤٤ هـ. وقال فيه الشاعر دعبل:

نفر ابن شكلة بالعراق وأهلها

وهفا إليه كل أطلس مائق

إن كان إبراهيم مضطلعاً بها

فلتصلحن من بعده لمخارق*

(* مغني في ذلك العصر)

(٨) ابو علي الخزاعي، مرزوي الأصل، بغدادي النشأة، حدث عن مالك بن أنس وأبي يوسف القاضي، وسفيان بن عيينة وغيرهم. قدم مصر وولي القضاء بها، توفي ببغداد السنة٢٢٧ هـ أو٢٣٦ هـ (ابن الجوزي، المنتظم،(٢٠/١١) الخطيب، تاريخ بغداد، ١٢/٣٥٧.)

(٩) قاضي بغداد، أبو حسان الحسن بن عثمان البغدادي، سمي بالزيادي نسبة إلى زياد بن ابيه، وهذا ما عيره به المأمون في كتابه. فكان جده تزوج جارية للمذكور. تولى قضاء شرقي بغداد أيام المتوكل، قال عنه احمد بن حنبل: "لا اعرفه اليوم" لأنه أصبح خاصة قاضي القضاة احمد بن أبي دؤاد المعتزلي، توفي السنة٢٤٢ هـ (سير أعلام النبلاء،١١ ص ٤٩٦.)

(١٠) عبد الله بن عبد العزيز، سمع عن مالك بن انس، وروى عن مسلم بن الحجاج في الصحيح، وكان زاهداً ثقة، توفي السنة٢٢٨ هـ (ابن الجوزي، المنتظم،١١ ص ٢٠.)

(١١) أبو عبد الله محمد بن حاتم بن ميمون المرزوي البغدادي، سمع سفيان بن عيينة و وكيع بن الجراح وغيرهما من كبار محدثي وفقهاء زمانه. وقيل له كتاب في تفسير القرآن، كتبه الناس عنه، وكان ينزل محلة قطيع الربيع من بغداد، توفي السنة٢٣٥ هـ (سير اعلام النبلاء،١١ ص ٤٥٠.)

(١٢) عبد الله بن عمرو بن أبي الحجاج المنقري البصري، المعروف بالمقعد، كان راوية حديث مقل، وصف بالثقة، وكان يقول بنفي القدر، توفي السنة٢٢٤ هـ (شذرات الذهب،٢ ص ١١٠.)

(١٣) سعيد بن سليمان الحافظ، كان بزازاً، وكان ابن حنبل يبغضه، فقد أجاب بخلق القران تقية وهو من أهل السنة، توفي السنة٢٢٥ هـ (سير أعلام النبلاء،١٠ ص ٤٨١.)

(١٤) أبو علي الحسن بن حماد بن كسيب الحضرمي البغدادي، كان يقول أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وذكره أحمد بن حنبل بقوله: صاحب سنة. توفي السنة٢٤١ هـ (الذهبي، سير أعلام النبلاء،١١ ص ٣٩٢.)

(١٥) لعله بن أبي منصور المنجم، كان راوية للأخبار والأشعار، وشاعراً حسناً، أخذ عن إسحاق الموصلي الأدب وصنعة الغناء، وكان من خاصة ندماء جعفر المتوكل، ومن بعده من الخلفاء، توفي بسامراء لخر ايام المعتمد (تاريخ بغداد،١٢ ص ١٢٢-١٢١.) والذي جعلنا نميل إلى أنه المقصود بكتاب المأمون لأنه من ندماء المتوكل، وهو الوحيد من بين أشخاص عرفوا بهذا الاسم كان معاصراً للمأمون.

(١٦) القاضي، تولى قضاء غربي بغداد في حياة والده قاضي القضاة يعقوب (صاحب كتاب الخراج)، وكان كوالده من أصحاب الراي، توفي ببغداد السنة١٩٢ هـ (تاريخ بغداد،١٤ ص ٢٩٦.)

(١٧) عبيد الله بن عمر بن ميسرة، من موالي البصرة، ويلقب بالزجاج، اقام ببغداد وأخذ عنه يحيى بن معين واحمد بن حنبل وابن سعد (كاتب الواقدي)، توفي ببغداد السنة٢٣٥ هـ (سير اعلام النبلاء، ٤٤٢.)

(١٨) عبد الأعلى بن مسهر الغساني، راوية في المغازي وأيام الناس، حمله المأمون للامتحان بخلق القرآن، واصر على الرفض، ولكنه اقر بعد ذلك، ولا ندري لماذا توفي السجن بعد إقراره بخلق القرآن، إلا أن يكون رفض ذلك، توفي السنة٢١٨ هـ (الخطيب، تاريخ بغداد)،١١/٧٢، و(الحنبلي، شذرات الذهب،٢ ص٩٠.)

(١٩) كيس يصنع من الجلد والقماش، تحفظ فيه الرسائل الرسمية "كتب السلطان وعماله" (لسان العرب،٧ ص ٢٨٦.) ولأهمية كتبه في هذه القضية اوصى المأمون نائبه أن ترسل رسائله في خريطة مفردة عن سائر الخرائط، وأن لا تنتظر حتى يجتمع البريد، كما جرت العادة.

(٢٠) تاريخ الأمم والملوك، ٤ ص ٢٠٢-٢٠٥

(٢١) العجلي، ابن أبي الرجال بن المضروب، بهذا عرف والده، كان أحد المشتهرين بالسنة، وقليل رواية الحديث، وكان جاراً ببغداد لأحمد بن حنبل، وخرج الاثنان إلى الرقة يوم طلبهما المأمون للإمتحان في القرآن على بعير واحد "متزاملين"، مرض اثناء العودة إلى بغداد، بعد وفاة المأمون، ومات بعانة، وقال ابن حنبل: "صليت عليه ودفنته" (تاريخ بغداد،٢ ص ٣٢٢.)

(٢٢) تاريخ الأمم والملوك، ٤ ص٢٠٥-٢٠٢

الفصل السادس

شهادة ابن حنبل

كان أحمد بن حنبل أبرز ممتحن في مقالة الخلق القرآن، لما خصته الرواية التاريخية دون غيره من الممتحنين، فأصحابه على ما يبدو كثيرون. وقبل أن نأتي إلى رواية الجاحظ المضادة، كما وردت في كتاب "خلق القرآن" نذكر ما أورده ابن الجوزي (فقيه ومؤرخ حنبلي بغدادي، من أعيان القرن السادس الهجري) في ما حصل لابن حنبل بعد وفاة المأمون، وامتحان المعتصم له. وكما ذكرنا فإن الباقين على رفضهم لتلك المقالة هما: أحمد بن حنبل و محمد بن نوح، ومات الثاني وهما في الطريق مع محبوسين آخرين، بعد وصولهم إلى عانات (عانة: مدينة في أعالي الفرات غرب العراق) فدفن فيها، ولا ندري إن أقام له العانيون مزاراً أم لا.

لم يبق من الذين عادوا إلى بغداد مصراً على قوله في قدم القرآن غير ابن حنبل. وجاء في رواية صالح بن أحمد بن حنبل: "صار أبي إلى بغداد وهو مقيد، فمكث بالياسرية أياماً، ثم صار إلى الحبس، في دارٍ اكتريت له عند دار عمارة، ثم نقل بعد ذلك إلى حبس العامة، في درب الموصلي، وفي رواية في درب يعرف بالموصلية.[1]" وذكر الراوي نفسه": قال أبي: كنت أصلي بأهل السجن وأنا مقيد.[2]"

وبتفاصيل أكثر يسرد أحمد بن حنبل يومياته في المحنة، برواية ولده صالح: "قال أبي: لما كان في شهر رمضان سنة تسع عشرة، حُولتُ إلى دار إسحاق بن إبراهيم، يوجه إليّ في كل برجلين، أحدهما يقال له أحمد بن رباح، والآخر أبو شعيب الحجام، فلا يزالان يناظراني، حتى إذا أرادا الانصراف دُعي بقيد فزيد في قيودي، فصار في رجله أربعة أقياد.[3]" وكانت مناظراته معهم كالتالي: دخل عليه رسول الخليفة المعتصم، فبادر إبن حنبل إلى السؤال: "ما تقول في علم الله؟

قال: علم الله مخلوق، فقلت له: كفرت.[4]" ولما وصل أمر حمله إلى ديوان المعتصم، قال له إسحاق بن إبراهيم: "يا أحمد، إنها والله نفسك، إنه لا يقتلك بالسيف، إنه قد آلى إن لم تجبه أن يضربك ضرباً بعد ضربه وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس، أليس قد قال الله عز وجل: إنّا قد جعلناه قرآناً عربياً. أفيكون مجعولاً إلا مخلوقاً؟ وبعد الوصول إلى دار المعتصم نوديَ عليه ليجيب الخليفة، وكان قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد[5] حاضراً المجلس، وقد سأل ابن حنبل أحد الفقهاء الشافعيين من الحضور: أي شيء تحفظ عن الشافعي في المسح؟ فرد قاضي القضاة بقوله: "انظروا رجلاً هو ذا يقدم به لضرب العنق يناظر في الفقه.[6]" ثم أوكل المعتصم عبد الرحمن بن إسحاق وجماعة من الحضور امتحانه بحضرته، وقد أوردها ابن الجوزي في نص كبير نلخصه بالتالي:

الممتحن: ما تقول في القرآن؟

ابن حنبل: ما تقول في علم الله؟ لم يرد عبد الرحمن على السؤال.

الممتحن: أليس قد قال الله: الله خالق كل شيء، والقرآن أليس هو شيء؟

ابن حنبل: قال الله عزّ وجلّ: تُدَمِّر كل شيءٍ بأمر ربها. فدمّرت إلا ما أراد الله عز وجل.

الممتحن: قال الله عز وجل: ما يأتيهم من ذِكرٍ من ربهم محدث. أفيكون محدثٌ إلا مخلوقاً؟

ابن حنبل: قال الله عز وجل: ص والقرآن ذِي الذّكر، والذكر هو القرآن، وتلك ليس فيها ألف ولا لام.

الممتحن: إن الله خلق الذكر.

ابن حنبل: هذا خطأ، حدثنا غير واحد، أن الله عز وجل كتب الذكر.

الممتحن: جاء في الحديث المرفوع إلى إبن مسعود: "ما خلق الله عز وجل من جنة ولا نار ولاسماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي."

ابن حنبل: إنما يوقع الخلق على الجنة والنار والأرض ولم يقع على القرآن.

الممتحن: حدثنا حديث خباب: "يا هنتاه تقرب إلى الله بما استطعت، فإنك لن

تتقرب إليه بشيء أحب من كلامه."

ابن حنبل: هذا كذا هو!

ينظر أحمد بن أبي دؤاد إليه بغضب! في كل رد يرد به ابن حنبل على الممتحنين، ويقول: "يا أمير المؤمنين، هو والله ضال مضل مبتدع"! فيرد المعتصم بقوله: كلموه، ناظروه.

المعتصم: ويحك يا أحمد؟

ابن حنبل: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل، أو سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى أقول به.

ابن أبي دؤاد: وأنت لا تقول إلا ما في كتاب الله أو سنّة رسول الله؟

ابن حنبل: كما تأولت تأويلاً فأنت أعلم، وما تأولت ما يحبس عليه ويقيد عليه.

وكلما كلموه قال لهم: "أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل أو سنّة رسوله."

ولم يبق كلام معه فحضر الجلادون وسياطهم. وهنا يروي ابن حنبل معاناته، بقوله: "قال (المعتصم) للجلادين: تقدموا. قال: فجعل يتقدم إليّ الرجل فيضربني سوطين، فيقوله له: شد، قطع الله يدك! ثم يتنحى، ثم يتقدم الآخر فيضربني سوطين، وهو (المعتصم) في ذلك يقول لهم: شدوا قطع الله أيديكم. فلما ضربت تسعة عشر سوطاً قام إليّ فقال: يا أحمد، علام تقتل نفسك؟ إني والله عليك شفيق. قال: فجعل عُجيف[٣] ينخسني بقائم سيفه، وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك، الخليفة على رأسك قائم؟ وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين، أنت صائم، وأنت في الشمس قائم! فقال لي: ويحك يا أحمد، ما تقول:؟ فأقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل أو سنّة رسوله، صلى الله عليه وسلم، أقول به. قال: ثم رجع فجلس، ثم قال للجلاد: تقدم أوجع، قطع الله يدك! ثم قام الثانية، فجعل يقول: ويحك يا أحمد، إمامك على رأسك قائم. وجعل عبد الرحمن يقول: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ قال: وجعل يقول (الكلام للمعتصم): ويحك يا أحمد أجبني إلى شيءٍ لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي. قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل أو

سنّة رسوله حتى أقول به. قال: فرجع فجلس، فقال للجلادين: تقدموا، فجعل الجلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحى، وهو في خلال ذلك يقول: شد قطع الله يدك.(...)! فذهب عقلي، فأفقت بعد ذلك، فإذا الاقياد قد أطلقت عني، فقال لي رجل ممن حضر: إنا كببناك على وجهك، وطرحنا على ظهرك باريةً (بساط من القصب) ودسناك (...)! ما شعرت بذلك، وأتوني بسويق، فقالوا لي: أشرب وتقيأ، فقلت لست أفطر، ثم جيءَ بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرت صلاة الظهر، فتقدم إبن سماعة[٨] فصلى، فلما انفتل من الصلاة قال لي: صليت والدم يسيل في ثوبك؟ فقلت قد صلى عمر وجرحه يثعبُ دماً.[٩]"

أطلق سراح أحمد بن حنبل بعد أن "مكث في السجن منذ أخذ وحمل إلى أن ضرب وخُلي عنه، ثمانية وعشرين شهراً.[١٠]" وبالوقت الذي كان فيه يفضل الموت على ضرب السياط، وان الفقيه ابن سماعة قال للمعتصم: "أضرب عنقه ودمه في رقبتي" حذر أحمد بن أبي دؤاد من قتله، فقال للمعتصم: لا تفعل، فإنه إن قتل أو مات في دارك قال الناس: صبر حتى قُتل، فاتخذه الناس إماماً، وثبتوا على ما هو عليه (رفض مقالة خلق القرآن)، لا ولكن أطلقه الساعة، فإن مات خارجاً من منزلك شك الناس في أمره، وقال بعضهم لم يجبه، فيكون الناس في شك من أمره.[١١]"

وأراد المعتصم أن يحتاط لرفع مسؤوليته مستقبلاً، عن وفاة أحمد بن حنبل بعد خروجه من السجن، ففعل مثلما فعل والده هارون الرشيد بجثمان الإمام موسى الكاظم بعد أن مات في سجنه السنة١٨٣ (هـ)[١٢] فقد ورد في الرواية "دعا المعتصم بعمِّ أحمد بن حنبل، ثم قال للناس: تعرفونه؟ قالوا: نعم! هو أحمد بن حنبل. قال: فنظروا إليه، أليس هو صحيح البدن؟ قالوا: نعم.[١٣]"! وذكر صالح بن أحمد بن حنبل القسوة التي ضرب بها المحققون اباه، بقوله: "نظر إلى أبي رجل ممن يبصر الضرب والعلاج، فقال: قد رأيت من ضرب ألف سوط ما رأيت ضرباً مثل هذا، لقد جرّ عليه من خلفه ومن قدّامه، ثم أخذ ميلاً فأدخله في بعض تلك الجراحات، فنظر فيها، فقال: لم يُنقَبْ، وجعل يأتيه ويعالجه، وقد كان

أصاب وجهه غير ضربة، ومكث متكئاً على وجهه ما شاء الله."[14] وبعد إطلاق سراحه سمح له في مزاولة أموره، ومنها لقاءاته مع أصحابه، دون قيود، ويذكر أن المشايخ من الفقهاء قد زاروه مهنئين. فمنهم يعقوب بن إبراهيم الزهري[15]، وسليمان بن داود الهاشمي[16] قد قبلاه. وأخذ الزوار يرفعون من معنوياته بذكرهم ما حل بالعلماء والفقهاء على يد الحكام. وقال له الحارث بن مسكين[17] معزياً: "ما زال الناس يبتلون في الله تعالى ويصبرون."[18] ومن الفقهاء المعذبين على يد الأمويين والعباسيين، من الذين ذكرت عذاباتهم عند ابن حنبل: الصحابي سعيد بن المسيب[19] الذي ضربه عبد الملك بن مروان مائة سوط، وصب عليه جرة ماء بارد في يوم شات، وأن يلبس جبة صوف، لأنه لم يبايع ولده البكر الوليد بن عبد الملك عندما أعلنه ولياً للعهد. وضرب الحجاج بن يوسف الثقفي عبد الرحمن بن أبي ليلى[20] أربعمائة سوط، ثم قتله.[21] وضرب أبو جعفر المنصور الإمام مالك بن أنس سبعين سوطاً في يمينه. ومن اللافت للنظر، لا نجد أسماء أئمة معروفين بين المذكورين من المعذبين أعلاه، ومنهم الإمام أبو حنيفة النعمان، والإمام موسى بن جعفر المعروف بالكاظم، على الرغم أن خبرهما مازال طرياً في ذاكرة جيل أحمد بن حنبل، وأن هناك من المتكلمين الذين قتلوا أيام هارون الرشيد بشهادة من ابن حنبل ضدهم، ومنهم ضرار بن عمرو. فهذه عذابات ابن حنبل كما رواها أتباعه. أما المعتزلة فقد نفوا ذلك، وجاءت روايتهم على لسان الجاحظ بقوله: "إنه لم ير سيفاً مشهوراً، ولا ضرب ضرباً كثيراً، ولا ضرب إلا بثلاثين سوطاً مقطوعة الثمار ومشعشعة الأطراف، حتى أفصح بالإقرار مراراً، ولا كان في مجلس ضيق، ولا كانت حاله حال مؤيسة، ولا كان مثقلاً بالحديد، ولا خلع قلبه بشدة الوعيد، ولقد كان ينازع بألين الكلام، ويجيب بأغلظ الجواب، ويرزنون ويخف ويحملون ويطيش."[22] وخلاف ما ادعاه ابن حنبل من أنه لم يقر بمقالة خلق القرآن قال الجاحظ: إنه "أفصح بالإقرار مراراً." وذكر اليعقوبي إقراره، بلسانه: "إني أقول بقول أمير المؤمنين"، قال (إسحاق بن إبراهيم): في خلق القرآن؟ قال: في خلق القرآن، فأشهد عليه وخلع عليه، وأطلقه

إلى منزله.[٢٣]"

ولعلّ عداء الحنابلة للمؤرخ الطبري كان وراء عزوف الأخير عن ذكر معاناة ابن حنبل في سجنه، أيام المعتصم، رغم أنه ذكر أحداث تلك المحنة مفصلة، وإعلانها بصدور كتاب المأمون إلى الولاة والقضاة السنة ٢١٨ هـ، وتسمية الفقهاء المتحَنين بها، ومنهم ابن حنبل، ومنْ قتله الواثق بعد أن تجاوز على مقامه بسبب هذه المحنة. ويذكر عن معاناة الطبري من الحنابلة، عند قدومه إلى بغداد بعد وفاة ابن حنبل، أن "الحنابلة تمنع من الدخول عليه.[٢٤]" وكذلك قال ابن الجوزي عن حيرة حاملي جنازة المؤرخ المذكور: "أخفيت حاله لأن العامة اجتمعوا ومنعوا من دفنه بالنهار، وادعوا عليه الرفض، ثم ادعوا عليه الإلحاد.[٢٥]" والعامة دون أن يسميهم ابن الجوزي، لأنه حنبلي، هم الحنابلة لا غيرهم. ومن اللافت للنظر أن ما تغافل عن ذكره الطبري (السنّي الشافعي) من محنة ابن حنبل ذكره اليعقوبي (الشيعي) في تاريخه كما ورد سلفاً.

الهوامش:

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص ٣٩٥

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه، ص٢٩٧

(٤) المصدر نفسه، ص٣٩٨

(٥) قاضي قضاة في زمن المعتصم والواثق، وهو معتزلي المذهب، يوصف بالجود والسخاء وحسن الخلق، ووفرة الأدب، كان أحد ممتحني الفقهاء والقضاة في خلق القرآن، بالغ المؤرخون في تحميله قرار المحنة، توفي منكوباً وولده القاضي محمد بن أحمد بن أبي دؤاد من قبل المتوكل السنة٢٤٤ هـ (الخطيب، تاريخ بغداد،٤ ص ١٤١.)

(٦) مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص ٣٩٩

(٧) ابن عنبسة، قائد عباسي، خمد ثورة علي بن هشام ضد المأمون، وقاد الجيش العباسي ضد ثورة الزط فلاحي البصرة وواسط، قتله المعتصم بسامراء السنة٢٢٣ هـ بعد أن عظم أمره وكثرت ضياعه وأمواله (إبن الجوزي، المنتظم، ١٠ ص ٨٦–٨٥.)

(٨) أبو عبد الله محمد بن سماعة من أصحاب الرأي من أهل الكوفة، تولى قضاء بغداد بعد القاضي أبي يوسف، عفاه المأمون ليحل محله إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة، توفي السنة٢٣٣ هـ (الخطيب، تاريخ بغداد،٣٤١/٥ هـ)، و(الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٦٤٦/١٠.)

(٩) مناقب بن حنبل، ص. ٤٠٧-٤٠٦ وثغب: مفردة متداولة في اللهجة العراقية الجنوبية، وتعني صرخ من الأعماق، والثغيب معناها الصراخ العالي من حزن وألم، كقولهم: "ثغبت بصوت." أو كما ذكرت الشاعرة لميعة عباس عمارة في ديوانها "بالعامية": "لو اسأل أية امرأة من الجنوب (العراق): ما معنى الثغب؟ يكون الجواب ببساطة؟ هو الصراخ بأعلى طبقات الصوت تفجعاً. "أما ما ورد في قاموس المحيط وغيره فلا يشير مباشرة إلى هذا المعنى، فهي: "الطعن والذبح، وأكثر ما بقي من الماء في بطن الوادي، وجمعها ثغاب وأثغاب وثغبان، وتثغبت لثته بالدم سالت، والثغب ذوب الجمد والغدير في ظل جبل." ولا أدري أن كان العراقيون حرفوا معناها من الذبح إلى الصراخ والعويل، أو أنها كلمة من أرثهم اللغوي الغابر، اي ليس من اصل عربي. ولعل إبن الرومي غلب أساطين القاموسيين عندما قال:

ثغبٌ ينقع الصدى، وغناء

عنده يوجد السرور الفقيد

(بالعامية، ص ٦.)

(١٠) مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص٤٠٧

(١١) المصدر نفسه، ص٤٢٠، ما أعتقده في منع المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد من قتل ابن حنبل أن الرجل كان حليماً وبعيداً عن سفك الدماء، هذا ما يؤكده أغلب المصادر التاريخية.

(١٢) تاريخ اليعقوبي،٢ ص٤١٤

(١٣) مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص٤٢٠

(١٤) المصدر نفسه، ص٤٢٧

(١٥) أبو يوسف، محدث من أهل المدينة، سكن بغداد وحدث بها عن أبيه، وهو من أحفاد الصحابي عبد الرحمن بن عوف، توفي ببغداد السنة٢٠٨ هـ (الخطيب، تاريخ بغداد، ١٤/٢٦٨.)

(١٦) أمير من البيت العباسي، يوصف برجاحة العقل، وكان أحمد بن حنبل يتمنى إستخلافه، توفي ببغداد السنة٢١٩ هـ (تاريخ بغداد، ٩/٣١.)

(١٧) أبو عمرو المصري، مولى زبان بن عبد العزيز بن مروان، كان فقهاء المذهب المالكي، حمله المأمون على المحنة، ولم يقر بخلق القرآن، وظل مسجوناً حتى خلافة المتوكل، توفي السنة٢٥٠ هـ (الخطيب، تاريخ بغداد،٨ ص ٢١٦.) إن استمرار سجن عدد من الفقهاء بسبب رفض مقولة خلق القرآن يؤكد أن أحمد بن حنبل قد أقر هذه المقولة، كما أكد ذلك الجاحظ في في كتابه "خلق القرآن"، واليعقوبي في تاريخه.

(١٨) مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص٤٢٢

(١٩) عُرف بسيد التابعين، وعالم المدينة، روي عنه حديث كثير، ولأنه لم يعط البيعة لعبد الله بن الزبير ضربه والي المدينة ستين سوطاً، توفي السنة٩٢ هـ أو٩٥ هـ (سير النبلاء،٤ ص ٢١٧.)

(٢٠) من الكوفة وسكن المدائن (سلمان باك)، وشهد حرب الخوارج بالنهروان، قتل بدير الجماجم بالعراق سنة٨٨ هـ وكان مع عبد الرحمن بن الأشعث، ويقال إنه غرق في الدجيل في السنة٨٣ هـ (تاريخ بغداد، ٢٥٠/١٠.)

(٢١) مناقب بن حنبل، ص ٤٢٣-٤٢٢ والجدير بالذكر، أن كل الذين عذبهم الحجاج بن يوسف الثقفي، من الذين ذكروا في مجلس أحمد ابن حنبل جلدوا أربعمائة سوط.

(٢٢) كتاب خلق القرآن، كما سيرد لا حقاً.

(٢٣) تاريخ اليعقوبي،٢ ص٤٧٢

(٢٤) تاريخ بغداد،٢ ص، ١٦٤يقول السبكي في طبقات الشافعية الكبرى٣ (ص ١٢٥) "لم يكن عدم ظهوره ناشئاً من أنه مُنع ولا كانت للحنابلة شوكة تقتضي ذلك، وكان مقدار ابن جرير ارفع من أن يقدروا على منعه، وإنما ابن جرير نفسه كان جمع نفسه عن مثل الاراذل المتعرضين إلى عرضه."

(٢٥) المنتظم، ١٣ ص ٢١٧

الفصل السابع

ابن حنبل والمتوكل

بعد وفاة المعتصم٢٢٧ (هـ)، وفي خلافة هارون الواثق، "حدث أحمد بن حنبل ببغداد ظاهراً جهرة (...) ثم قطع الحديث لثلاث بقين من شعبان من غير منع من السلطان، ولكن كتب الحسن بن علي بن الجعد (قاض ببغداد) إلى ابن أبي دؤاد (قاضي القضاة): أن أحمد (ابن حنبل) قد انبسط في الحديث. فبلغ ذلك أحمد فأمسك عن الحديث من غير أن يمنع، ولم يكن حدّث أيام المعتصم فيما بلغنا.[١]" لم يتعرض الواثق، الذي ظل على مقالة خلق القرآن، لأحمد بن حنبل، لكن هناك من يروي أنه أرسل له قائلاً" لا تساكني بأرض، فاختفى أحمد بقية حياة الواثق، فما زال يتنقل في الأماكن ثم عاد إلى منزله بعد أشهر، فاختفى فيه إلى أن مات الواثق٢٣٢ (هـ)[٢]"

وفي أول أيام جعفر المتوكل[٣] (ت٢٤٧هـ) اتهم أحمد بن حنبل بالتستر على العلويين المطاردين يومذاك، ورد ذلك باعتراف أحد السجناء.. وتفيد الرواية أنه تعرض للمساءلة وتفتيش الدار، لكن لم يثبت عليه شيء من تلك التهمة. وسعى المتوكل إلى تقريبه منه، بعد أن قدم الفقهاء من أصحاب الحديث، فنالوا الجوائز والأرزاق، مقابل محاربة الفكر العقلي، ومنه مقالة خلق القرآن، فجاء في الرواية "أن يحدثوا بالأحاديث في الرؤية.[٤]" أما ابن حنبل، فقد استدعاه إسحاق بن إبراهيم بأمر من المتوكل، ولكن هذه المرة لغرض آخر، فطلب منه نسيان أنه كان أحد المحققين معه بقوله: "قد كتب إليّ يأمرني باشخاصك إليه فتأهب لذلك (و) اجعلني في حلّ من حضوري ضربك.[٥]" وقد استفسر إسحاق بن إبراهيم عن المقالة التي أعتقل الفقهاء بسببها ومنهم من مات بسجنه، فقال لابن حنبل: "أسألك عن القرآن مسألة مسترشد لا مسألة إمتحان، وليكن ذلك عندك مستوراً، ما تقول في القرآن؟[٦]" وبعد أن خلت ساحته من تهمة التستر على العلويين، ووصلته هدية المتوكل، ومقدارها عشرة آلاف دينار قدمت له تحت

غطاء "معونة على سفرك" من بغداد إلى سامراء، حيث يقيم الخليفة. لكن الرواية تقول إنه جعلها عند ولده، وهو يبكي ويقول: "سلمت من هؤلاء حتى إذا كان آخر عمري بليت لهم، قد عزمت على أن أفرق هذا الشيء إذا أصبحت.[٧]"

وذكر أن صاحب البريد (المخابرات) كتب "أنه قد تصدق بالدراهم من يومه حتى تصدق بالكيس[٨]"، ولم يخبر عن مئتي الدينار، التي كانت مع الدراهم بالصرة. وهون علي بن الجهم[٩] خبر صاحب البريد. وقال للمتوكل: "يا أمير المؤمنين قد تصدق بها وعلم الناس أنه قد قبل منك، وما يصنع أحمد بالمال؟ وإنما قوته رغيف، قال: فقال لي: صدقت يا علي.[١٠]" أستضيف ابن حنبل بفخامة بسامراء، وفرغت له دار كبيرة، لكنه كان لا يميل إلى ذلك، وطلب منه المتوكل تعليم ولده المعتز، لكنه أعتذر، بحجة كبر سنه. وقد أختلف مع ولديه وعمه بسبب "صلة السلطان"، ويروى أنه قال لولده صالح محذراً: "أحب أن تدع هذا الرزق، فلا تأخذه، ولا توكل فيه أحداً، قد علمت أنكم إنما تأخذون هذا بسببي، فإذا أنا متّ فأنتم تعلمون. فسكت فقال: ما لك؟ فقلت (صالح): أكره أن أعطيك شيئاً بلساني وأخالف إلى غيره فأكون قد كذبتك ونافقتك، وليس في القوم أكثر عيالاً مني، ولا أعذر، وقد كنت أشكو إليك فتقول: أمرك منعقد بأمري، ولعلّ الله أن يحل عني هذه العقدة. ثم قلت: وقد كنت تدعو لي وأرجو أن يكون الله عز وجل قد استجاب لك.[١١]"

وقال صالح: "فهجرنا وسدّ الأبواب بيننا، وتحامى منازلنا أن يدخل منها إلى منزله شيء، وقد كان قديماً قبل أن نلخذ من السلطان يأكل عندنا.[١٢]" ولعلّ صالح بن أحمد بن حنبل، الذي هجره والده بسبب أخذ الأموال باسم والده، ولم يكن عفيفاً كما أراد له، هو الذي صُرِف من وظيفة القضاء. فحسب رواية القاضي التنوخي "أن أبا عمر القاضي (محمد بن يوسف الأزدي توفي السنة ٣٢٠ هـ) قلد ابناً لأحمد بن حنبل القضاء، فتظلم إليه منه، وذكر عنه بشناعات لا يليق مثلها بالقضاة، فأراد صرفه. فعوتب على ذلك، وقيل: إن مثل هذا الرجل لا يجوز أن يكون ما رمي به صحيحاً، فإن كان صحّ عندك، وإلا فلا

تصرفه. فقيل: ولم؟ قال: "أليس قد أحتمل عرضه، أن يقال فيه مثل هذا، وتشبهت صورته بصورة من إذا رُمي بهذا جاز أن يتشك فيه؟ والقضاء أرقّ من هذا، فصرفه."[13] والجدير بالذكر أن ابن حنبل كان متشدداً ضد المعتزلة، ووقف مبكراً ضد مقالة خلق القرآن، قبل أن يعممها المأمون، والتشدد معه كان بسبب تلك المواقف. فمن تشدده أنه كفر القائلين بتلك المقالة، فأفتى بأن "من قال القرآن مخلوق فهو كافر." وقال أحدهم: سألت أحمد بن حنبل عمن يقول القرآن مخلوق؟ فقال: كافر، وعمن يقول لفظي بالقرآن مخلوق؟ فقال: جهمي."[14] أي أنه كافر حسب رأيه بالجهمية. وسأله آخر: "ما تقول فيمن يقول القرآن كلام الله؟ فقال أحمد: من لم يقل القرآن كلام الله غير مخلوق فهو كافر."[15] وثمة فتاوى أخرى عديدة له ضد المتكلمين والفرق الإسلامية الأخرى، من غير أهل السنّة.

كان أحمد بن حنبل ضد أي معرفة أو علم خارج نطاق النص الديني، لذا يعد رائداً للتشدد الإسلامي. فيروى أنه كتب إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان[16]: "لست بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا، إلا ما كان في كتاب الله أو حديث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أو عن أصحابه، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود."[17] وينقل عنه أنه قال: "لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السنّة." هكذا حاول الإمام أحمد بن حنبل إعاقة حركة الجدل وآفاقها المعرفية التي تبناها عبد الله المأمون والمعتزلة، والتي منها افتتحت أبواب التفلسف، وظهر فلاسفة من وزن الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد.

الهوامش:

(١) مناقب أحمد بن حنبل، ص٤٢٨

(٢) المصدر نفسه، ص٤٢٩

(٣) أبو الفضل بن المعتصم٢٠٥–٢٤٧ (هـ)، تولى الحكم بعد وفاة الواثق السنة٢٣٢ هـ، ومن منجزاته منع الكلام والمناظرات، وشدد على ملاحقة المعتزلة والشيعة، وإجبار أهل الذمة على تمييز أنفسهم بلباس مهين، يسمى اللباس العسلي، وشد الزنانير، وعدم تنكب السيوف أو ركوب الخيل، وقام بهدم ضريح الحسين بن علي ومنع زيارته، وهو القائل في زواره:

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا

في قتله فتتبعوه رميما

(سير النبلاء،١٢ ص ٣٠.)

(٤) مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص. ٤٣٩المقصود فيها رؤية الله يوم القيامة، وإثبات الصفات التي نفاها المعتزلة. .

(٥) المصدر نفسه، ص٤٤٠

(٦) المصدر نفسه

(٧) المصدر نفسه، ص٤٤٥

(٨) المصدر نفسه، ص٤٤٦

(٩) ابن بدر السامي الشاعر، خراساني الأصل، من خاصة جعفر المتوكل، قال قصائد هجاء بحق المعتزلة والفكر العقلي. وصف بأكذب الناس وأوقحهم وجهاً ن قتل وهو في طريقه من بغداد إلى الشام، العام٢٤٩ هـ. (تاريخ بغداد،١١ ص ٣٦٧) و(التنوخي، الفرج بعد الشدة،٥ ص١٦، عن كتاب الأغاني.)

(١٠) مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص٤٦٦

(١١) المصدر نفسه، ص٤٦٥

(١٢) المصدر نفسه،٤٦٦

(١٣) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة،١ ص٣٦

(١٤) المصدر نفسه، ص٢٠٢

(١٥) المصدر نفسه، ص٢٠٦-٢٠٥

(١٦) أبو الحسن التركي، وزير المتوكل والمعتمد، نفاه المستعين إلى برقة من بلاد الشام، ثم عاد إلى بغداد ليكون وزيراً ثانية، ثم نفاه المعتز، وتوفي متأثراً بضربة من لعب الصولجانة (الصولجان) السنة٢٦٣ هـ (سير أعلام النبلاء،١٣ ص ٩.)

الفصل الثامن

مصير المحنة

ذكرنا بفيض من الروايات رأي الحنابلة في محنة أحمد بن حنبل، فعبد الرحمن بن الجوزي من أبرز محدثيهم، وكتابه "مناقب الإمام"... من أهم المصادر في تاريخ هذه القضية. أما رأي الطرف الآخر والذي يمثله المعتزلة فسيقوله الجاحظ، في كتاب "خلق القرآن"، وهو شاهد عيان. يبقى أن نذكر مصير المحنة، ما بعد المتوكل، كما أرخ لها المسعودي في "مروج الذهب" رواية عن صالح بن علي الهاشمي[1]، أحد ثقات الخليفة محمد بن الواثق المهتدي بالله (ت٢٥٦هـ)، حضر الهاشمي مجلس الخليفة فلم يجد أثراً لمقالة خلق القرآن فيه، فقال له: "أي خليفة إن لم يكن يقول بقول أبيه بخلق القرآن" أجابه المهتدي: "قد كنت على ذلك برهةً من الدهر[2]"، ثم قص عليه قصة تراجعه ووالده الواثق عن تلك المقالة. وملخصها: أن شيخاً من أهل الشام قدم على الواثق، وتناظر مع القاضي أحمد بن أبي دؤاد، حول خلق القرآن، لكن الرجل الشامي كان واثقاً من نفسه، وتمكن من هزيمة ابن أبي دؤاد، فحاول الواثق الاحتفاظ بالشيخ لكنه رفض المقام، قائلاً": مكاني في ذلك الثغر أنفع، أنا شيخ كبير ولي حاجة، قال: سل ما بدا لك، قال: يأذن أمير المؤمنين لي في الرجوع إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم (أحمد بن أبي دؤاد)، قال: أذنت لك، وأمر له بجائزة فلم يقبلها." فقال المهتدي: "فرجعت منذ ذلك الوقت عن تلك المقالة، وأحسب أن الواثق أيضاً رجع عنها."[3] يصعب بمكان اعتبار هذه الحادثة الهامشية، مؤثرة إلى هذا الحد، وأن تكون سبب الرجوع عن الاعتقاد بخلق القرآن، وهي عقيدة الدولة. فالمحنة شملت عشرات الشيوخ، ومن الذين كان لهم باع في المناظرة. فمن هذا الشيخ الذي أتى بنصوص قرآنية ونبوية أفحم بها المعتزلة، عجز ابن حنبل من الاحتجاج بها؟ ولعلَّ رواية الهاشمي واحدة من روايات عديدة أختلقها أصحاب الحديث ضد المعتزلة.

في إسقاط نهج المعتزلة، ومنها مقالة خلق القرآن، هناك أسباب أخرى، لا تتعلق بالتأثير السحري، كما ورد في الرواية. ومنها الشدة التي فرض فيها ذلك النهج، من قبل المأمون وخلفائه، فما أن أصبح عقيدة للدولة حتى بدأت الحركة المضادة له. ثم الحركة المنظمة التي قادها أصحاب الحديث مستغلين انفتاح الواثق وتعاون مع المتوكل، الذين يرون في حرية المناظرات الفكرية بين مختلف الملل والنحل خطراً على الإسلام التقليدي. وهي الجماعة نفسها التي التفت حول هارون الرشيد بينما مجالس وزيره البرمكي كانت عامرة بالجدل العقلي، لذا كانت نكبة البرامكة نكبة للكلام والمتكلمين. ونضيف إلى أسباب تمكن المتشددين من الفكر العقلي أن كبار شيوخ الاعتزال البغداديين كانوا يؤثرون الابتعاد عن الدولة، رغم تبنيها لعقيدتهم بإطارها البصري، والذي لا يختلف مع الإطار البغدادي في مقولة خلق القرآن. ومثل هذا الموقف اتخذه عيسى المردار والجعفران، جعفر بن حرب وجعفر بن مبشر. أما عدم رجوع المهتدي أو أي خليفة من العصر العباسي الثاني، إن صحت التسمية، إلى القول بتلك المقالة فله أكثر من سبب وسبب، منها قوة التيار السلفي، وهلاك من هلك من المفكرين. فالكلام ظل محرماً فترة طويلة، وهي فترة حكم خلفاء لا حول لهم ولا قوة. وألف الحنابلة عصابات، تعتدي على أي مخالف لآراء شيوخهم، يشار لهم بالرواية التاريخية بالعامة.[1] ومع قوة الإرهاب ضد شيوخ المعتزلة وأتباعهم ظلت مقالة خلق القرآن حية في ذاكرة الجماعات الكلامية، وتتعدى إلى العيش في أذهان بسطاء الناس. في تأكيد هذا الاستمرار إلى ما بعد مئة سنة من شيوعها، ثم منعها رسمياً، نذكر واحدة من روايات القاضي أبي علي التنوخي المعتزلي تحت عنوان "خلاف بين المعتزلة وبين غوغاء من العوام": "وقال رجل من أصحاب إسماعيل (الصفار البصري أحد شيوخ المعتزلة) بالبصرة: إن القرآن مخلوق، بحضرة غوغاء من العوام، فوثبوا عليه، وحملوه إلى نزار الضَّبي، وكان أميراً على البصرة، فحبسه. فطاف إسماعيل على المعتزلة، فجمع منهم أكثر من ألف رجل، وبكّر بهم إلى باب الأمير، فاستأذن عليه، فأذن له. فقال: أعز الله الأمير،

بلغنا أنك حبست رجلاً لأنه قال: إن القرآن مخلوق، وقد جئناك، ونحن ألف، وكلنا يقول: إن القرآن مخلوق، وخلفنا من أهل البلد أضعاف عددنا، يقولون بمقالتنا، فإما حبست جميعنا مع أخينا، أو أطلقته معنا. قال: فعلم أنه متى ردهم ثارت فتنة لا يأمن عواقبها، وأن الرأي يوجب الرفق بهم. فقال: بل نطلقه لكم، فأطلقه، وانصرفوا به عدواً.(٥)

الهوامش:

(١) أبو عبد الملك صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، عم الخلفاء السفاح والمنصور، أخذ مصر من الأمويين، وانتدب إلى حرب مروان بن محمد المعروف بالحمار، توفي السنة١٥١ هـ او١٥٢ هـ (سير أعلام النبلاء،٧ ص١٨.)

(٢) مروج الذهب،٥ ص١٠١

(٣) المصدر نفسه

(٤) ومصطلح العامة واسع، سنأتي لا حقاً على ذكره مفصلاً. لكن كل ما أشير إلى مطاردة المفكرين ورؤساء المذاهب من قبل العامة أو العوام كان يقصد بهم عصابات الحنابلة.

(٥) نشوار المحاضرة،٢ ص٢٠٨

الباب الثالث

الجاحظ

كتبه ومقالاته وأفكاره

الفصل الأول

كتبه المصاحف

الجاحظ نسيج وحده، لا يحتاج شهادة من أحد، فماذا يضاف للذي قال فيه ثابت بن قرة: "كتبه رياض زاهرة ورسائله أفنان مثمرة"[1]، وقال فيه السيرافي: كتبه" تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً."[2] ولكن جرت العادة أنه ما يحقق أو ينشر كتاب من كتب الأقدمين إلا وكانت سيرته الشخصية والعلمية في صدارة ذلك الكتاب. ولفائدة هذا التقليد للمصنف والقارئ معاً آثرت أن لا أميل عن قاعدة صحيحة بذريعة التجديد. ولأن حياة الجاحظ حافلة بالأحداث، فهو عراقي من مدينة البصرة منجم العلم والمذاهب والصراعات الفكرية، تركت سيرته الشخصية وما فيها من تفاصيل مثيرة، مختصراً الحديث حول كتبه ومقالاته الكلامية، كمدخل لنشر ما تيسر من فصول كتابه النادر "خلق القرآن."

قال النحوي أبو محمد الزبيدي إعجاباً بكتب الجاحظ، وكان إذا سمع كلام الجاحظ "تخدّر وتسدّر": "رضيت في الجنة بكتب الجاحظ عوضاً عن نعيمها."[3] وعن ولع العلماء بكتبه قال أبو حيان التوحيدي، نقلاً عن المعتزلي أبو بكر بن الأخشاد[4]: "ذكر أبو عثمان في أول كتاب الحيوان أسماء كتبه، ليكون ذلك كالفهرست، ومرّ بي في جملتها الفرق بين النبي والمتنبئ، وكتاب دلائل النبوة، وقد ذكرهما هكذا على التفرقة، وأعاد ذكر الفرق في الجزء الرابع لشيء دعاه إليه، فأحببت أن أرى الكتابين، ولم أقدر إلا على واحد منهما، وهو كتاب دلائل النبوة، وربما لقب بالفرق خطأً، فهمني ذلك، وساءني في سوء ظفري به، فلما شخصت من مصر ودخلت مكة حرسها الله تعالى حاجاً، أقمت منادياً بعرفات ينادي والناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم، وتنازح أوطانهم، وتباين قبائلهم وأجناسهم من المشرق إلى المغرب، ومن مهب الشمال إلى مهب الجنوب، وهو المنظر الذي لا يشابهه منظر: رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبئ لأبي عثمان الجاحظ، على أي وجه كان. قال: فطاف المنادي في ترابيع عرفات، وعاد بالخيبة، وقال: حجب الناس مني، ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا

اعترفوا به.[5]"

ويعلق الحموي على ما حدث بقوله: "وحسبك بها فضيلة لأبي عثمان أن يكون مثل ابن أخشاد (أخشيد)، وهو في معرفة علوم الحكمة، وهو رأس عظيم من رؤوس المعتزلة يستهام بكتب الجاحظ حتى ينادي عليها بعرفات، والبيت الحرام، وهذا الكتاب موجود في أيدي الناس اليوم، لا يكاد تخلو خزانة منه، ولقد رأيت أنا منه نحو مائة نسخة أو أكثر.[6]" ولعلّ الجاحظ هو الوحيد الذي أطلق على كتبه لقب المصاحف. والمعروف عن هذا اللقب أنه محتكر للقرآن الكريم دون غيره من الكتب، بما فيها كتاب الأحاديث القدسية. لفت ذلك نظر المحقق عبد السلام هارون، فذكرها في تقديمه لكتاب "الحيوان" ونقل قوله من "البيان والتبيين": "كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار.[7]" ووجدناه قال ذلك أيضاً في كتاب"البغال": "فيصير الجميع مصحفاً تاماً، كسائر مصاحف كتاب الحيوان.[8]" كتب الجاحظ بنفس عالم متجرد، فما قاله في كتاب العثمانية حول الفاضل والمفضول بين الخلفاء الراشدين، أو في العرب والعجم، أو ما ذم فيه كُتاب الرسائل، لم يكن متحيزاً لطرف، بقدر ما كان يطرح معلومات يمكن أن ينسخها في كتاب لاحق، بناءً على توفر معلومات جديدة. ولعلّه تهرب، أحياناً، من الإحراج الذي تجلبه له تلك الصفة إلى تسجيل أفكاره بأسماء أخرى. وقد لا يقتنع القارئ بما ذهبنا إليه حول موضوعية الجاحظ، وهو يطلع على روايات عديدة تبدو، من الوهلة الأولى، منافية لتلك الموضوعية، منها تأليف كتاب "الرد على النصارى واليهود" المتزامن مع تنكيل المتوكل بأهل الذمة. وحسب رواية أبي حيان التوحيدي، كتب إليه الوزير الفتح بن خاقان بتكليف من المتوكل، بعد أن عرف اشتغاله بمثل هذا الكتاب، قائلاً: "فأعرف لي هذه الحال، وأعتقد لي هذه المنة وأعكف على كتاب الرد على النصارى، وأفرغ منه وعجل به إليّ، وكن ممن حدا به على نفسه لتنال مشاهرتك، وقد استطلقته لما مضى، واستلفت لك لسنة كاملة مستقبلة.[9]" ومن ذلك كان كتابه "خلق القرآن" المتزامن مع المحنة، وكتابه "مناقب الترك"، المتزامن مع اعتماد المعتصم على العنصر التركي في إدارة شؤون الدولة والجيش، وكتابه "فخر السودان على الحمران" الذي قال في غرضه:

"موازنة بين حقّ الخئولة والعمومة." ومن ذلك أيضاً كتاباه: "العثمانية" و"الرافضة والزيدية"، المتزامنان مع ظهور الخلاف بين معتزلة البصرة ومعتزلة بغداد.

ولكن أياً من هذه العناوين لا يقترب من قناعات الجاحظ وميوله. بيد أن تأويلات أخرى تختلف في فهم مؤلفات الجاحظ، منها تأويل تأليفه عن مناقب العرب في فترة ظهور ما عُرف بالشعوبية، لذلك شخّص بعض مفكري القومية العربية ريادة الجاحظ في تجسيد الفكر القومي، لغرض أعلامي. وفي هذا المجال نذكر ما ذهب إليه الياس فرح في أن الجاحظ كان منظراً للفكر القومي العربي، بل كان بطلاً من أبطال التصدي للمؤامرة ضد العروبة، فهو يقول عن سلاح الثقافة: "أتقن الجاحظ كل فنون استخدامه، وجعل منه أداة فعالة، ليس لدفع المؤامرة على القومية العربية أنذاك حسب، بل لنقل الفكر العربي إلى مستوى جديد."[١٠] ويتضح من مكان وتاريخ نشر هذا الكتاب (بغداد،١٩٨١)، وفي أوج تصاعد نيران الحرب العراقية الإيرانية أنه كان كتاب مناسبة، زُجّ فيه اسم الجاحظ العربي، حسب ادعاء المؤلف في مواجهة ابن المقفع الفارسي، الذي قرضه الجاحظ ضمن ما قرض من الكُتّاب. لكن ما فات هذا المؤلف أن الجاحظ كان يحتمي في بداية تفوقه العلمي باسم ابن المقفع. فهو القائل: "كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني، الحسن النظم، وأنسبه إلى نفسي فلا أرى الأسماع تُصغي إليه، ولا الإرادات تتيم نحوه، ثم أولف ما هو أنقص من رتبة، وأقل فائدة، وأنحله عبد الله بن المقفع (قتل السنة١٤٢هـ."[١١]). وأثنى على ابن المقفع في أكثر من مناسبة، كقوله بأنه "من المعلمين ثم من البلغاء والمتأدبين."... وينحو الكاتب التركي زكريا كتابجي منحى البعثي الياس فرح مستنداً إلى كتاب الجاحظ "مناقب الترك أو فضائل الترك" الذي ورد فيه: "أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين جمعهم وأصطنعهم"، وبنفس قومي أيضاً يبرز الكاتب المذكور الترك أنهم كانوا وراء كل صغيرة وكبيرة في التاريخ الإسلامي، مع تهميش العرب والفرس وأقوام أخرى. وبلا شك، تتضارب التفسيرات حول سبب تأليف الجاحظ في فضائل الترك، في عهد تبوأ فيه هذا العنصر الوظائف الحساسة في قمة الدولة، بين أن يكون هذا العمل انتهازية وتملقاً، أو مساهمة في تنظيم أمور

الدولة والجيش.

لكن الواضح من تكرار هذا التأليف في أقوام أخرى أن الغرض لا يخرج عن اهتمام الجاحظ في البحث والتنقب في حياة الأمم، بعد أن توفرت له إحاطة كافية في شؤون الترك المختلفة، ومثل ذلك ما كتبه عن الهنود والفرس. وما جرى مع العرب والترك في مباحث الجاحظ، يمكن أن يتكرر مع الزنوج، الذين فضلهم الجاحظ، على العرب والترك على السواء، فبإمكانهم أن يحتجوا أيضاً لجنسهم بما ذُكر عن فضائلهم في كتابه "فخر السودان على البيضان"، أو كما ورد في الأصل "فخر السودان على الحمران." ولعلَّ ابن الراوندي، بتعالٍ عنصري على الجنس الأسود، اعتبر قول المعتزلة: ان الزنوج قادرون أن يقرضوا الشعر وأن يصنعوا الرسائل، فضيحة من فضائحهم، وكان يعني كتاب الجاحظ المذكور، وربما قصد الجاحظ نفسه، فهو من الزنوج.

ألف الجاحظ عدداً كبيراً من الكتب والرسائل، مالا تجتمع لغيره من المؤلفين، وكان ذلك بفضل موهبته، التي تفرغ لها تماماً، ولم ينتبه من فقره وعسر حاله إلا بعد أن قدمت له أمه القراطيس في الطبق بدلاً عن الطعام قائلة له: "ما تجيء إلا بهذا." فخرج مغتماً إلى الجامع، وكادت توأد موهبة نادرة، لولا مساعدة صديقه مويس بن عمران، الذي سمع بضيق والدته من بؤس الحال، فأخذ يرسل لبيته مستلزمات العيش، حتى تمكن من بيع كتبه والعيش منها.

ومن كتبه حسب ما أدرجه في كتاب الحيوان: "حيل اللصوص"، "احتجاجات البخلاء"، "مفاخرة السودان على الحمران"، "الزرع والنخل"، "فضل ما بين الرجال والنساء"، "العرب والموالي"، "الأصنام"، "المعادن"، "فرق ما بين الجنّ والأنس وفرق ما بين الملائكة والجن"، "الآفاق والرياضيات"، "خلق القرآن"، "الرد على المشبهة"، "أصول الفتيا"، "الوعد والوعيد"، "الرد على النصارى واليهود"، "أصحاب الإلهام"، "الأخبار"، "الرد على الجهمية في الإدراك"، "فرق ما بين النبي والمتنبي."

ومن الكتب التي لم يذكرها هي: "البيان والتبيين"، "فضيلة المعتزلة" و"البلدان"، وغيرها كثير. وعدّ ياقوت فهرستاً لمكتبة الجاحظ، ربت على المئة

والسبعين كتاباً. ويكشف عن اسم "وراق الجاحظ"[11]، ويعني كاتبه، بقوله: "رأيت أنا هذين الكتابين (النساء، والنعل) بخط زكريا بن يحيى ويكنى أبا يحيى." وعن "مرآة الزمان" ينقل عبد السلام هارون الرواية التالية: "خرج الجاحظ عن زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفاً، في ألوان شتى من المعرفة، رأى أكثرها في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد سبط بن الجوزي، المتوفي سنة٦٥٤هـ."[13]

الهوامش:

(١) معجم الأدباء،٥ ص ٢١١٦

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه،٤ ص ١٥١٧

(٤) أبو بكر أحمد بن علي الأخشيد، قال المرزباني: أبو بكر وأبو الحسن المنجم كان هذان الشيخان آخر ما شاهدنا من رؤوساء من بقي من المتكلمين، وعليهما وفي مجالسهما كان اعتماد المتكلمين ببغداد، وانتفع بهما خلق كثير. توفي لسنة ٣٢٠ هـ (ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص ١٠٠.)

(٥) معجم الأدباء،٦ ص٧٢

(٦) المصدر نفسه

(٧) الحيوان،١، مقدمة المحقق، ص٣٦

(٨) كتاب القول في البغال، ص١٦

(٩) معجم الأدباء، ص ٢١١٤

(١٠) الصراع الفكري عند الجاحظ، ١١. تباينت التفسيرات حول ما عُرف بالحركة الشعوبية، بين أنها مواجهة لسيادة العنصر العربي في البلدان غير العربية، بسبب الضرائب والجور من قبل الولاة والمتنفذين، وبين ذود شعوب تلك البلدان عن تاريخها وماضيها الغابر ديانات وفلسفات، وقد ظهرت الشعوبية واضحة في الشعر والأدب.

(١١) السندوبي، أدب الجاحظ، ص٤٣

(١٢) معجم الأدباء،٦ ص٧٥

(١٣) الحيوان، مقدمة المحقق،١ ص٥، عن مرآة الزمان.

الفصل الثاني

مقالاته وأفكاره

أكد الجاحظ انتماءه الفكري في مقالاته الكلامية، ومواقفه من الآخرين، منها كتابه الذي يبرر فيه امتحان خلق القرآن، وكذلك ما قاله لأحمد بن عبد الوهاب في "رسالة التربيع والتدوير": "فالزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي، وأبتدئ بنفي التشبيه والقول بالبداء واستبدل بالرفض الاعتزال." ينسب مؤرخو الملل والنحل للجاحظ بادرة القول في المعرفة بالطبع، أو ما يعرف بالمعارف الضرورية. لكن هناك منْ ينسب المعارف الضرورية لثمامة بن أشرس والجاحظ معاً، فقد ذكرها أبو القاسم البلْخي لثمامة باسم "المعرفة الضرورة"، وللجاحظ "المعرفة طباع"، والمعنى واحد في التسميتين. وبما أن الاثنين متعاصران واخبارهما متداخلة، وبينهما ما يشبه علاقة التلميذ بالأستاذ فلا يستبعد أن يكون ثمامة قد طرح ودافع عن هذه الفكرة أيضاً. ويفسر البلْخي فكرة المعرفة طباعاً بقوله: "فعل للعارف وليس باختيار له."[1] ويشرح القاضي عبد الجبار الفكرة المذكورة بقوله: "إنها تقع ضرورة بالطبع عند النظر في الأدلة." ويحاول المعتزلي أبو علي الجبائي الرد على فكرة "المعرفة الضرورة" بحجة أن لها علاقة مباشرة بمبدأ المعتزلة في رفض القدر: "إن كانت المعارف تقع بالطبع، فما الحاجة إلى التدبير والنظر؟ لأنك (الجاحظ) تضيفها إلى أنها من جهة فاعل الطبع، وهو الله تعالى."[2]

وينحاز القاضي عبد الجبار إلى رأي الجبائي بإلزام الجاحظ الحجة، قائلاً: "فالزمه أن لا يكون لذكره تعالى الأدلة على التوحيد والعدل والنبوات في كتابه فائدة"، على أساس أن الإنسان عارفاً بها بالضرورة أو بطبعه. أما البلْخي فيذهب مذكراً الجاحظ بخطورة رأيه في هذه المسألة، وتعارضه مع أفكاره الأخرى في أفعال العباد، وفعل الإرادة التي تبع فيها ثمامة ابن أشرس بقوله: "لكنه يقول في سائر الأفعال أنها تُنسب إلى العباد، على أنها وقعت منهم طباعاً،

وأنها وجبت بإراداتهم، وليس يجوز أن يكون أحد يبلغ فلا يعرف الله، والكفار عنده بين معاند وبين عارف قد استغرقه حبه لمذهبه وشغفه وألفه وعصبيته، فهو لا يشعر بما عنده من المعرفة بخالقه وتصديق رسله."[٢] ومن غير المعتزلة أعطى أبو المظفر الاسفرائيني شرحاً، واضحاً، لفكرة الجاحظ في "المعرفة الضرورة" بقوله: "أي أن كل من عرف شيئاً فإنما يعرفه بطبعه، لا بأن يتعلمه ولا بأن يخلق الله تعالى له علماً به (كما يذهب إلى ذلك الأشاعرة.)"[٤] ويبسط أحد الباحثين المعاصرين هذه الفكرة بقوله: "ما فطر عليه المرء من غرائز وميول (...) وهذا كله لا ينال إلا بغريزة العقل. لا ادري ما مدى دقة التعبير في ان يكون العقل غريزة . على أن الغريزة لا تنال ذلك بنفسها، بل بما باشرته حواسها دون النظر او التفكير والبحث والتصفح."[٥]

وهذا الطبع الذي يحدد معرفة الإنسان، وهو بالأخير العقل لا الغريزة، لا يخلو من بناء ذاته من تجربة وممارسة، ثم تنتقل، هذه التجارب والممارسات، معارف من جيل إلى آخر، تظهر وكأنها غريزة أو ما يسمى بالفطرة. فهو أقرب إلى قصد الجاحظ، من القول بمباشرة الحواس لعملها دون نظر وتفكير، مع التذكير أن الجاحظ يعني بمقولته معرفة الإنسان، لا اي كائن آخر، الغريزة هي جوهر أفعاله. أما الشهرستاني وعلى عادته، كما فعل مع معتزلة آخرين، فينسب مقالة الجاحظ إلى "مذهب الفلاسفة، إلا ان الميل منه ومن أصحابه هو إلى الطبيعيين منهم أكثر من الإلهيين."[٦] ويبدو من التعليقات والردود، السالفة، بما فيها ردود المعتزلة، أن مقولة الجاحظ، المعرفة بالطبع، تقلل من دور الرسل والأنبياء في تبصير الإنسان وتعريفه بالخالق، وتُعظم قدرة العقل "المطبوع" على الرؤية والاستنباط، مع ما يكتسبه من المعارف السماوية، مع أن معرفة وجود الله، حسب تلك المقولة، لا تحتاج إلى علم مكتسب. وأخيراً ما يعنيه الجاحظ، حسب الردود المذكورة، يضعف النص مقابل قوة العقل.

ومن آراء الجاحظ المعرفية، الأخرى، ما نقله عنه الأشعري بقوله: "إن الحواس جنس واحد، وأن حاسةَ البصر من جنس حاسةِ السمع، ومن جنس

سائر الحواس لا غير ذلك، لأن النفس هي المدركة من هذه الفتوح، ومن هذه الطرق، وإنما اختلفت فصار واحد منها سمعاً وآخر بصراً وآخر شماً، على قدر ما مازجها من الموانع، وأما جوهر الحسّاس (لعله يعني الحس) فلا يختلف، ولو اختلف جوهر الحسّاس لتمانع ولتفاسد كتمانع المختلف وتفاسد المتضاد.(٧)"

ويبسط الجاحظ فكرته بقوله: "فالحسّاس ضرب واحد، والحس ضرب واحد، والمحسوسات ثلاثة أضرب: مختلف ومتفق ومتضاد"، أي أن عملية الحس واختلافها من جهاز إلى آخرّ تتحكم فيها الأجسام لا الحواس، وهي موضوع المعرفة، فعملية الحس تتحقق من الخارج إلى داخل الجسم وليس العكس، كما تذهب إلى ذلك بعض المدارس الفلسفية. ولعلّ رأي الجاحظ، الذي يعود الفضل فيه إلى إبراهيم النظام، يحاكي آراء علمية وفلسفية معاصرة تتعلق بنشأة حاسة البصر بفعل الضوء، ثم تمايز عمل أعضاء الحسّ الأخرى على أساس المؤثر الخارجي. وينقل ابن الراوندي عن الجاحظ مقالة خطيرة يؤكد فيها استحالة فناء الكون: "محال أن يعدم الله الأجسام بعد وجودها.(٨)"

ويعيد الشهرستاني في "الملل والنحل" رواية تلك المقالة بصيغة أخرى: "والجواهر لا يجوز أن تفنى." وفي هذه المرة لم يستطع أبو الحسين الخياط الدفاع عن هذه المقالة في "الانتصار" إلا بعبارات عامة، كقوله: "وهذا كذب على الجاحظ عظيم." ويما يتصل بالمقالة السابقة، أيضاً، يذكر ابن الراوندي للجاحظ والنظّام القول الآتي: "إن الله لا يقدر أن يزيد في الخلق ذرة ولا ينقصه ذرة، لأنه قد علم أن أصلح الأمور كونه على ما هو عليه في العدد.(٩)" وتفيد هاتان المقولتان بوضوح تأكيد الجاحظ للاكتشاف الفيزياوي والفلسفي، المتحقق فيما بعد، والمعروف بقانون حفظ المادة. وتؤكد الفكرة النظّامية في الكمون والمداخلة والخلق المستمر صحة نسبة هذه الأفكار إلى النظّام وتلميذه الجاحظ. واستخدم أبو علي الجبائي، فيما بعد، مقالة الجاحظ المذكورة في استحداث مقالة جديدة، نُشير إليها بمقالة الفناء الكلي، وملخصها أن الفناء شامل لكل أجزاء الكون دون جزء، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.

وفي مسألة خلق القرآن لم يخالف الجاحظ ما ذهب إليه شيوخ الاعتزال الآخرون، ماعدا مخالفته لأستاذه النظّام في مسألة الإعجاز اللغوي. ومن أجل إثبات ذلك الخلق قام بتأويل الآيات الدالة، بصريح العبارة، أن الله متكلم، منها: "مَا نفذت كلمات الله إن الله عزيز حكيم[10]"، أو الآية: "قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربّي.[11]" قال الجاحظ مؤولاً: "ليس يريد بها القول أو الكلام المؤلف من الحروف، وإنما يريد النعم والأعاجيب والصفات.[12]" وجه الجاحظ رسالة، في محنة خلق القرآن، إلى أحمد بن أبي داؤد، وكانت استجابة لتأنيب الأخير له: "أنك لم ترد الاحتجاج لخلق القرآن[13]"، وورد فيها: "فكتبت لك كتاباً، أجتهد فيه نفسي، وبلغت فيه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعان، فلم أدع فيه مسألة الرافضي، ولا الحديثي، ولا الحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النّظام ولمن نجم بعد النّظام، ممن يزعم: أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة وأنه تنزيل وليس ببرهان.[14]" وكانت الرسالة إشارة واضحة إلى عدم اتفاقه مع مختلف الآراء التي دارت حول القرآن، وبما فيها رأي النّظام في إعجاز القرآن، مع اتفاقه على أنه مخلوق لا كلام الله. وما يأتي من الرسالة كان نوداً عن دور المعتزلة في تلك المحنة. وما يذكر للجاحظ في المجال الفكري، أيضاً، أنه تبنى منهجاً جديداً في التأليف لم يطرق من قبل في المباحث الإسلامية، وهو الأسلوب النظري الموسوعي. وهذا ما اختطه من بعده مفكرون عديدون. إن دراسة مؤلفاته بتمعن وروية تجعل الكثيرين يتراجعون عن تحديد ما يعرف بالأوائل، في عالم الفكر والفلسفة على الأقل. فإذا كنا قد عظمنا إخوان الصفا في إبداعهم الفكري الموسوعي، وشكونا من سطو ابن خلدون على ذلك الإبداع، فماذا نقول عن سبق الجاحظ إلى هذا الإبداع، واستخدامه لعبارات اعتبرت من ممتلكات إخوان الصفا أو ابن خلدون، مثل المعاش، والدولة، والاجتماع، والصناعات، ومسميات أخرى يُستخلص منها مصطلح العمران البشري؟ خلاصة القول: إن عملية البحث في التاريخ طويلة ومضنية، والجزم، من خلالها، على حقيقة ما

مجازفة، ولهذا لا نجد مبرراً للوم طه حسين أو باحثين آخرين على كثرة استخدامهم للامؤكِدات، كنحو: ربما، ولعلَّ، ومن المحتمل، وقد، وغيرها. ومن جهود الجاحظ النظرية ما كتبه في الوجود المادي، محدداً تمايز الكائنات على أساس طبيعة العلاقات فيما بينها إلى ثلاثة أنواع، هي: المتفق والمختلف والمتضاد، وقد لا يدرك درجة التباين بين الاختلاف والتضاد، عصرذاك، إلا المتكلم أو الفيلسوف. وحدد التمايز على أساس النوعية في نوعين: جماد ونام (كائن حي)، والنوع النامي منها يتمايز إلى: نبات وحيوان، والحيوان يتمايز إلى: ماشي وطائر وسابح وزاحف (ينساح، حسب عبارته.) ويستمر الجاحظ في تصنيف كل جنس، من هذه الأجناس الأربعة، حتى يصل إلى التمايز على أساس النطق: أعجم وفصيح، والفصاحة يطلقها على الإنسان (حيوان ناطق) وبعض أنواع القرود، ومنْ يقدر على المحاكاة من الحيوان. والقرد يُشبّه بالإنسان من حيث أنه "يضحك ويطرب ويقص ويحكي (يُقلد)، ويتناول الطعام بيده إلى فمه." ويقول الجاحظ عن الإنسان، حسب تعريف سابق: "إنما سمّوه العالم الصغير سليل العالم الكبير، لما وجدوا فيه من جمع أشكال ما في العالم الكبير." ويرى الجاحظ أن الإنسان اجتماعي الطبع لا التطبع، يفهم ذلك من عبارته الآتية: "أن حاجة الناس إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تُزايلهم، ومحيطة بجماعهم، ومشتملة على أدناهم وأقصاهم.[15]" ويظل الجاحظ في هذا الرأي أميناً على رأيه السابق في أن المعرفة ضرورة لا اكتساب.

وتظهر للجاحظ في علم الاجتماع آراء عديدة، تكمن أهميتها في حيويتها بالنسبة لذلك العصر، وتُعدّ بادرة إلى الخوض في هذا العلم إن لم يكن هناك منْ سبقه إلى ذلك في التراث الإسلامي. ومن تلك الآراء إشارته إلى سلطتين دينية تخصُّ مهام الدين، وأخرى اجتماعية تخصُّ مهام إدارة المجتمع من سياسة واقتصاد، ورد ذلك بقوله الآتي: "وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين، والحكم في الصناعات وإلى كلّ ما أقام لهم المعاش، وبوّب لهم الأبواب والفطن.[16]" وفي هذا الرأي يصنف الجاحظ، حسب التصنيفات المعاصرة، من العلمانيين،

لدعوته الصريحة إلى سلطتين دينية واجتماعية. تبدو هذه الدعوة غير مفهومة في عصره، لذا لم يلتفت إلى خطورتها على منصب الخليفة صاحب السلطة المزدوجة الدينية والاجتماعية المطلقة.

وفي العلاقة بين البشر، على المستوى العالمي، يرى الجاحظ أن الأمم متقاربة في الثقافة وطرق العيش، وأن الدين وطريقة فهمه وممارسته هو شكل هذا الاختلاف: "وبعد، فإن الناس يحصنون الدين من فاحش الخطأ، وقبيح المقال، بما لا يحصنون به سواه من جميع العلوم والآراء والآداب والصناعات، ألا ترى أن الفلاح والصائغ والنجار والمهندس والمصوّر والكاتب والحاسب من كل أمة، لا تجد بينهم من التفاوت في الفهم والعقل والصناعة، ولا من فاحشة الخطأ وإفراط النقص، مثل الذي تجد في أديانهم، وفي عقولهم عند اختيار الأديان."[17] والجاحظ الذي يرى أن الأديان بالاختيار والنظر، أكد أن دين الناس القائم كان بالتقليد، وذلك بقوله: "ولو كان هذا من قبل البحث والنظر، لما صار أهل عُمان كلهم إباضية، وغيرهم مرجئة، ولما اختار النصارى كلهم النصرانية."[18] (...) ويدلل على ما ذهب إليه في جوهر الاختلاف بين الأمم، بقوله: "إن الأمم التي عليها المعتمد في العقل والبيان والرأي والأدب والاختلاف في الصناعات، من ولد سام خاصة: العرب والهند والروم والفرس، ومتى نقلتهم من علم الدين، حسبت عقولهم مجتبلة وفطرهم مسترقة."[19]

ومحصلة رأي الجاحظ، في هذا المجال: أن تعدد الأديان والمذاهب حقيقة لا يمكن تجاوزها، كذلك أن الدين مؤثر أساسي في اختلاف الناس الاجتماعي. ولكن، ما هو الأساس الذي اختلفت فيه طبائع البشر في اعتناق هذا الدين أو ذلك المذهب دون سواه؟ ألم تكن تلك الطباع وليدة الجغرافية والصناعات والعادات والتقاليد، ثم تمازجها مع العرف أو الطقس الديني، فيصبح الدين جزءاً من تلك الطباع، ثم يتوارثه الناس بالتقليد، على حد ما ذهب إليه الجاحظ، وهذا ما سيؤكده الحديث النبوي الآتي: "كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه الذين يهودانه أو ينصّرانه أو يمجسانه."[20] وقد وافق المعتزلة على هذا الحديث،

وعارضوا به الحديث الذي يُشير إلى حتمية أن يكون الناس على دين واحد: "إن الله جلَّ ذكره أوحى إليَّ إني خلقت عبادي كلهم حنفاء." ولعلَّ هذا ما تعامل به المتصوف محي الدين بن عربي في إلغاء مفردة مشرك أو كافر، عند تفسيره للقرآن. ورغم أن الجاحظ لم يكن مؤرخاً، ولم يقصد تسجيل الأخبار بطريقة المؤرخ، بالمعنى المألوف للتسمية، لكنه اهتم في علم التاريخ، وجعل فضيلته تعلو فضائل العلوم الأخرى، مؤكداً على حماية الأثر التاريخي من أحجار وكتب، فهي الشاهد الأصيل على حضارة الأمم. أشار الجاحظ، بعدم رضا، إلى التهديم الذي تتولاه الدولة بحق آثار سلفها من الدول: "لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يميتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن وأكثر الحصون، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم في أيام الإسلام، كما هدم عثمان صومعة غمدان، وكما هدم الحصون التي كانت بالمدينة، وكما هدم زياد كل قصر لابن عامر، كما هدم أصحابنا (العباسيون) بناء مدن الشامات لبني مروان."[٢١]

ولضيقه من تصرفات البعض في إحراق كتب المخالفين أو إتلافها بطريقة ما، قصد إلى التذكير بمشقة الأمم الغابرة في تسجيل أخبارها وعلومها، بقوله: "وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور، ونقشاً في الحجارة." وهذا يدل على اهتمامه بآثار الأولين، حتى وأن كانت تلك الآثار من ملحقات عبادة الأصنام في الجاهلية. ويستغرب الجاحظ من سواد الحجر المقدس بالكعبة، فمن المفروض أنه حجر سماوي فلا يصح عليه إلا اللون الأبيض، فهو من أحجار الجنة، على حد ما ورد في الحديث النبوي. في هذا المجال يذكر ابن قتيبة عن الجاحظ أنه: "ذكر الحجر الأسود وأنه أبيض، فسوده المشركون، وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا."[٢٢]

والحديث حول لون الحجر الأسود ليس من ابتكارات الجاحظ كما أفاد بذلك ابن قتيبة بل هناك أحاديث نبوية عديدة، منها رواية الترمذي المرفوعة إلى عبد الله بن عباس: "قال رسول الله: نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضاً

من اللّبن، فسودته خطايا بني آدم.[٣٣] وسئل محمد بن الحنفية عنه أصل الحجر فقال: "إن الحجر الأسود من هذه الأودية."[٣٤] وعلى الرواية السابقة بنى باحثون معاصرون توقعاتهم حول سبب سواد الحجر منها: "إن الحجر الأسود كان أبيض، لكنه أسود من مسّ الحيض في الجاهلية."[٣٥] ولعلّ ذلك إشارة إلى الطقوس القديمة فيما يعرف بالجنس المقدس، ومن آثارها قصة إساف ونائلة، وهما عاشقان مسخا إلى حجرين بعد أن مارسا الجنس وهما يطوفان حول الكعبة.[٣٦]

اجاب الجاحظ على سؤال أبي العباس المبرد عن حاله عند عيادته له، وهو على فراش الموت: "كيف يكون منْ نصفه مفلوج، ولو نُشر بالمناشير ما حسّ به، ونصفه الآخر منقرس، لو طار الذباب بقربه لآلمه، والآفة في جميع هذا أني تجاوزت التسعين." أما الطبيب بختيشوع فيدعي أن مرض الجاحظ كان بسبب مخالفة نصائحه الطبية. أما الحنبلي في "شذرات الذهب" فيتهم الكتب بقتله "وكان موته بسقوط مجلدات العلم عليه." توفي الجاحظ بالبصرة في محرم السنة ٢٥٥ هـ، في خلافة المهتدي، عن ستة وتسعين عاماً، جال بذاكرته نحوها قائلاً:

وكان لنا أصدقاء مضوا
تفانوا جميعاً فما خُلّدوا
تساقوا جميعاً كؤوس المنون
فمات الصديق ومات العدو

الهوامش:

(١) فضل الاعتزال، ص ٧٣

(٢) المُغني في أبواب التوحيد والعدل،١٢ ص ٣١٦

(٣) المصدر نفسه، ص ٣١٩

(٤) التبصير في الدين، ص ٩١

(٥) المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص١٥٨

(٦) الملل والنحل،١ ص ٧٦

(٧) مقالات الإسلاميين،١ ص ٣٢

(٨) فضيحة المعتزلة، ص ١٠٩

(٩) المصدر نفسه، ص ١٤٩

(١٠) لقمان، ٢٧

(١١) الكهف، ١٠٩

(١٢) الحيوان،١ ص ٢٠٩

(١٣) كتاب خلق القرآن، سيأتي لاحقاً

(١٤) المصدر نفسه

(١٥) الحيوان،١ ص، ٤٢٣ورد تعريف الإنسان في رد أبي الهذيل العلاف على المتجمين، بقوله: "وقال الأوائل: الإنسان هو العالم الصغير" (فضل الاعتزال، ص ٢٥٩.)

(١٦) المصدر نفسه، ص ٧٥

(١٧) الحور العين، ص ٢٧١

(١٨) المصدر نفسه، ٢٨٤

(١٩) المصدر نفسه، ص. ٢٧١المجتبلة: من الجبلة، وهي الفطرة.

(٢٠) المصدر نفسه، ص٢٨٦

(٢١) الحيوان،٤ ص ٧٣

(٢٢) تاويل الحديث، ص٦٠، لسان الميزان،٤ ص ٤١٠

(٢٣) سنن الترمذي، ابن عربي، الفتوحات المكية،١١ ص ١٧٣

(٢٤) حسن السندوبي، ادب الجاحظ، ص٤٩

(٢٥) سيد قمني، الاسطورة والتراث، ص١٢٧، عن محمد حسين، إبراهيم أبو الأنبياء، ص٩٢

(٢٦) هشام بن الكلبي، الاصنام، ص٦

الباب الرابع

كتاب خلق القرآن

مدخل

فتشنا، قدر الإمكان، في صفحات فهارس المخطوطات العربية، وفهارس الكتب المطبوعة في مكتبات العالم المتوفرة في المكتبات البريطانية وهي ثرية، لعلنا نعثر على كتاب مخطوط أو مطبوع في "خلق القرآن"، ولم نجد من التاليف في هذا الموضوع غير ما ذكره أبو إسحاق النديم في "الفهرست"، وما ذُكر من كتب للجاحظ. ورد في الفهرست عناوين الكتب التالية[1]: "كتاب المخلوق" لأبي علي الجبائي، "خلق القرآن" لابن الراوندي، "خلق القرآن" لأبي بكر الأصم، "خلق القرآن" لهشام الفوطي، "خلق القرآن" لعيسى المردار، "الرد على من أنكر خلق القرآن" لأبي جعفر الإسكافي. وكل هؤلاء كانوا من المعتزلة، ما عدا ابن الراوندي الذي تمرد عليهم فيما بعد.

وذكر النديم كتاباً واحداً في الرد على مقالة خلق لقرآن، وهو "الرد على من قال بخلق القرآن" لإبراهيم نفطويه. وذكر هذا الكتاب أيضاً الشيخ آغا بزرك الطهراني، الذي قال عن مؤلفه": وكان حسن الحفظ للقرآن، يبدأ به بمسجده في الأنباريين[2] بالغدوات. وقال إبن حجر في "لسان الميزان" أن فيه شيعية. أقول: لكن تاليفه لهذا الرد يشهد بانه حنبلي المذهب ظاهراً، ويعتقد أن القول بأن القرآن مخلوق كفر.[3]" كما ذكر عبد اللطيف زاده، كتاباً بعنوان "رسالة في خلق القرآن" لعبد العزيز الكناني (ت٢٤٠هـ)، وهو متكلم من متكلمي القرن الثالث الهجري "روى عن سفيان بن عيينة، وتفقه بمحمد بن إدريس الشافعي، ينسب له كتاب الحيدة والاعتذار في رد من قال بخلق القرآن.[4]" وذكر إسماعيل باشا البغدادي في "هدية العارفين" (ص ٨٠٣). كتب الجاحظ في القرآن وهي: "آي القرآن" و"مسائل القرآن"، و"معاني القرآن" دون أن يذكر كتابه "خلق القرآن". وورد في "فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف ببغداد" كتاب بعنوان "رسالة في أن القرآن كلام الله" لمحمود بن محمد بن صابر البخاري (ت٦٧١هـ)

أما كتب الجاحظ في القرآن، فيحصيها ياقوت الحموي بالتالي دون أن يكون

بينها كتاب "خلق القرآن": كتاب "آي القرآن"، ويقدم (الجاحظ) كتابه المذكور بقوله: "جمعت في هذا الكتاب آيات من القرآن، يتعرف بها فرق ما بين الإيجاز والحذف، وما بين الزوائد والفضول والاستعارات[5]"، وكتاب "الاحتجاج لنظم القرآن"، وكتاب "الرد على من ألحد في كتاب الله"، وكتاب "مسائل القرآن."[6]"

لم يظهر كتاب "خلق القرآن"، حسب علمنا، في أي كتاب مخطوط أو مطبوع، ما عدا ضمن مخطوط "مختارات من كتاب لفصول الجاحظ"، المحفوظ في القسم الشرقي من المكتبة البريطانية (Or 3138)، وتاريخ نسخها ١٨٧٧ (م) بمصر، وهو من ممتلكات خزانة الأمير (موسيو كريمر) النمساوي. ولم نجد شيئاً عن الأصل الذي نسخ عنه النص. ثم نشر النسخة ذاتها الإمام عبيد الله بن حسان (مصر: مطبعة التقدم العلمية ١٣٢٤ هـ-١٩٠ م) على هامش كتاب "الكامل في اللغة والأدب" لأبي العباس المبرد (الجزء الثاني، ص ١٤٨-١١٧) دون ذكر عنوانها ومصدرها، وكانت من مجموع ثمانية عشر فصل تحت عناوين مختلفة. واعتماداً على تقصي المحقق عبد السلام هارون[7] لرسائل الجاحظ المطبوعة، لم نجدها منشورة في أي مجموعة من رسائل الجاحظ، ما عدا الكتاب المذكور. وهذا ما جعل بعض الباحثين يقطعون بضياعه.[8] ومجاميع رسائل الجاحظ هي: مجموعة (فان فلوتن) "ثلاث رسائل لأبي عثمان بن بحر الجاحظ البصري" طبعت العام١٩٠٣ (م.) ومجموعة محمد ساسي "مجموعة رسائل لمؤلفها العلامة الشهير والفهامة الكبير الأستاذ أبي عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ، (مطبعة التقدم بمصر١٣٢٥ هـ. (ومجموعة) يوشع فنكل، وعنوانها "ثلاث رسائل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ" (المطبعة السلفية١٣٤٤ هـ. (ومجموعة ريشر) وهي "مقتطفات وترجمات من آثار الجاحظ، إلى جانب نصوص أصلية أخرى. ومجموعة حسن السندوبي بعنوان "رسائل الجاحظ" (المطبعة الرحمانية١٩٣٢ م.) ومجموعة (باول كراوس) بعنوان" مجموع رسائل الجاحظ" (لجنة التأليف والنشر١٩٤٥ م.) كذلك لم ينشرها عبد السلام هارون في مجموعة رسائل الجاحظ السبع عشرة رسالة (القاهرة: مكتبة

الخانجي١٩٦٤ م.)

ويرتبط غياب اسم الكتاب بخطورة عنوانه فأنه نشر، كما سلف ذكر ذلك، دون عنوان. ولعلّ أخطر ما في الكتاب عنوانه، وتكنييه لابن حنبل، وليس فيه جدل فكري أو عقائدي أكثر مما كتب الجاحظ في مؤلفات أخرى. وأن المؤلف ما كان يكتبه، أو يعنونه بهذا العنوان لولا عتب المُهدى إليه وهو من سادة القوم، والشائع هو قاضي القضاة أحمد بن دؤاد، الذي شغل مهام هذا المنصب أيام المعتصم والواثق. ويفصح الجاحظ عن ذلك بقوله: "فلما ظننت اني بلغت أقصى محبتك، وأتيت على معنى صفتك أتاني كتابك تذكر أنك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن، وإنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن."

إن ذكر الجاحظ لكتابه "خلق القرآن" بالعنوان نفسه في مقدمة كتابه "الحيوان" يزيد الثقة في نسبته إليه، إضافة إلى اسلوبه الواضح فيه. أما أن يكون الكتاب مهدى إلى أحمد بن دؤاد ففيه شيء من عدم الدقة. فالجاحظ في كتابه يخاطب شخصاً آخر غير أحمد بن أبي دؤاد، كقوله: "إن أحمد بن أبي دؤاد قال له"، و"حين قال له أحمد بن أبي دؤاد"، و"أحمد بن أبي دؤاد حفظك الله تعالى أعلم بهذا الكلام." كذلك يستبعد أن يكون المهدى إليه محمد بن عبد الملك الزيات، لأنه عاب على الجاحظ هذا الكتاب، باعتراف الأخير في كتاب "الحيوان": "وعبت كتابي في خلق القرآن." وحسب هذه المعطيات يصعب تحديد لمن وجه الجاحظ هذا الكتاب، مع أنه كُتب في ظل وزارة الزيات، التي استمرت٢٢٣-٢٢٥ (هـ) حيث قتل بعد توزيره سنة واحدة في أيام المتوكل. وتحديد ذلك يأتي لسببين: الأول أن الكتاب مذكور في كتاب "الحيوان" المهدى مؤكداً إلى الزيات، والثاني أنه من الصعب تأليف مثل هذا الكتاب أيام المتوكل، فقد حرم القول بخلق القرآن، وسيّدَ أحمد بن حنبل على الحياة الفكرية في الدولة، والمعروف عنه أنه عدو المعتزلة اللدود.

وفي غير الكتاب المذكور، هاجم الجاحظ رافضي مقالة خلق القرآن في رسالة "النابتة"، الموجهة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد. وموضوع الرسالة

يشير إلى أنها كتبت أيام الواثق أو المعتصم، ففي أيام المتوكل كانت كفة المحدثين (النابتة)[9] هي الراجحة، كما أسلفنا، وأن الجاحظ فيها أستقر بالبصرة، بعد أن رفضه المتوكل مربياً لأولاده، حتى مات بها. ورد في النص:

"زعم أكثرهم أن كلام الله حسن وبيّن، وحجّة وبرهان، وأن التوراة غير الزّبور، والزّبور غير الإنجيل، والإنجيل غير القرآن، والبقرة غير آل عمران، وأن الله تولى تأليفه، وجعله برهانه على صدق رسوله، وأنّه لو شاء أن يزيد فيه زاد، ولو شاء أن ينقص منه نقص، ولو شاء أن يبدّله بدّله، ولو شاء أن ينسخه كلّه بغيره نسخه. وأنه نزله تنزيلاً، وأنه فصّله تفصيلاً، وأنه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلا هو، غير أن الله مع ذلك كلّه لم يخلقه! فأعطوا جميع صفات الخلق ومنعوا اسم الخالق."[10]

قصد الجاحظ في كلماته التالية أحمد بن حنبل، لأنه الوحيد الذي تمسك بإجازة من السلف حتى يعترف بمقالة خلق القرآن. ورد في النص "والعجب أنّ الذي منعه بزعمه أن يزعم أنه مخلوق، أنه لم يسمع من سلفه، وهو يعلم أنّه لم يسمع أيضاً سلفه أنه ليس بمخلوق. وليس ذلك بهم، ولكن لما كان الكلام من الله يقال عندهم على مثل خروج الصّوت من الجوف، وعلى جهة تقطيع الحروف، وإعمال اللّسان والشفتين، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام."[11] وفي تحقيق كتاب "خلق القرآن"، وجدنا الاعتماد أولاً على النص الذي ورد في مخطوط المكتبة البريطانية، ومقارنته بالمطبوع على هامش كتاب "الكامل في اللغة والأدب"، وقد أشرنا إليه في الهوامش بحرف (ك.)

الهوامش:

(١) الفهرست، ص٤١، ٩٠، ٢٠٦، ٢١٣، ٢١٤

(٢) محلة تقع في الجانب الغربي من بغداد، بمدينة الكاظمية، وأصل التسمية أن "انتقل قوم من أهل الأنبار إلى المسيب ثم انتقل فوج منهم إلى الكاظمية، ولا تزال محلتهم تعرف بمحلة الانباريين" (دليل خارطة بغداد المفصل، ص ٤.)

(٣) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ١٠ ص٢٢٨

(٤) زاده، أسماء الكتب، ص. ١٥٩ محمد رضا كحالة، معجم المؤلفين ٥ ص٣٦٢

(٥) معجم الأدباء،٦ ص. ٧٧-٧٦ المستوبي، أدب الجاحظ،١ ص١١٧

(٦) المصدر نفسه (معجم الأدباء.)

(٧) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون،١ ص٨

(٨) انظر وديعة النجم، الجاحظ والحاضرة العباسية، ص٥

(٩) ويعني أصحاب الحديث، ويقول عبد السلام هارون: "أصل النابتة في اللغة هم الاغمار من الأحداث، فأطلق هذا اللفظ عليهم إشارة إلى ضعف آرائهم، ووهن تفكيرهم، وإلى أنهم طارئون، على الأصول الدينية المتعارفة، لا يعتمدون في ذلك على أساس وثيق" رسائل الجاحظ،٢ ص ٦.

(١١) رسائل الجاحظ (رسالة النابتة ،٢ ص١٨)

هذا الكتاب

مختارات

فصول

الجاحظ

عفي

عنه

ا

كتب برسم خزانة الامير الفاضل موسيو كريمر

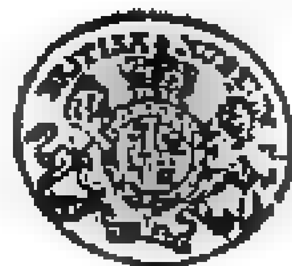
النمساوي بالمحروسة

مصر

سنة ١٨٧٧

هذي هدية معدم لمقام ذي فخر جلي

رابطها مقبولة اذ كان مهديها علي



فقط ولا فرقره فقط ولا احام عن غزوة وهاب
حرب من كاثره **فصل** من صدر كتابه في
خلق القران ثبتك الله بالحجة وحصن دينك
من كل شبهة وتوفاك مسلما وجعلك من
الشاكرين وقد اعجبني حفظك الله اشهداوك
العلم وفهمك له وشغفك بالانصاف وميلك
اليه وتعظيمك الحق وموالاتك فيه ورغبتك
عن التقليد وزرايتك عليه ومواترة كتبك
على بعد دارك وتقطع اسبابك وصبرك الى
اوان الامكان واتساعك عند تضايق العذر
وفهمت حفظك الله كتابك الاول وما حثثت
عليه من تباذل العلم والتعاون على البحث
والتحاب في الدين والنصيحة لجميع المسلمين
وقلت اكتب الي كتابا تقصد فيه الحاجات
النفوس والى صلاح القلوب والى معتلجات
الشكوك وخواطر الشبهات دون الذي غلب
اكثر المتكلمين من التطويل ومن التعمق والتعقيد

نص الكتاب(*)

ثبتك الله بالحجة، وحصن دينك من كل شبهة، وتوفاك مسلماً وجعلك من الشاكرين. قد أعجبني حفظك الله استهداؤك العلم، وفهمك له وشغفك بالانصاف، وميلك إليه، وتعظيمك الحق، وموالاتك فيه، ورغبتك عن التقليد، و"زرايتك[1]" عليه، و"مواترة[2]" كتبك على بعد دارك، وتقطع أسبابك، وصبرك إلى أوان الأمكان، واتساعك عند تضايق العذر، وفهمت حفظك الله كتابك الأول وما "حثيت[3]" عليه من تبادل العلم والتعاون على البحث، والتحاب في الدين والنصيحة لجميع المسلمين.

وقلت: اكتب إليّ كتاباً تقصد فيه لي حاجات النفوس، وإلى صلاح القلوب، وإلى معتلجات الشكوك، وخواطر الشبهات، دون الذي عليه أكثر المتكلمين من التطويل، ومن التعمق والتعقيد، ومن تكلف ما لا يجب، وإضاعة ما يجب. وقلت: كن كالمعلم الرفيق، والمعالج الشفيق، الذي يعرف الداء وسببه والدواء وموقعه، ويصبر على طول العلاج ولا يسأم كثرة الترداد. وقلت: اجعل تجاربك التي إياها تؤمل، وصناعتك التي إياها تعتمد إصلاح الفاسد ورد الشارد.

وقلت: ولابد من استجماع الأصول، ومن استيفاء الفروع، ومن حسم كل خاطر، وقمع كل ناجم، وصرف كل هاجس، ودفع كل شاغل، حتى "يتمكن[4]" من الحجة و"يتهلنا[5]" بالنعمة، وتجد رائحة الكفاية، وتثلج ببرد اليقين، وتقضي إلى حقيقة الأم. وأن كان لابد من عوارض العجز، ولواحق التقصير، فـ"الفروع[6]" لها أجمل، والضرر علينا في ذلك أيسر.

وقلت: ابدأ بالأخوف فالأخوف، وبكل ما كان انق في السمع وأحلا في الصدور، وبالباب الذي منه يؤتى المريض المتكلف والجسور المتعجرف، وبكلما كان أكثر علماً، وأنفذ كيداً. وسألتني بتفتيح "الأستنداد[7]"، والعجلة إلى الاعتقاد، وصفة الأناة، ومقدارها، ومقدمات العلوم ومنتهاها. وزعمت أن من اللفظ ما لا يفهم معناه دون الإشارة، ودون معرفة السبب والهيئة دون أعارته

و"وكسوه[8]" وتحديده وإحتيازه.

وقلت: فإن أنت لم تصور ذلك كله صورة تغني عن المشافهة، وتكتفي بظاهرها عن "المراسلة[9]" أحوجتنا إلى لقائك على بعد دارك، وكثرة أشغالك، وعلى ما تخاف من الضيعة وفساد المعيشة، فكتبت لك كتاباً "اجتهد[10]" فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعان. فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا "لحديثي[11]"، ولا "لحشوي[12]"، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا "لأصحاب النظّام[13]" ولمن نجم بعد النظّام ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة وإنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة". فما[14]" ظننتُ أني قد بلغت أقصى محبتك، وأتيتُ على معنى صفتك أتاني كتابك تذكر أنك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن، وإنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن. وكانت مسالتك مبهمة، ولم أك أن أحدث لك فيها تأليفه فكتبت لك أشق الكتابين و أثقلهما وأغمضهما معنى، وأطولهما. ولولا ما اعتللت به من اعتراض الرافضة، واحتجاج القوم علينا بمذهب "معمر[15]" و"أبي كلدة[16]" وعبد الحميد[17]" و"ثمامة[18]"، وكل منْ زعم أن "أفعال الطبيعة مخلوقة على المجاز دون الحقيقة.[19]" وأن متكلمي "الحشوة[20]" و"النابتة[21]" قد صار لهم بمناظرة "أصحابنا[22]"، وبقراءة كتبنا بعض الفطنة لما كتبت لك رغبة بك عن أقدارهم وظناً بالحكمة عن أعثارهم، وإنما يكتب على الخصوم والأكفاء، وللأولياء على الأعداء، لمن يرى للنظر حقاً، وللعلم قدراً، وله في الأنصاف مذهب، وإلى المعرفة سبب. وزعمت أنك لم تر في كتب أصحابنا إلا كتاباً لا تفهمه، أو كتاباً وجدت الحجة على واضع الكتاب فيه أثبت. وقلت: وإياك أن تتكل على مقدار ما عندهم دون أن "تقتصر[23]" قوى باطلهم، وتوفيهم جميع حقوقهم، وإذا تقلدت الأخبار عن خصمك فحطه كحياطتك لنفسك، فإن ذلك أبلغ في التعليم، وأيس للخصوم. وقلت: وزعموا أنه يلزمك أن تزعم أن القرآن ليس "بمخلق[24]" إلا على المجاز، كما ألزم ذلك نفسه معمر وأبو كلدة وعبد الحميد وثمامة، وكل منْ ذهب مذهبهم، وقاس قياسهم. فتفهم فهمك الله[25] ما أنا واصفه لك، ومورده عليك.

أعلم أن القوم يلزمهم ما ألزموه أنفسهم، وليس ذلك إلا لعجزهم عن التخلص بحقهم، وإلا لذهابهم عن "عواقب[٢٦]" قولهم، وفروع أصولهم، فليس لك أن تضيف العجز الذي كان منهم إلى أصل مقالهم، وتحمل ذلك الخطأ على غيرهم، "فلرب[٢٧]" قول شريف الحسب جيد المركب وافر العرض، بريء من العيوب سليم من الأفن قد ضيعه أهله وهجنه المقترون عليه، فألزموه ما يلزمه وأضافوا إليه ما لا يجوز عليه. ولو زعم القوم على أصل مقالتهم أن القرآن هو الجسم دون الصوت والتقطيع والنظم والتأليف، وأنه ليس بصوت ولا تقطيع ولا تأليف، إذ كان الصوت عندهم لا يخترع كاختراع الأجسام "المصوبة[٢٨]"، ولا يحتمل التقطيع كاحتمال الأجرام المتجسدة، والصوت عرض لا يحدث من جوهر إلا بدخول جوهر آخر عليه، ومحال أن يحدث إلا وهناك جسمان قد صك أحدهما صاحبه، ولابد من مكانين مكان زال عنه ومكان "آل[٢٩]" إليه، ولابد من هواء بين المصطكين، والجسم قد يحدث وحده ولا شيء غيره، والصوت على خلاف ذلك، والعرض لا يقوم بنفسه ولابد أن يقوم بغيره. والأعراض من أعمال الأجسام لا تكون إلا منها ولا "يوجد[٣٠]" إلا بها، "وفيها من الجسم[٣١]" لا يكون إلا من جسم، ولا يكون إلا من مخترع الأجسام، وليست لكون الجسم "من الله[٣٢]" له علة توجبه ولا يحدث، إذا حدث إلا اختياراً وإلا ابتداعاً واختراعاً. والصوت لا يكون إلا عن علة موجبة، ولا يكون إلا تولداً ونتيجة، ولا يحدث إلا من جرمين كاصطكاك الحجرين، وكقرع اللسان باطن الأسنان، "ولأمر[٣٣]" هواء يتضاغط، وريح "تخنيق[٣٤]"، ونار تلتهب، والريح عندهم هواء تحرك، والنار عندهم ريح حارة، هكذا الأمر عندهم. فلو قالوا: لا يكون الشيء مخلوقاً في الحقيقة دون المجاز، وعلى مجازي اللغة إلا وقد بان الله عزّ وجلّ باختراعه، وتولاه بابتداعه، وكان منه على اختيار، "والابتدا[٣٥]" الذي يمكن تركه، وإنشاء عقيبه بدلاً منه على ما كان يولده، ونتيجة من أجسام يستحيل أن يخلق من أفعالها "ويجلبها[٣٦]" الله "تعالى[٣٧]" منها.

والقرآن على غير ذلك جسم وصوت وذو تأليف وذو نظم وتقطيع وخلق قائم

بنفسه، مستغن عن غيره، ومسموع في الهوى (هكذا وردت)، ومرئي في الورق، ومفصل وموصول "واجتماع[٣٨]" وإفتراق، ويحتمل الزيادة والنقصان والفناء والبقاء، وكلما احتملته الأجسام ووصفت به الأجرام كل ما كان كذلك فمخلوق في الحقيقة دون المجاز، وتوسع أهل اللغة فلو كانوا قالوا ذلك لكانوا أصابوا في القياس، ووافقوا أهل الحق، وكانوا مع الجماعة ولم يضاهوا أهل الخلاف والفرقة، ولم يفهموا أنفسهم بقول المشبهة، إذ كان ظاهر قولهم على التشبيه أدل وبه أشبه. ولا يجوز أن أنكر موضع موافقتي لهم ومخالفتي عليهم في صدر هذا الكتاب، لأن التدبير في وضع الكتاب والسّياسة في تعليم الجهّال أن يبدأ بالأوضح فالأوضح، والأقرب فالأقرب، وبالأصول قبل الفروع، حتى يكون آخر الكتاب لآخر القياس، وآخر الكلام لا يفهم أرشدك الله تعالى، ولا يتوهم إلا على ترتيب الأمور، وتقديم الأصول فإذا رتبنا الأمور وقدمنا الأصول صارت أواخر المعاني في الفهم، كأوائلها ورقيقها كجليلها. وقد علمنا أن بعض ما فيه الاختلاف بين منْ ينتحل الإسلام أعظم فرية، وأشد بلية وأشنع كفراً، وأكبر اثماً من كثير مما أجمعوا على أنه كفر. وبعد، فنحن لم نكفر إلا منْ أوسعناه حجة، ولم نمتحن إلا أهل التهمة، وليس كشف المتهم من التجسس، ولا امتحان الظنين من هتك الأستار، ولو كان كل كشف هتكاً، وكل امتحان تجسساً لكان القاضي أهتك الناس، لستروا أشد الناس كشفاً لعورة. والذين خالفوا في العرش إنما أرادوا نفي التشبيه فغلطوا، والذين أنكروا "معناكم[٣٩]" في الميزان إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً غلاظ، فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم، وإن كانوا قد أخطأوا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق. فبين المذهبين أبين "المفرق[٤٠]"، وقد قال صاحبكم للخليفة المعتصم يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمخلصين أعذاراً وإنذاراً": امتحنتني وأنت تعرف ما في المحنة، وما فيها من الفتنة، ثم امتحنتني من بين جميع هذه الأمة." قال المعتصم: "أخطأت بل كذبت، وجدتُ

الخليفة قبلي قد حبسك وقيدك، ولم يكن حبسك على تهمة لأمضي الحكم فيك، ولو لم يخفك على الإسلام ما عرض لك. فسؤالي إياك عن نفسك ليس من المحنة، ولا من طريق الأعتساف (وردت الأعتساق)، ولا من طريق كشف العورة، إذ كانت حالك هذه الحال، وسبيلك هذه السبيل." وقيل للمعتصم في ذلك المجلس: الا تبعث إلى اصحابه حتى يشهدوا إقراره ويماينوا انقطاعه، فينقض ذلك استبصارهم، فلا يمكنه جحد ما اقر به عندهم، فأبى أن يقبل ذلك، وأنكره عليهم.

وقال: "لا اريد أن أوتى بقوم أن اتهمتهم ميزت فيهم بسيرتي" فيه[1]"، وإن بان لي" امرهم[2]" انفذت حكم الله فيهم، وهم ما لم أوتى (هكذا وردت) بهم كسائر الرعية، وكغيرهم من عوام الأمة، وما شيء أحب إليّ من الستر، ولا شيء أولى بي من الأناة والرفق، وما زال به رفيقاً وعليه رقيقاً.

ويقول: "لأن" أستحيك[3]" "بحق أحب إليّ من أن اقتلك بحق"، حتى رآه يعاند الحجة ويكذب صراحاً عند الجواب. وكان آخر ما عاند فيه وأنكر الحق وهو يراه ان أحمد بن أبي دؤاد قال له: "اليس لاشيء إلا قديم أو حديث؟" قال: "نعم." قال: "أو ليس القرآن شيئاً؟" قال: "نعم." قال: "أو ليس لا قديم إلا الله؟" قال: "نعم." قال: "فالقرآن إذاً حديث." قال: "ليس انا متكلم."

وكذلك يصنع في جميع مسائله، حتى كان يجيبه في كل ما سأل عنه، حتى إذا بلغ المخنق والموضع الذي، أن قال فيه كلمة واحدة برئ منه أصحابه قال ليس انا متكلم. فلا هو قال في أول الأمر لا علم لي بالكلام، ولا هو حين تكلم فبلغ موضع ظهور الحجة "والحجة[4]" خضع للحق. فمقته الخليفة وقال عند ذلك: "أف لهذا الجاهل مرة والمعاند مرة." وأما الموضع الذي فيه واجه الخليفة بالكذب والجماعة بـ"القحة[5]" وقلة الاكتراث وشدة التصميم فهو حين قال له أحمد بن أبي دؤاد: "أتزعم أن الله تعالى رب القرآن؟ قال: "لو سمعتُ أحداً يقول ذلك لقلت. قال: "أفما سمعت ذلك قط من خالف ولا سائل ولا من قاص ولا في شعر ولا في حديث"؟ قال: فعرف الخليفة كذبه عند المسألة، كما عرف" عنوده[6]" عند الحجة.

وأحمد بن أبي دؤاد حفظك الله تعالى أعلم بهذا الكلام وبغيره من أجناس العلم من أن يجعل هذا الاستفهام مسألة، ويعتمد عليها في مثل تلك الجماعة، ولكنه أراد أن يكشف لهم جرأته على الكذب، كما كشف لهم جرأته في المعاندة. فعند ذلك ضربه الخليفة، وأية حجة لكم في امتحاننا إياكم، وفي أكفارنا لكم. وزعم يومئذ أن حكم كلام الله كحكم علمه، فكما لا يجوز أن يكون علمه محدثاً ومخلوقاً، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً ومحدثاً. فقال له: "أليس قد كان الله يقدر أن يبدل آية مكان آية، وينسخ آية بآية، وأن يذهب بهذا القرآن ويأتي بغيره، وكل ذلك في الكتاب مسطور"؟ قال: "نعم." قال: "فهل كان يجوز هذا في العلم، وهل كان جائزاً أن يبدل الله علمه ويذهب به ويأتي بغيره؟" قال: "ليس."[47] وقال له: "روينا في تثبيت ما تقول الآثار، وتلونا عليك الآية من الكتاب، وأريناك الشاهد من العقول، التي بها ألزم الناس الفرائض، وبها يفصلون بين الحق والباطل، فعارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث. فلم يكن ذلك عنده، ولا استغرنا (إستخزى من كما وردت في حاشية الكامل) الكذب عليه في غير هذا المجلس، لأن عدة منْ حضره أكثر من أن يطمع أحد أن يكون الكذب يجوز عليه. وقد كان صاحبكم هذا يقول: لا تقية إلا في دار الشرك، فلو كان ما أقر به من خلق القرآن كان منه على وجه التقية فقد أعمل التقية (أعملها كما وردت في حاشية الكامل) في دار الإسلام، وقد أكذب نفسه وأن كان ما أقر به على الصحة والحقيقة، فلستم منه وليس منكم على أنه لم ير سيفاً مشهوراً، ولا ضرب ضرباً كثيراً، ولا ضرب إلا بثلاثين سوطاً مقطوعة الثمار مشعشعة[48] الأطراف حتى افصح بالإقرار مراراً، ولا كان في مجلس ضيق، ولا كانت حاله حال مؤيسة، ولا كان مثقلاً بالحديد، ولا خلع قلبه بشدة الوعيد، ولقد كان ينازع بألين الكلام، ويجيب بأغلظ الجواب، ويرزنون ويخف ويحملون ويطيش. وعبتم علينا أكفارنا إياكم واحتجاجنا عليكم بالقرآن والحديث، وقلتم: تكفروننا على إنكار شيء يحتمله التأويل، ويثبت بالأحاديث، فقد ينبغي لكم أن لا تحتجوا في شيء من القدر والتوحيد بشيء من القرآن[49]، وأن لا تكفروا واحداً خالفكم في شيء وأنتم

أسرع الناس إلى أكفارنا وإلى عداوتنا والنصب لنا.

وأصحابنا حفظك الله إذا قاسوا خطأهم ومروا على غلطهم فإنما ينقضون به شيئاً من العرض والجوهر، وشيئاً من قولهم في المعلوم والمجهول فقط، وهم قوم يكفيهم من التنبه أقله، ومن القول أيسره. وخطأ النابتة، وقول الرافضة تشبيه مصرّح وكفر مجلح، فليس هذا الجنس من ذلك الجنس، والحمد لله. وأما أخبارهم عن عيبنا إياهم حين لم يقولوا: إن الله تبارك وتعالى رب القرآن، وفينا منْ لا يقول: إن الله تبارك[٥٠] رب الكفر والأيمان فإنا لم نسألهم عن ذلك من جهة ما يتوهمون، وإنما سألناهم عنه بجحدهم ما يرون بأبصارهم ويسمعون بآذانهم في الأشعار المعروفة، وفي الخطب المشهورة، وفي ابتهال عند الدعا وعلى السنة العوام "والدهمَا[٥١]"، وعند العهود والأيمان، وعند تعظيم القرآن، وبما (ما كما وردت في حاشية الكامل) يسمعون من السؤال في الطرقات، ومن القصاص في المساجد لا يرون "عائبا[٥٢]"، ولا يسمعون "راويا[٥٣]"، وليس أنا جعلنا هذا مسألة على منْ أنكر خلق القرآن، ولكنا أردنا أن نبين للضعفاء معاندتهم وفرارهم من البهت، ومكابرتهم إذا سمعوا أنهم لم يسمعوا الناس يقولون: ورب القرآن ورب ياسين ورب طه، وأشباه ذلك. ولعمري، أن لو سمعوا الناس يقولون عند إيمانهم وابتهالهم إلى ربهم على غير قصد إلى خلاف لا وفاق: ورب الزنا ورب السّرق (السرقة كما وردت في حاشية الكامل) ورب الكفر والكذب كما سمعوهم وهم يقولون: ورب القرآن ورب ياسين ورب طه ثم ألزمناهم خلق القرآن بمثل ما لهم علينا في خلق الزنا. لقد كان ذلك معارضة صحيحة وموازنة معروفة. وأما قولهم: إن معنا "العامة[٥٤]" والعباد والفقهاء، وأصحاب الحديث، وليس معهم إلا أصحاب الأهواء، ومنْ يأخذ دينه من أول الرجال. فأي صاحب "هو[٥٥]" يرحمك الله أبعد من الجماعة من الرافضة؟ وهم في هذا المعنى أشقياؤهم وأولياؤهم، لأن ما خالفوهم فيه صغير في جنب ما وافقوهم عليه. والذين سموهم أصحاب أهوائهم المتكلمون والمصلحون والمستصلحون و"المميزون[٥٦]" وأصحاب الحديث. والعوام هم الذين يقلدون ولا يحصلون ولا يتخيرون، والتقليد مرغوب

عنه في حجة العقل، منهي عنه في "القرآن."[٥٧] قد عكسوا الأمور كما ترى، ونقضوا العادات، وذلك إنا لا نشك أن منْ نظر وبحث وقابل و"وازن"[٥٨] أحق بالتبين، وأولى بالحجة. وأما قولهم: منا النسّاك والعباد، فعباد الخوارج وحدهم أكثر عدد من عبادهم على قلة عدد الخوارج في جنب عددهم، على أنهم أصحاب نية وأطيب طعمة، وأبعد من التكسب، وأصدق ورعاً، وأقل "رياء"[٥٩] وأدوم طريقة وأبذل للمهجة، وأقل جمعاً ومعاً، وأظهر زهداً وجهداً، ولعلّ عبادة" عمرو بن عبيد"[٦٠] تفي بعبادة عامة عبادهم. وأما قولهم: إن للقرآن قلباً و"سناماً"[٦١]" ولساناً وشفتين، وأنه يقدس ويشفع و"يمحل."[٦٢] فأن هذا كله قد يجوز أن يكون مثلاً، ويجوز أن يجعله الله كذلك إذا كان جسماً، والله على ذلك قادر وهو له غير معجز، ومنه غير مستحيل، وكل فعل لا يكون عيباً ولا ظلماً ولا بخلاً ولا كذباً ولا خطأ في التدبير فهو جائز، والتعجب منه غير جائز. وما أكثر منْ يجيب في المسائل، ويؤلف الكتب على قدر ما يسنح له في وهمه، وعلى قدر ما يتصور له في حاله تلك، لا يعمل على أصل، ولا يشعر في الذي عليه ذلك الأصل، وإن كان ممن يعمل على أصل وإنما صار علماؤنا إلى ما صاروا إليه، لأنهم لا يقفون من القول في خلق القرآن على جواب مهذب ومذهب مصفى، وعلى قول مفروغ منه، وعلى جوابات بأعيانها، فقد رددوا فيها النظر، أمتحنوها بأغلظ المحن، وقلبوها أكثر التقليب، وتبطنوا معانيها بأبلغ التفكير، وتعرفوا كل ما فيها، واعتصروا جميع قواها وسهلوا سلبها، وذللوا العبادة عنها احتقاراً منهم لمن خالفهم، واتكالاً على طول السّلامة منهم، وثقة بطول الظفر بهم، ومن تمام أمر صاحب الحق أن لا يتكل على عجز الخصم، وأن لا يعجب بظهور على منْ لاحظ له في العلم، وعلى العلماء أن يخافوا دول العلم، كما يخاف الملوك دول الملوك. وقد رأيت "البكرية"[٦٣] و"الجبرية"[٦٤]" و"الفضلية"[٦٥]" و"الشمرية"[٦٦]" وأنهم لأحقر عند المعتزلة" مما"[٦٧] زالوا، "يستقون"[٦٨]" من علمائهم ويستمدون من كبرائهم، ويدرسون كتبهم، ويأخذون ألفاظهم في جميع أمورهم، حتى رأيت شيبهم ونابتيهم يدعون أنهم أكفاء، ويجمع بينهم في البلاء، والنابتة اليوم في التشبيه به مع الرافضة،

وهم "دائنون"[19] في التألم من المعتزلة. "غدرهم"[20] كثير ونصيبهم شديد والعوام معهم والحشو يطيعهم، إلا أن معك أمران السلطان وميلهم إليه، وخوفهم منه، والعاقبة للمتقين.

الهوامش:

(*) من الكتاب المخطوط مختارات فصول الجاحظ. كتب برسم خزانة الأمير الفاضل موسيو كريمر النمساوي لمحروسة مصر ١٨٧٧، من صدر كتابه في خلق القرآن. المكتبة البريطانية. (OR 3138)

(١) (ك) (ص ١٨٨) درايتك.

(٢) (ك) المؤاثرة.

(٣) (ك) حثثت.

(٤) (ك) ص ١٢٠ تتمكن

(٥) (ك) تتهنأ

(٦) (ك) البر

(٧) (ك) الأستداد

(٨) (ك) ص ١٢١ وركته

(٩) (ك) المرسلة

(١٠) (ك) لجتهدت

(١١) من أهل الحديث وفي مقدمتهم عصر ذاك أحمد بن حنبل.

(١٢) قصد أهل الحديث أيضاً، "حشوية، لأنهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أي يدخلونها فيها وليست منها، وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه" (الحور العين، ص ٢٥٨.)

(١٣) أصحاب إبراهيم بن سيار النظام، وهو أستاذ الجاحظ، كما سبق ذكر ذلك. وشخص النظام وأصحابه كونه يقول لا معجز في القرآن غير الإخبار عن الغيوب. والجاحظ كثير الاعتزاز بأستاذه المذكور، فهو القائل فيه: "إن الأوائل يقولون: إنه يكون في كل ألف سنة رجل لا نظير له، فإن كان ذلك صحيحاً، فهو أبو إسحاق النظام" "فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص ٢٦٥)، حصرت وفاته السنة ٢٣١-٢٢١ (هـ) وردت حياته وفكره في كتاب "معتزلة البصرة وبغداد."

(١٤) (ك٢) (ص ١٢٢ فلما)

(١٥) معمر بن عباد السلمي، من معتزلة البصرة، صاحب فكرة المعاني، توفي السنة ٢١٥ هـ. وردت حياته وفكره في كتاب "معتزلة البصرة وبغداد."

(١٦) تلميذ معمر السلمي، وقيل أنتدبه هارون الرشيد لمناظرة علماء الهنود (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص، ٢٦٨)، (ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص ٥٨.)

(١٧) لعله الإمام الحافظ أبو عبد الله عبد الحميد بن عِصام الجرجاني، سمع سفيان بن عيينة، ويزيد بن هارون وغيرهم. سكت أيام المحنة فخرج عليه أصحاب الحديث، وقال في اللفظ بالقرآن: أراه محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة. توفي السنة ٢٥٧ هـ (سير أعلام النبلاء،١٢ ص ١٨١١٨٢.)

(١٨) ثمامة بن اشرس من معتزلة البصرة، ومن تلاميذ أبي الهذيل العلاف. كان مستشار المأمون، قيل هو الذي أوصل المعتزلة إليه. توفي السنة ٢١٣ هـ. أوردنا حياته وفكره في كتاب "معتزلة البصرة وبغداد."

(١٩) يقصد فكرة خلق الأجسام لأعراضها، والذين تقدم ذكرهم قالوا بتلك المقالة، وكان أشدهم فيها معمر بن عبد السلمي.

(٢٠) (ك٢) ص١٢٣ الحشوية

(٢١) سبق توضيحها، في باب خلق القرآن.

(٢٢) المعتزلة

(٢٣) (ك٢) ص١٢٤ تعتصر

(٢٤) (ك) بمخلوق

(٢٥) (ك ١٢٥) كلمة تعالى زائدة على ما في المخطوط

(٢٦) (ك٢) ص ١٢٥ قواعد

(٢٧) (ك) ضرب

(٢٨) (ك) ص ١٢٦ المصورة

(٢٩) (ك) زال

(٣٠) (ك) ص١٢٧، توجد

(٣١) (ك) وفيها والجسم

(٣٢) (ك) لم ترد العبارة

(٣٣) (ك) وإلا من

(٣٤) (ك) تختنق

(٣٥) (ك) ص ١٢٨، والابتداع

(٣٦) (ك)، ويحلها

(٣٧) (ك) محذوفة

(٣٨) (ك) ص ١٢٩، ذو اجتماع

(٣٩) (ك) ص ١٣١ أمر

(٤٠) (ك) ص ١٣٢ الفرق

(٤١) (ك) ص١٣٣، فيهم
(٤٢) (ك)، أسرهم
(٤٣) (ك) ص ١٣٤ أستحييك
(٤٤) (ك)، ص١٣٥ محذوفة
(٤٥) الجافية (المنجد)
(٤٦) (ك) ص١٣٦، عنائه
(٤٧) (ك)، ص١٣٧، لا
(٤٨) (ك) مشعبة
(٤٩) (ك) ص ١٤٠ زادت كلمة الحديث
(٥٠) (ك)، ص ١٤١ زادت عبارة وتعالى
(٥١) (ك) محذوفة
(٥٢) (ك) غائباً
(٥٣) (ك) ص ١٤٢ زاريا
(٥٤) قال نشوان الحميري: "سميت بالعامة عامة لالتزامها بالعموم، الذي أجتمع عليه أهل الخصوص، وهم الذين يقولون بالأصول ولا يعرفون شيئاً من الفروع، ويقرون بالله، وبرسوله، وكتابه" (الحور العين، ص ٢٥٨.) أما بالعراق فيطلق الاسم على أهل السنة والجماعة من قبل عدد من فقهاء الشيعة. والتسمية ليس لها حدود، وكانت سائدة في العصر العباسي، ومن المعاصرين قال هادي العلوي حول عامة بغداد في العصر العباسي: "والعامة تختلف في الاصطلاح الإسلامي عن الغوغاء، وفي نهج البلاغة نصوص تثني على العامة وتذم الغوغاء. لكن الارستقراطية الإسلامية كانت في الغالب تجمع بين الاثنين، لا سيما أيام الهزات التي تشترك فيها العامة، فتذهب الارستقراطية المتضررة من الهزة إلى وصم التحرك بأنه من فعل الغوغاء" (لمحة تراثية، جريدة الغد الديمقراطي، العدد ٧٦.) وفي عامة بغداد قال العلوي: "تميزت عامة بغداد بوعي بغدادي يمتزج فيه الفلكلوري بالسياسي، كانوا بحد ذاتهم يشكلون تراث بغداد وجملة تقاليدها الحية، وكانوا إلى ذلك متعلقين بمدينتهم، ويتمتعون بحساسية خاصة تجاه كل ما يتعلق بها، وقد جعلهم ذلك مساهمين فعالين في أحداثها، التي لم تكن لتتطور وتنضج وتأخذ نتائجها النهائية بدون حضورهم فيها."

لكن التمييز بين الغوغاء والعامة ينفيه موقف ثمامة بن أشرس من الاختلاط بالعامة، ولعل هذا الموقف لا ينسحب على المعتزلة عامة، فهناك فئات عديدة من العوام تتعصب للاعتزال، إضافة إلى أن عدداً من شيوخه سكنوا المحلات التي تتركز فيها الصنائع، وهناك من شيوخهم الكبار منْ امتهن تلك الصنائع. كان ذلك مع وجود منْ يرى في المعتزلة "إنها تنظر إلى الناس بالعين التي ينظر بها ملائكة السماء إلى أهل الأرض مثلاً." ومن الروايات التي تؤكد موقف ثمامة السلبي من العامة، ما يرويه ابن طيفور (كتاب بغداد، ص ٥٤) بأن ثمامة حاول اقناع المأمون

في إعلان شتم معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأعترضه قاضي القضاة يحيى بن أكثم شارحاً له ما ستعترض عليه العامة، لكن ثمامة استهان بهذه الطبقة بقوله: "يا أمير المؤمنين والعامة في هذا الموضع الذي وضعها به يحيى والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرين ألفاً منها، والله يا أمير المؤمنين: ما رضي الله جل ثناؤه أن سواها بالأنعام حتى جعلها أظل سبيلاً."

أخذ ثمامة يلح على المأمون في إقناعه بعدم الاكترات العامة، فقص عليه قصة حدثت معه، فحواها: أن رجلاً عليل العين كان يبيع الدواء على الناس في شارع الخلد ببغداد، فسأله لماذا هو عليل العين مع أنه يمتلك دواء بهذه المواصفات السحرية التي ينادي بها على الناس، فأجابه بقوله: إن عينة مرضت بمصر، وهذا الدواء مخصص لأمراض العيون ببغداد! وبعد أن استجار المطبب بالعامة هجموا على ثمامة، ولولا انه اعترف لهم بصحة ما ادعاه المطبب لفقد حياته بين أيديهم."

(٥٥) (ك) ص١٤٣

(٥٦) (ك) محذوفة

(٥٧) (ك) ص ١٤٤ القراب

(٥٨) (ك) وزن.

(٥٩) (ك) زيا.

(٦٠) عمرو بن الباب، بصري الموطن، يقال أصله من كابل بافغانستان، من زهاد المعتزلة، ترأس الاعتزال بعد وفاة واصل الغزال، وكان أحد المؤسسين. ساعد العباسيين في ثورتهم ضد الأمويين، وكان أبو جعفر المنصور متخفياً في منزله بالبصرة، توفي السنة١٤٤ هـ، وردت أخباره مفصلة في كتاب "معتزلة البصرة وبغداد."

(٦١) ورد حديث نبوي عن أبي هريرة: "لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي."

(٦٢) (ك٢) ص ١٤٥يحمل

(٦٣) ذكرها الأشعري في (مقالات الإسلاميين، ص ٢٨٦) ضمن ما ذكر من الفرق المستقلة عن الفرق الإمهات. وذكرها الفخري في "تلخيص البيان" من فرق الخوارج. وهم أصحاب بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد، أن صاحب الكبيرة مخلد في النار، وأن الإصرار على صغائر الذنوب من الكبائر، وأن الإنسان مأمور بالخلاص مع الطبع، وأن الطبع الحائل بينه وبين الخلاص عقوبة له، وانه مأمور بالإيمان مع الطبع الحائل بينه وبين الإيمان. وكان يعتقد ان الناس سيرون الله يوم القيامة بصورة يخلقها الله لنفسه، وانه سيكلم عباده. وأخذ عن غبراهيم بن سيار النظام المعتزلي قوله في الإنسان، بانه الروح.

(٦٤) وهي ليست فرقة بعينها وإنما عبارة عن منظومة افكار تقول أن الخير والشر من الله، والإنسان مسير لا مخير. ويسمون بالقدرية وتارة بالجبرية، او أهل القدر وأهل الإجبار.

وأشهر الجبريين جهم بن صفوان لكنه كان يقول بخلق القرآن ونفي الصفات. والشهرستاني (الملل والنحل، ص ٨٥) يصنف الجبرية كالآتي: "الجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل الأصل. والجبرية المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة اصلاً. فأما من اثبت للقدرة الحادثة اثراً ما في الفعل، وسمي ذلك كسباً فليس بجبري "وهؤلاء هم الأشاعرة. عموماً أن الجبريين ما عدا الجهم بن صفوان قالوا أن القرآن كلام الله القديم.

(٦٥) فرقة من فرق الخوارج الكلامية، عرفت باسم مؤسسها الفضل "بن عبد الله" (جامع الفرق والمذاهب الإسلامية، ص. ١٥٦) واشتهرت بقولها: "لا يكفر عندنا ولا يعصي من قال بضرب من الحق، الذي يكون من المسلمين، وأراد به غير الله أو وجه على غير ما يوجهه المسلمون عليه، نحو قول القائل: لا إله إلا الله، يريد بها قول النصارى الذي لا إله إلا هو الذي له الولد والزوجة، أو يريد صنماً اتخذ لها" (الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١١٨.) وقد ذكرها نشوان الحميري (الحور العين، ص ٢٣١) بالفضيلية. وذكر الاشعري فرقة المفضلة وهي فرقة من فرق تاليه الأئمة، وصاحبها المفضل كان صيرفياً (مقالات الإسلاميين، ص ١٣) كذلك نشوان الحميري (الحور العين، ص ٢٣١) وذكرها الفخري في "تلخيص البيان" بالمفضلية، وقال: إنها نفت العصمة عن اللانبياء.

(٦٦) عدّها الأشعري (مقالات الإسلاميين، ص ١٣٤) من فرق المرجئة، وهم أصحاب أبي شمر، وقولهم: "إن الإيمان المعرفة بالله والخضوع له والمحبة له بالقلب، والإقرار به انه واحد ليس كمثله شيء، ما لم تقم عليه حجة الأنبياء."

(٦٧) (ك) ص١٤٧ما

(٦٨) (ك) يستقون، ووردت قبلها عبارة "لمن جعل."

(٦٩) (ك) ص ١٤٨ دائبون.

(٧٠) (ك) عديهم.

مراجع الكتاب

ابن أبي الحديد، عز الدين (ت٦٥٦هـ)

شرح نهج البلاغة. تحقيق الشيخ حسن تميم. بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت٧٢٨هـ)

مجموعة الرسائل الكبرى (الجزء الأول). مصر: المطبعة العمرة الشرقية،١٣٢٣ هـ.

ابن الجزري، محمد بن محمد الدمشقي (ت) ٨٣٣

النشر في القراءات العشر. مراجعة علي محمد الضباع. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن الجوزي، عبد الرحمن ٥٩٨ (هـ)

فنون الأفنان في عيون علوم القرآن. تقديم أحمد الشرقاوي اقبال. الدار البيضاء: مطبعة النجاح، ١٩٧٠

مناقب أحمد بن حنبل. تحقيق عبد الله التركي. مصر: مكتبة الخانجي، ١٩٧٩

مناقب معروف الكرخي. تحقيق عبد الله الجبوري. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥

المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٢

ابن حزم، الظواهري (ت٤٥٦هـ)

الفصل في الملل والأهواء والنحل. بغداد: مكتبة المثنى، إعادة طبع بالأوفسيت.

ابن خلكان، أحمد٦٨١ (هـ)

وفيات الأعيان. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة

وفيات الأعيان. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة:١٩٤٩

ابن الخياط، خليفة العصفوري (ت٢٤٠هـ)

كتاب الطبقات، رواية التستري. تحقيق أكرم ضياء العمري. بغداد: مطبعة العاني، ١٩٦٧

ابن الراوندي، أبو الحسين أحمد (ت٢٥٠ هـ)

فضيحة المعتزلة. جمع عبد الأمير الأعسم (أستلها من كتاب الانتصار بطريقة مشوهة) باريس وبيروت: ١٩٧٥

ابن سعد، محمد كاتب الواقدي (ت٢٣٠هـ)

الطبقات الكبرى. بيروت: دار صادر، ١٩٦٧

ابن طباطبا، ابن الطقطقي محمد بن علي (ت٧٠٩هـ)

الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. مصر: المطبعة الرحمانية،١٩٢٧

ابن طيفور، أحمد بن طاهر الكاتب (ت٢٨٠هـ)

كتاب بغداد. تحقيق محمد زاهد الكوثري. الثقافة الإسلامية، ١٩٤٩.

ابن عبد البر، يوسف القرطبي (ت٤٦٣هـ)
الاستيعاب في معرفة الأصحاب. تحقيق علي معروف وعادل الموجود. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥
ابن عربي، محي الدين (ت٦٣٨ هـ)
تفسير القرآن. تحقيق مصطفى غالب. بيروت: دار الأندلس
إبن عساكر، علي بن الحسن (ت٥٧١هـ)
تاريخ مدينة دمشق. تحقيق محسب الدين العمروي. بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥
إبن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ)
تأويل مختلف الحديث. بيروت: دار الجيل، ١٩٧٢
ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (ت٧٤٧ هـ)
السيرة النبوية. تحقيق مصطفى عبد الواحد. القاهرة: مطبعة عيسى البابي، ١٩٦٤
ابن الكلبي، هشام٢٠٤ (هـ)
الأصنام. تحقيق أحمد زكي. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥
ابن المرتضى، أحمد بن يحيى٨٤٠ (هـ)
طبقات المعتزلة. تحقيق سوسنة ديفلد، فلزر. بيروت: دار المنتظر، ١٩٨٨
ابن منظور، محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)
لسان العرب. بيروت: دار صادر، ١٩٥٦
مختصر تاريخ ابن عساكر. تحقيق مأمون الصاغرجي. بيروت: دار الفكر.
ابن ميمون، موسى الأندلسي (ت١٢٠٥م)
دلالة الحائرين. ترجمة حسين اتاي. مكتبة الثقافة الدينية.
ابن نباتة، جمال الدين المصري (ت٧٦٨هـ)
سرح العيون في شرح رسالة إبن زيدون. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٤.
ابن هشام، عبد الملك (ت٢١٣هـ)
السيرة النبوية. تحقيق السقا، الأبياري، شلبي. بيروت: دار التراث العربي.
السيرة النبوية. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة: مطبعة الحجازي.
السيرة النبوية. تحقيق طه عبد الرؤف. بيروت: دار الجيل.
اخوان الصفا وخلان الوفا
كتاب الرسائل. مطبعة نخبة الأخيار، ١٣٠٦ هـ.
الأسدابادي، القاضي عبد الجبار (ت)٤١٥
المغني في أبواب التوحيد والعدل. مصر: مطبعة دار الكتب، ١٩٦١.
الأشعري، أبو الحسن إسماعيل (ت٣٢٤هـ)

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. تحقيق هلموت ريتر. دار فرانز شتاين، ١٩٨٠
الابانة في أصول الديانة. تحقيق فوقية حسين محمود. القاهرة: دار الأنصار، ١٩٧٧
الأصبهاني، أبو الفرج (ت٣٥٦ هـ)
كتاب الأغاني. مصر: مطبعة التقدم.
الأصبهاني، الراغب حسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)
محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦١
الأنباري، محمد بن القاسم (ت٣٢٨هـ)
إيضاح الوقوف والإبتداء في كتاب الله عزّ وجلّ. تحقيق محي الدين رمضان. دمشق: مجمع اللغة العربية،١٩٧١
الابياري، إبراهيم
تاريخ القرآن. بيروت: دار الكتاب اللبناني،١٩٨٢
الباقلاني، محمد بن الطيب (ت٤٠٣هـ)
كتاب التمهيد. تحقيق الأب رتشرد يوسف. بيروت: المكتبة الشرقية، ١٩٥٧
الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به. تحقيق محمد زاهد الكوثري. القاهرة: مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر،١٣٧١ هـ
إعجاز القرآن. تحقيق أحمد صقر. مصر: دار المعارف.
برنجي، سليم
الصابئة المندائيون. ترجمة جابر أحمد. بيروت: دار كنوز الأدبية،١٩٩٧.
البغدادي، إسماعيل باشا
هدية العارفين في أسماء المصنفين. استانبول ١٩٥١
البغدادي، الخطيب (ت٤٦٣هـ)
تاريخ بغداد. بيروت: دار الكتاب العربي
البغدادي، عبد القاهر (ت٤٢٦هـ)
الفرق بين الفرق. مصر: مطبعة المعارف.
البغدادي، هبة الله بن سلامة (ت٤١٠هـ)
الناسخ والمنسوخ، بهامش اسباب النزول. بيروت: دار المعرفة.
البلخي (ت٣١٩هـ) القاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ)
فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة. تحقيق فؤاد سيد. الدار التونسية.
البيهقي، أحمد بن الحسين (ت٣٨٤هـ)
الأسماء والصفات. تحقيق عبد الله الحاشدي. جدة: مكتبة السوادي للتوزيع، ط١،١٩٩٣

التنوخي، المحسن بن علي (ت٣٨٤هـ)
الفرج بعد الشدة. تحقيق عبود الشالجي. بيروت: دار صادر، ١٩٧٨
نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة. المحقق نفسه. بيروت١٩٧١
التوحيدي، أبو حيان (ت٤١٤هـ)
الإمتاع والمؤانسة. تحقيق أحمد أمين وأحمد زين. القاهرة: مكتبة الحياة للطباعة والنشر.
الثعالبي، أبو منصور عبد الملك (ت٤٢٩هـ)
التمثيل والمحاضرة. عبد الفتاح حلو. القاهرة: دار أحياء الكتب العربية،١٩٦١.
الجاحظ، عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)
الرسائل. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٤
الحيوان. مصر: مكتبة البابي الحلبي،. ١٩٤٠
كتاب القول في البغال. مصر: مطبعة البابي الحلبي،١٩٥٥
جفري، آرثر
مقدمتان في علوم القرآن. مصر: مكتبة الخانجي،.١٩٥٤
جواد، مصطفى، أحمد سوسة
دليل خارطة بغداد المفصل. مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٨
الجويني، إمام الحرمين عبد الملك (ت٤٧٨هـ)
كتاب الإرشاد. تحقيق محمد يوسف. مصر: مكتبة الخانجي، ١٩٥٠
حسن، عبد المنعم
ظاهرة التكرار في القرآن الكريم. ط١، ١٩٨٠
الحموي، ياقوت (ت٦٢٦هـ)
معجم الأدباء. تحقيق مرجليوث. مصر: المطبعة الهندية،١٩٣٠
معجم الأدباء. تحقيق إحسان عباس. دار المغرب الإسلامية،١٩٩٣
الحنبلي، شهاب الدين عبد الحي الدمشقي (ت١٠٨٩هـ)
شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت: دار إبن كثير
الحميري، نشوان (ت٥٧٣هـ)
الحور العين. تحقيق كمال مصطفى. بيروت: دار أزال للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٥
الخوئي، أبو القاسم الموسوي (ت) ١٩٩٢
البيان في تفسير القرآن. بيروت: الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧٤
الخياط، عبد الرحيم٢٩٠ (هـ)
الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد. بعناية البير نصري نادر. بيروت، ١٩٥٧
الداني، عثمان بن سعيد (ت٤٤٤هـ)

المحكم في نقط المصاحف. تحقيق عِزّة حسن. دمشق: مديرية إحياء التراث القديم، ١٩٦٠

دروزة، محمد عزة

القرآن المجيد، بيروت وصيدا: المكتبة العصرية

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ)

سير أعلام النبلاء. بيروت: مؤسسة الرسالة ١٩٨٢

معرفة القراء على الطبقات والإعصار. تحقيق بشار عواد وشعيب الأرانوط وصالح مهدي عباس. بيروت: مؤسسة الرسالة ١٩٨٤

الذهبي، محمد حسين

التفسير والمفسرون. دار الكتب الحديثة، ١٩٧٦

زاده، عبد اللطيف محمد رياضي (ت١٠٧٨هـ)

أسماء الكتب. تحقيق محمد التونجي. القاهرة: دار الفكر١٩٨٣

الزبيدي، محمد بن الحسن (ت٣٧٩هـ)

طبقات النحويين واللغويين. تحقيق ابو الفضل إبراهيم. مصر: دار المعارف.

الزّجاج، إبراهيم السري٣١١ (هـ)

معاني القرآن وإعرابه. تحقيق عبد الجليل شلبي. بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٨

الزركشي، بدر الدين (ت٧٩٤هـ)

البرهان في علوم القرآن. تحقيق أبو الفضل إبراهيم. مصر: عيسى البابي، ١٩٥٧

السجستاني، عبد الله بن أبي داود (القرن الرابع الهجري)

كتاب المصاحف. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ)

المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. تحقيق عبد الله محمد الصدّيق. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٩

السندوبي، حسن

أدب الجاحظ. القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٩٣١

السواح، فراس

مغامرة العقل الأولى. دمشق: دار علاء الدين، ط١١، ١٩٩٦

السيوطي، جلال الدين (ت٩١١ هـ)

الإتقان في علوم القرآن. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧

الشهرستاني، عبد الكريم (ت٥٤٨هـ)

الملل والنحل. تحقيق محمد سيد كيلاني. بيروت: دار المعرفة

شهري، محمد الرّي (ت)

ميزان الحكمة. بيروت: الدار الإسلامية للطباعة والنشر، ١٩٨٥

الطباطبائي، محمد حسين

الميزان في تفسير القرآن. بيروت: مؤسسة الاعلمي، ١٩٧٣

الطبرسي، الفضل بن الحسن (ت٥٤٨ هـ)

مجمع البيان في تفسير القرآن. طهران: ناصر خسرو، ط ٢

الطبري، محمد بن جرير ٣١٠ (هـ)

تاريخ الأمم والملوك. القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٣٩

الطهراني، اغا بزرك (ت) ١٩٧٠

الذريعة إلى تصانيف الشيعة. بيروت: دار الأضواء، ١٣٠٤ هـ

ع، امير مهنا وعلي خريس

جامع الفرق والمذاهب الإسلامية. بيروت: المركز الثقافي، ١٩٩٢

عبد الكريم، خليل

دولة يثرب بصائر في عالم الوفود. بيروت: الانتشار العربي، ١٩٩٩

العسقلاني، احمد بن علي٨٥٢ (هـ)

الإصابة في تمييز الصحابة. بيروت: الكتب العلمية، ١٩٩٥

العكبري، أبي البقاء عبد الله بن الحسين (ت٦١٦هـ)

التباين في اعراب القرآن. تحقيق علي البجاوي. بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧

علي بن ابي طالب (قتل ٤٠ هـ)

نهج البلاغة. شرح محمد عبدة. بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٩٣

عمارة، لميعة عباس

بالعامية (ديوان شعر) نشر خاص، ١٩٩٩

العلي، احمد صالح

خطط البصرة. بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٦

الفخري، علي بن محمد (القرن التاسع الهجري)

تلخيص البيان في ذكر فرق أهل الأديان. تحقيق رشيد البندر. دار الحكمة، ١٩٩١

قمني، سيد محمود

الأسطورة والتراث. القاهرة: سينا للنشر، ط٢، ١٩٩٣

النبي موسى وآخر ايام تل العمارنة. بيتكو: المركز المصري للبحوث، ١٩٩٩

كاظم مهدي ومحمد دشتي

المعجم المفهرس لنهج البلاغة. بيروت: دار الأضواء، ١٩٨٦

كحالة، محمد رضا
معجم المؤلفين. دمشق: مطبعة الشرقي، ١٩٥٧
الكليني، محمد بن يعقوب (ت٣٢٩هـ)
الكافي. المؤسسة العالمية للخدمات الإسلامية.
الأصول من الكافي. بيروت: ط٤، ١٤٠١ هـ
المبرد، محمد بن يزيد النحوي (ت٢٨٥هـ)
كتاب الكامل في اللغة والأدب، وبهامشه كتاب الفصول المختارة من رسائل الجاحظ.
مصر: مطبعة التقدم العلمية، ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ (م.)
المجلسي، محمد باقر (ت ١٧٧٠)
بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣
المخزومي، مهدي (ت ١٩٩٣)
مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو. بيروت: دار الرائد العربي، ط٣، ١٩٨٦
الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه. بيروت: دار الرائد العربي، ط٢، ١٩٨٦
المرتضى، أبو القاسم علي بن طاهر (ت ٤٣٦هـ)
أمالي المرتضى، تصحيح أحمد الشنقيطي. القاهرة: الخانجي، ١٩٠٧
مروة، حسين (قتل ١٩٨٧)
النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية. بيروت: دار الفارابي، ط٦، ١٩٨٨
المزي، جمال الدين يوسف (ت٧٤٢هـ)
تهذيب الكمال في أسماء الرجال. تحقيق سهيل سكار. بيروت: دار الفكر، ١٩٩٤
المسعودي، علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ)
مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق شارل بلا. بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٥-١٩٧٤
الموسوي، العباس بن علي بن نور الدين (ت١١٨٠هـ)
نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس. النجف: المكتبة الحيدرية، ١٩٦٧
النجم، وديعة
الجاحظ والحاضرة العباسية. بغداد ١٩٦٥
النديم، أبو الفرج محمد (ت٣٧٥ هـ)
الفهرست. دار المسيرة، ط٢، ١٩٨٨
النيسابوري، علي بن أحمد الواحدي (ت٤٦٨هـ)
أسباب النزول. بيروت: مكتبة الهلال، ط٢، ١٩٨٥

الهندي، علاء الدين المتقي (ت٩٧٥هـ)
كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. حلب: مكتبة التراث الإسلامي
الوردي، بهاء الدين
حول رموز القرآن الكريم. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٨٣
ياسين، أبو علي
الثالوث المحرم. بيروت: دار كنوز الأدبية، ط٦، ١٩٩٦

.....
الكتاب المقدس. بيروت: دار المشرق، ط٤، ١٩٨٨
انجيل برنابا. ترجمة خليل سعادة. مصر، ١٩٠٧
فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف -بغداد: مطبعة الرشاد، ١٩٧٤
الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط علوم القرآن. عمّان: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، ١٩٨٧
قاموس الكتاب المقدس. القاهرة: دار الثقافة، ط٩، ١٩٩٤، ط١، ١٨٩٤

المخطوطات:
انجيل يوحنا المُحول (مصحف الأبقرفا)، تاريخ النسخ٧٤٢ هـ. ميلانو: نشر نصه العربي وترجمه إلى اللاتينية يوحنّس غالبياتي، ١٩٥٧
قرآن كريم، المكتبة البريطانية، رقم ١٩-ف١٨. ص،١٣٩٧. Xع ث: تاريخ النسخ: القرن التاسع الميلادي،
قرآن كريم، المكتبة البريطانية، رقم: ٧٧-ف٧٦. ص،٢١٦٥.ع ث تاريخ النسخ: القرن الثامن الميلادي
كتاب القضاء، علي بن محمد الطباطبائي (القرن الثاني عشر الهجري،) مكتبة ديوان الكوفة بلندن، الرقم خ ع٤٢/١٠٠، تاريخ التأليف١١٩٢ هـ تاريخ النسخ ١٢٥٩ هـ.

الدوريات
مجلة المنار، مؤسسها محمد رشيد رضا، المجلدات: الرابع ١٩٠١، الخامس١٩٠٢، والعاشر ١٩٠٧
مجلة المقتبس، مؤسسها محمد كرد علي، المجلد الثالث ١٩٠٨
مجلة الموسم، صاحبها محمد سعيد الطريحي، ١٩٩٣
جريدة الغد الديمقراطي، شباط (فبراير ١٩٩٠)

فهرس الأشخاص

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الفرق والجماعات

(هـ)

(ي)

فهرس الأماكن

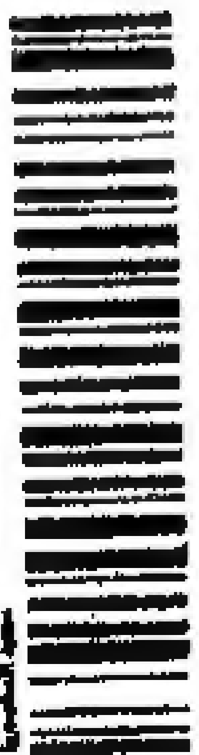
فهرس الآيات القرآنية

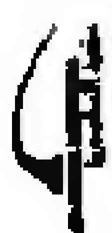
فهرس الأحاديث النبوية

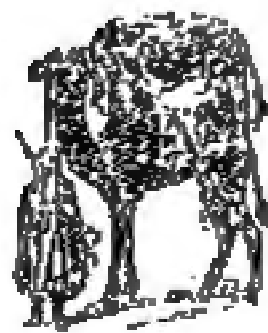
المحتوى

هذا الكتاب

حوار الفقهاء والمؤرخين، من مختلف الفرق والمذاهب، حول تاريخ القرآن الكريم، منذ جمعه وتكوينه وحتى ترقيمه وتنقيطه، والاختلاف في عدد سوره وآياته، وحيرة المفسرين بمعاني حروف التهجي، التي تقدّمت عدداً من سوره. يبدأ بأسماء القرآن التشريفية، بكراماته، سوره وآياته وحروفه، بعد العروج على مجمل تاريخ التنزيل، ثم يتناول مقالة خلق القرآن، التي شاعت أيام الخليفة عبد الله المأمون، محاوراً شخوصها ومحنتها، ثم مصيرها ومصير القائلين بها، بعد عصر ازدهارها، أيام ثلاثة من الخلفاء، ثم خفوتها أيام المتوكل. ثم يُختتم بتقديم تحقيق لكتاب الجاحظ المخطوط «خلق القرآن». كان ابن بحر شاهد عيان على تفاصيل المحنة، دونها في كتابه إلى جانب عرض تصورات أصحابه، وموقف الجميع من محنة الفقهاء الممتحنين.







منشورات الجمل